

هُدَى بَرَكَاتٍ



22.12.2014


مَلَكُوتُ
هَذِهِ
الأَرْضِ
رَوَايَةٌ

دار الآداب

هدى بركات

ملكوت هذه الأرض

رواية

دار الآداب - بيروت 

ملكوت هذه الأرض

ملكوت هذه الأرض

هدى بركات/روائيّة لبنانيّة

الطبعة الأولى عام 2012

ISBN 978-9953-89-216-0

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر

دار الآداب للنشر والتوزيع



ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص ب. 4123 - 11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

rana.adab@hotmail.com

Website: www.adabmag.com

أسماء وشخصيات وأحداث وأمكنة
واردة في هذه الرواية تتقاطع
أو تتشابه بشدة مع الواقع أو
الحقائق التاريخية، لكنّها تبقى، في
عدم دقتها المقصودة، من نسج الخيال
ومختلفة بالكامل ولا تردّ إلى الواقع
بأيّ شكل من الأشكال.

الكاتبة

إهداء

إلى أهل تلك الجبال العالية، في ما كان لنا من الزمان الذي
مضى، ثم مضى، في حلوه الكثير
وفي مرّه الكثير أيضًا لكن دائمًا في حبّ بلا حدود، ذلك الذي
يحتضن الإيمان والنكران
معًا كأخوين توأمين، كما في كلّ الحكايات منذ القِدَم.
في كلّ الحكايات

هدى بركات

الفصل الأول

يا بو

يا بو يا بو

ما عاد المزوّق يسمع صوت الصبي على البغلة وراه.

يا بو، يا بو خّلينا نرجع، راح الصبي يصرخ وهو يضرب بطن البغلة بكعبيه.

يا بو، يرحم جدّي، بحياة مار سمعان والعدرا مريم.

يا بوووووو

التفت المزوّق عن ظهر فرسه ورأى الصبي بعيداً وراه والبغلة لا تتحرّك. تدقّ أظلافها في الأرض وقد أنزلت رأسها لا ترفعه.

يا بو حرنت. البغلة لا تريد التقدّم. حرنت بنت الكلب.

نظر المزوّق إلى السماء. عاد إلى حيث الصبي ونزل عن الفرس وقف أمام البغلة ينظر إلى رأسها ثم ينظر إلى السماء

خّلينا نرجع يا بو يرحم جدّي. ليك الرّيح. ليك السما يرحم أمواتك.

أعلى المزوّق ساعده قدر ما يستطيع وهوى بقبضته على رأس

البغلة. ثم أمسك برسناها ونتره بقوة فدقت أظلافها في التراب
وصلبت قوائمها

راحت الفرس تصهل دون توقّف، وتنفض رأسها في كلّ
اتّجاه. صار المزوّق يُعلّي صوته أكثر فأكثر وهو ينهر الفرس، إذ
كان صوتُ الريح صار زمهريراً

لا أرجع لوحدي إلى بيت بو علي. لا أرجع لوحدي يا بو،
يرحم جدّي. ما بدّي.

ليك. اسمعني جيّداً، قال له أبوه. البغلة ستسير لوحدها إن
أدرت رأسها إلى الورا ستمشي من نفسها فهي تعرف الطريق إلى
بيت بو علي جيّداً كم مرّة سارت على هذه الطريق ورسنها فالت؟
لا تخف. لا تحلّفني فأنا لن أعود معك. ستعود لوحذك.

لا تخف، كم مرّة قطعْتُ ظهر الجرد، كم مرّة؟ لم قد تخاف
عليّ؟ السماء سوداء لأنّها ستمطر تمطر كثيراً في مثل هذه الأيام
على ظهر الجرد، لكنّه قطعاً ليس موسم الثلج لن تثلج قبل
صلاة المغيب أكون في الضيعة، بل في البيت.

ساعدني هيّا ساعدني كي نفكّ حبال البردعة ونزل الخرج
بما فيه. سأحمّل الأعدال فيما بعد على الفرس. أنت عدّ خفيفاً
فتوقّف بغلتك عن حرنها

لفّ المشلح جيّداً على رأسك لا تخف. إن خفت غنّ.
هووووو. هووووو أرايت؟ إنّها تسير من تلقاء نفسها كم مرّة
قطعْتُ ظهر الجرد في حياتي؟

ثلج

نزل المزوّق عن الفرس ليسوّي أعدال العدس ويهدّئ من روع الفرس، وراح يصليّ.

أحاط رقبة الفرس بذراعه. وضع رأسه على رأسها وراح يمرّر باطن كفّه الكبيرة على عينيها رفع صوته قليلاً بالصلاة، يصليّ عن نفسه وعن الفرس ويسمعها صوته لتأنس قليلاً وتستكين.

لن تتخلىّ عنّا أمّ الله الحنونة هل تخلّت عنّا يوماً أمّ الله الحنونة؟ دسّ فمه في أذن الفرس وراح يرتل لها بصوته الحنون.

يا أمّ الله يا حنوووونة، يا كنز الرحمة والمعوووونة

أنتِ ملجانا، وعليكِ رجانا تشفعي فينا يا اااا عذراء.

صوته، مثل صوت أبيه وأصوات جبّ المزوّقيّة، حنون. ذاب قلب الخوري كي يجعله يرتل السنكسار في الكنيسة إذ هو لا يريد الترتيل في القداديس ولا يصبر على طولها، لا في الأحاد ولا في أعياد القديسين. على كأس العرق، في نهاية السهرة يغني المزوّق

بصوته الخفيض فتبكي النساء، ويدمع الرجال كثيرًا وهم ينهرونه، وبعضهم يسبّ الدّين طربًا لكنّه لا يحبّ الغناء إلّا حين يكون وحيدًا، في حقلته، على الطريق إليها أو عائداً منها كان يحبّ سماع صوته الحنون، المنخفض والرفيع والذي يشبه قليلاً أصوات النساء. وحين يضطرّ لاستعمال صوته الجمهوري القويّ ليطلب شيئاً من البيت وهو في الحقل البعيد كان يكره صدى ذلك الصوت. إذ يظنّ يسمعه عائداً إليه من الوادي، مُرجعاً

ووووو يايايايا ااااا سلمى ااااا ووووو

لو لم يكن رجال جبّ المزوّقيّة أقوياء وشجعاناً لعابهم ذلك الصوت، وحبهم للغناء. منحهم الربّ قوّة وضعوها في موضعها، في خدمته حتى لو لم يلتزموا - أباً عن جدّ - حضور القداديس أو طاعة الخوارنة، فإنّ مسبحة الوردية لا تغادر أعناقهم وزيت مذبح العذراء في بيوتهم لا ينطفئ في الحروب، كلّ الحروب، كانوا السند الذي لا غنى عنه. أبطالاً صناديد في المعارك. هاماتهم على الأحصنة كانت ترعب الأعداء وهم، حين يُخرجون بواريدهم يلتمع معدنها كالفضّة وتبدو أخشابها كمرايا، موسكوبية كانت أم إنكليزية أم فرنسية. لكنهم ولا مرّة واحدة، منذ أيام جدّهم المزوّق الأوّل، ارتضوا ذخيرة من أحد. أمشاط الرصاص أكثر وفرة في بيوتهم من أعدال القمح. بل إنّ القمح إن نضب لا تنضب الأمشاط. وهم إن أخرجوا سلاحاً من لفائفه الصوفية فلأمر جليل ولدحر عدوّ خارجي هكذا، حين ركض فريد إلى اليوك يرمي عنه الفرش والمساند وهو يكفر بالربّ وبالعذراء مريم

وبسماء الأعمام وأبناء الأعمام، كانت مريانا زوجته هي من ردعه .
وقفت بينه وبين اليوك . أمسكت ذراعيه بقبضتيها ثم التفت عليه من
الخلف وغمرته ككماشة عملاقة . ورغم قوته الذائعة الصيت كان
كلّما أفلتت منها تعود إليه بما استطاعت الإمساك به من جسمه
الكبير لتسجبه إلى الوراء . هو يكفر بمن خلقها وبأهلها وهي تكرر
التضرّع إلى الربّ بالمغفرة . لا تسمعه يا يسوع

هذه كأس مريانا، قال الرجال، مفتتحين عشاء الصلح لا
نقرب الشراب أو الأكل قبل أن تشربي معنا الكأس الأولى . رفعت
مريانا كأس العرق وهي تمسح دموعها بغطاء رأسها قالت يا هلا
بالربع هيدي كأس ابن العمّ، وهي تقصد البائع الذي كان يريد
زوجها قتله إثر خلاف على صحّة لحم العنزة التي ذبحها فريد وطار
صوابه حين فتح بطنها

رغم أنّ مريانا غريبة، من حارة الفوقا، فهي ما إن وطئت
قدمها دارة بيوتهم حتى نسيت أهلها ونسيت عيشتها عند أهلها
حين فكّت أربطة جهاز عرسها راحت نساء العشيرة يهززن رؤوسهن
أسفاً قلن لأزواجهن مساءً: هذه لن تعمّر بيننا من لم ير لن
يصدق . صندوقها شامي، مطعم بالصدف والفضّة، وثيابها كلّها من
برّة . كلاسيها مخرّمة وجواربها من حرير وشفّافة! وعندها فساتين
يمكن من باريز هذه لا تحلب بقرة ولا تعجن لكنّ طحين . عندها
أحذية لها كعب يرتفع شبراً عن الأرض ومن المخمل هذه لا
تمشي إلى الحقالي . قال الرجال إنّها صغيرة وستعلّم . ثم قالوا إنّ
فريد يحبّها فسكتت النساء . لكنّهنّ، في ما بينهن، رحن يشكّكن

بشفقة أبيها على فريد من أن يقتل نفسه أمام بيتهم . ورغم أنه وضع
المسدس مراراً في فمه أمام شرفة بيتها على مرأى من أبيها، ورغم
أنه نذر ليله يغني على الطريق ويسكر ويتقيأ في ساحة حارة الفوقا -
حتى يخبر الناس أباهما - إلا أن النساء رحن يشككن بمزايا
البنات . بأن يكون أبوها أراد تزويجها لعيب ما فيها، يا رب استر
على بناتنا بنت مدللة كل هذا الدلال . والمسألة ليست مسألة
غني وفقير، ففريد ككل المزوّقة ليس فقيراً بل هو يُعتبر من أغنياء
الفلاحين ويملك الكثير من الأراضي في بلاد بعلبك . لكن فريد
أخوت، وعيشه غير عيشها بنت مدللة كل هذا الدلال . يا رب
استر على بناتنا

لكن جهاز مريانا بقي في صندوقه حتى نسيه الجميع، تماماً،
ولم يتذكره أحد إلا بعد مماتها حين فتحت بناتها الصندوق .

كاس ست البيت، يقول الرجال، تسمع مريانا النداء فتترك
دست الفاصوليا وتعود إلى طاولة الرجال ولا تنظر إلا إلى فريد .
تغورق عيناه بالدموع إذ يعرف أنها تريده أن يكف عن الخجل من
نفسه بعد تأنيب الرجال له على محاولته سحب سلاحه في حكاية
تافهة . جرّصتنا، كانوا يقولون . ولولا مريانا، كانوا يقولون .
وكان الخوري فرنسيس - ابن الشرموطة أديل - يريد حشر أنفه،
كانوا يقولون . وهي انقهر قلبها وانعصر إذ قدّرت أنهم يبالغون .
كثيراً

سكبت الفاصوليا في الجاطات والرز في صحون كبيرة ثم
جلست إلى جانب فريد . سكت الجميع إذ بدأ فريد يرندح بصوت

خفيض وهو يلوي رأسه ويُنزله حتى صدره .

أووووف . إيه . أووف . إيه . حَبِّي علينا بس حَبِّي
متلنا إيبه . إذ ذاك وضع فريد كَفَه مكوَّرةً على أذنه وراح يغني .
بصوته الحنون .

بقي فريد واضعًا كَفَه مكوَّرةً على أذنه ، لاويًا رأسه ومُنزلاً إِيَّاه
على الصدر ، يغني بصوتٍ خفيضٍ جدًّا ، ويكي ، على عتبة بيته ، لا
يأكل ولا يشرب ، نهارًا وليلاً ، يهز رأسه حين يكلمه أحد ويجهش
بالبكاء حتى مات ، بعد موت مريانا ، وهو لم يكن ختیارًا

كلّ من ماتت زوجته قبله ، من المزوّقيّة ، جلس على عتبة بيته
بيكي ويغني حتى مات . كانت الأغنيات الأخيرة مفكّكة الكلمات
لا يفهمها أحد ، ربّما بسبب صوت المغني الخفيض ، والذي يروح
ينوس شيئًا فشيئًا كقنديل خلص زيته وجفّ فتيله

كانوا عشيرة يُضرب بها المثل عن حبّهم لنسائهم ، حتى في ما
وراء جبلهم . أشعارُهم التي غنوها لهن ، وبخاصّة تلك الحزينة
منها ، انتشرت حتى بلاد البترون ، بل حتى حلب وهوران . إذ روى
أحد تجّار اليانسون ممّن يرتادون الناحية أشعارًا لهم وزجلًا مسبوگًا
في الغرام ، ردّدها المغنّون في حلب على أنّها من أشعار الأقدمين ،
وربّما المتنبي ، وأنّ التاجر صحّح لهم بأن أقسم على رأس أولاده
وحلف بطلاق زوجته بأنّها من أشعار المزوّقيّة ، بل إنّ سمعها
شخصيًا من فم المير يوسف عيسى الخوري ، أمير العتابا
والميجانا ، في أحد الأعراس الكبيرة ، ليس في جبل لبنان بل في
هوران أيضًا . وأنّذاك أقسم تاجر اليانسون أن يصطحب معه المير

ليرفع التحدي أمام أكبر الرؤوس المشككة . لكنّه لدى عودته من رحلته تلك كان المير ضيفاً على أحد مشايخ عشائر المتاولة في بلاد بعلبك فرفض التخلي عن التزامه مقابل ذهب الأرض . ذلك أنّ الوضع كان حسّاساً آنذاك مع عشيرة المتاولة تلك إذ لم يكن فات على الصلح معهم وقت طويل ، حتى إنّ كامل الدية عن دم قتلهم لم يكن قد دُفع بالكامل بعد .

ثلج

ثلج، لا زخات من البرد. الرقع البيضاء تلتصق بالأرض الآن. وتتراكم. لم يعد بائناً ما يفصل رماد السماء عن أبيض الأرض.

هدأ الزمهير فنزل الضباب سميكا كاللباد. ما عادت رؤية الشعاب لمعرفة المسافة المتبقية ممكنة. أوضة الفرساوية، وهاد الطرشان، كوع مار صفرونيوس، صليب قلب يسوع لا شيء بعد نساف البطرك كل الجرد غارق في هذا الحليب المضروب والزوج. والريح التي تدور كبالوعات كبيرة في سواقي السماء ترتد كلها في عكس سيره وتضرب.

نزل عن الفرس. ألقى بأعدال العدس على الأرض. أبقى على القمح والشعير فتح مديته وبقر كيس شعير أمام فم الفرس. لم تنحن ولم تأكل. كلي يا مباركة، من أجل العذراء، كلي كي تشتد قوائمك، لا خيار لنا علينا أن نتقدم.

كانت عينا الفرس تنظران بثبات أمامها. كأنها لا تصغي. كان

رأسها باردًا كأصابعه حين مرّ كفه على مقدّمة رأسها راحت
تحمحم وتميل برأسها إلى الناحية الأخرى. إنها غاضبة عليه لكنّها
قطعًا لن تتخلّى عنه.

أنت أصيلة يا مباركة. ما كان يمكن أن أبيت هناك. ما كان
يمكن أن أبيت في بيت بو علي. تعرفين كم أحبّه بو منصور.
تعرفين، إذ حالما نترك القمّة لنبدأ النزول إلى عزبة عيناتا تبدئين
بالرقص دون أن يحثّك أحد. تعرفين إذ يغمرك ويقبل رقبتك ويأتيك
بالشعير مرطبًا ومخلوطًا بالسكّر

حتى امرأته لم تكن راضية. تعرفين طبيعتها أم منصور صار
خذّاها أحمرين كالدم وهو يتكلّم. سبح الرّب، راحت تقول له
إكسر قوّة الشيطان يا ابن عمّي.

مذ سحب الجدي وهمّ بذبحه أمام أمّه وهو يرفع الصوت
بالقسم الغليظ، عقد المزوّق حاجبيه وراح ينتظر أمرًا سيئًا
ويتوجّس. لم تكن هناك مناسبة للمبالغة في حفاوة الاستقبال إلى
هذا الحدّ. منذ شهر أو أقلّ زار المزوّق شريكه راجي بو علي، بو
منصور، مازحه حول حصيد الموسم من العدس والقمح، ملطفًا
تحذيره إيّاه بالأ يبالغ في الغشّ. قال له الحمد لله على الوفرة،
مبارك اسم العذراء، خيرها طاف على عبيدها غلّة السنة سوف
تكفي لستين حتى لو ابتلانا الرّب بموسم سيّئ في السنة المقبلة.
وحاسبنا على خطايانا فسوف نستمهله لنندم عليها ونصلّي من أجل
الغفران. راح بو منصور يضحك ضحكات صغيرة متتالية ويتنحج
بأنّه فهم الرسالة. . لماذا إذن هجم اليوم على الجدي.

من غير لحم طازج وضعت أم منصور أمامهما طاولة زاخرة بالأطياب، لكن كان ذلك من عادات هذه المرأة الكريمة. قال المزوّق، هذه السنة سنشيل العرق سوياً عندي في النبع، لا لزوم لكركتين. عندي من اليانسون ما يكفي لضيعتين، محاولاً حمل الرجل، المرتبك بشكل واضح، على الكلام. لا لا نسحب العرق عندي. عندي أو عندك لا فرق. الكرم أقرب إلى هنا، قال بو منصور. وهي في الحاليتين أرضك.

صمت الجميع. حتى الأولاد.

قال المزوّق: كيف يكون الكرم أقرب إلى هنا من أرض النبع؟ ضحك راجي بو علي ضحكاته الصغيرة المتلاحقة ثم قال بصوت رفيع يا بو سابا أنت تاج راسنا وصاحب المشورة في كلّ الملمّات، أنت تعرف لو طلبت مني ولداً أذبحه لك على العتبة ولا أسألك لماذا أنا لحم كتفيّ من خيرك. لكن لنكسر الشرّ العين لا تقاوم المخرز

خز العرق من جبين المزوّق فابتعد عن وجاق النار قال أيشوي المخرز أيش في من جديد؟

إنت زلّمة صلح وراعي النشامى، قال بو منصور. كلّ عمرك تقول لي ابتعد عن المشاكل

فهم المزوّق أنّ الأمر خطير، لا بدّ. تنفس عميقاً وقال:

يا بو منصور أنا كسرت الشر وقضيت مدّتي في حبس بعلبك وأنا أتلو مسبحة الوردية والأبانا حكينا في الموضوع لم يكن

بمقدوري أن أقطع مياه نبعي عن الأرض التحتا لمجرّد أنّ البيك يريد معاقبة أولاد ابن الدبّاك. ثم بعد الحبس قبّلت كمّ البيك وهو قال يا مزوّق طويّنا الصفحة. أنا، لا قبل ولا بعد، أكره البيك أو أستعديه. ولا المونسنيور وكلامه الجارح والواقف وغير الموزون.

وقف المزوّق ووراءه أولاده الستّة أمام بيت الحقلة في عيناتا ينظرون تحتهم إلى جلالبي بيت الدبّاك وإلى زرعها الأصفر، والأرض تطلق عطشًا تحت الأشتال، والثمار لم تينع بعد. ابن الدبّاك الذي اشترى قطعته بشلّكًا بشلّكًا ومصريّة مصريّة من أبي المزوّق كان رجلًا فقيرًا وابن مكاري. ماتت زوجته جوّعًا بُعيد حرب الأربعتعش مع أنّ أحدًا لم يمت جوّعًا في ناحيتنا رغم جحافل الجراد التي ردّتها العذراء مريم. حنّا المزوّق، أبو المزوّق المزوّق عنّف ابن الدبّاك الشابّ حتى كاد يضره أمام الناس في دفن أمّ أولاده. قال له بالصوت العالي وهم يخرجون من المقبرة: أطعمنا الغرباء وأهل السبيل قال الرجل كانت مريضة. كان عندنا أكل. كاد حنّا يصفعه من غضبه إذ رأى الجميع هزال المرأة الميّتة، التي تشبه جثّتها من كانوا يموتون جوّعًا على الطرقات في حرب الأربعتعش. لماذا لم تأتِ إليّ صار حنّا يقول له بعنف ويدفعه من كتفه، راح الرجل يبكي فقال له حنّا توقّف عن البكاء. لا أريد بقيّة سعر الأرض، إنّها لك، شرط أن يأتي صغارك كلّ مساء ليأكلوا في البيت. بعد أشهر مات ابن الدبّاك، وصار أولاده الصغار في البيت، ليس مساءً فقط.

مياه النبع كانت تجري في ساقية إلى النهر وقد حوّلها الجرف

القسري عن الجلالي والصيران الواطئة. يجلس المزوق وأولاده تحت الجوزة. تقول سلمى التي يشقيها صمت أبيها كثيرًا، لا تعتل همّ يا بو الخير كثير وسنعتيهم نصف غلّتنا

هذا قرار كان المزوق اتّخذه في رأسه، لكنّ الأمر ليس هنا

كان كأنه يسمع حشرجة النسغ في شعاب الجذور الصغيرة وقد توقّفت عن السعي برؤوسها المسنّنة في التراب الناشف. البندورة، الخضراء ما زالت، نزلت في الأرض وبدأت اهتراءها البطيء. اللوبياء سحب العطش قرونها الصغيرة إلى الأشتال قبل أن تحبّب. والبطاطا البطاطا لم تفرّخ بعد في الأرض وقد اسودّ أخضرها الهزيل وسوّي بالتراب تمامًا ولا بدّ أنّ الطين زاد بلّة إذ يكون الأولاد تحت أشبعوا الأرض سمادًا وها هي تحترق من العطش والسماد معًا زبل الماعز لا يرحم، يفلفل الأرض لشدة ما هو قوي وهم لا يملكون حتى شبر أرض زائدًا لزرع القمح. يشترونه شراءً بعد بيع البطاطا التي لا ينافسهم أحد في جودتها وطعمها، وفي عصيانها على الدود.

وتقول سلمى. يا بو نعطيهم من كلّ ما عندنا لا تنقهر يلاً قم لتنعشّي، فترى أباها وقد بدأ صلاة الوردية. كان المزوق يطلب من العذراء عجيبة واحدة، أن تمطر السماء وأن تطوف الأرض حتى ولو أهلكت نصف زرعه. أو حتى كلّ الزرع، فمنذ الأربععتش يخزّن أبوه موسمًا كاملاً ولو اضطرّ أحيانًا لرمي نصفه. وهو يفعل مثل أبيه.

طوفان يا أمّ يسوع، يقول في قلبه. أعرف أنّ عبدك الخاطيء

لا يستحقّ. لكن، يا سيّدة بشوات العجائبية افتحي أقفال السماء
أذبح لك عجلًا مسمّنًا

لم تمطر السماء، فنحن خطأة. لم يكن حزنًا أو أسى كان
غضبًا مرًا لا يخرج. يا سيّدة بشوات العجائبية. هنا تنفع
العجائب، لا أن نراك تتنقلين من مكان إلى مكان وتظهرين متشحة
بغلالة من زيت الزيتون. ساعة زيت في بشوات وساعة بخور في
بتدعي وساعة. ارحمنا يا الله كعظيم رحمتك. سامحيني يا أمّ
النور وأشفقي على عبدك الخاطي.

لم تمطر السماء.

ظلّ سهران أمام بيت الحقلة يخترع أشياء يفعلها دون لزوم أو
ضرورة. ينظر إلى السماء فتبدو النجوم كبيرة كالبطيخ. البطيخ الذي
يحبّه كثيرًا ولم ينجح يومًا في زراعته. كانت الثمرة تتوقّف عن
النمو وهي بعد في حجم القبضة، صفراء من الداخل وطعمها أشبه
بطعم الكوسا أو الباذنجان النيء، ولا حبة سكر

النجوم كالبطيخ والسماء في زرقتها الداكنة ناشفة كطيخ
الأرملة. لن تمطر

لفّ سيجارة أخرى وراح ينظر إلى الصيران تحته. ثم رأى
ظلالاً تتحرّك. رأى أولاد ابن الدباك، أو واحدًا منهم، يسير محنيّ
الرأس بين أسناد الأشتال.

رمى المزوّق سيجارته وهبّ واقفًا نادى بصوتٍ خفيض. يا
هووو، يا خي تحت، مين. فلم يجبه أحد واختفى الظلّ في

أسود الليل تخيل أن أحداً منهم يتفقد موت الأرض. كمن يضع باطن يده على صدر حبيب يموت، في نبضٍ أخير أو في برودة لحم الصدر الساكن.

غصّ المزوّق بقهر قلبه. هل ترضين بهذا يا عذراء؟ كاد يبكي حنقاً ولوّيا عذرا، هل سكت وحيدك عن الظلم يا عذرا؟ هل تخلّى عن الضعيف في ملكوته يا أمّ الله يا حنونة؟ أليس في هذه الأرض من ملكوت يا عذرا، ولو قليلاً، ولو صورةً عن ذلك الذي هناك في السماء البعيدة سيعوّض الخسارة ويُقيم العدل؟ فيما بعد؟ أعطنا خبزنا كفاف يومنا، كفاف يومنا فقط، ولو كطعم بعيد للملكوت الآتي، نتذوّقه فقط ليشدّ إيماننا، ليعدنا بطيب الآتي، من أجل الأمل والرأفة. طعما بعيداً فقط.

أجابته العذراء سمع المزوّق العذراء تقول له: ليست عجائبي حيث تنتظرها أو تطلبها ليست بحسب ما تريد. لي حكمتي التي أعطانيها الرب. لن تمطر السماء. هذا الليل الذي أمتطيه كفرس أدهم كبير أدير رسنه بحسب مشيئة ابني ربّي وإلهي، لن يُريق ماءً. ماؤه يا بنيّ في مكان آخر وقد يكون بين يديك يا عبدي

كان المزوّق بجسمه الكبير المفرد على شكل صليب بذراعيه الواسعتين يشتّم البخور في خياشيمه المغروزة في تراب الأرض، خشوعاً ووجلاً وحبّاً

هبّ واقفاً رفع ذراعيه إلى السماء وشكر العذراء شكراً عميقاً وهو يبكي.

ركض إلى خلف البيت. أخذ معدوره. دقّ المعدن بقوة في

عوده الخشبي الغليظ، ونزل صيران حقله بخفة الطائر رسم إشارة الصليب ورفع كمّي قميصه حتى الكتف. بصق في كفيّه، وراح يضرب مكسر الساقية. بمعدوره الذي صار خفيفًا كريشة نعام. حمل الدفقُ الأوّل من ماء نبعه قشًا سميًا ووحلاً قاسيًا كالحجارة. راح يُفسح للماء ويرافق دفقها في صيران أولاد الدبّاك وهو يرتل للعدراء بصوتٍ مسموع. يفتح الأثلام كأنّه يحرثها للمرّة الأولى في أرض عادت كأنّ بورًا لشدة عطشها سمع دعسًا قريبًا على النبات المتيبّس. ثم صوتًا قال له مرتجفًا ماذا تفعل يا زلمة. وبنبرة خفيضة جدًّا مات الزرع يا زلمة. إصعد إلى أرضك. رجال البيك مسلّحون، وهم على بعد أمتار، هم هناك، هل ترى قناديلهم. لا تعرّض نفسك يا خي. حين اقترب الرجل ورأى المزوّق مستمرًّا في السقاية وهو يرتل ويبكي، راح هو أيضًا يبكي. ثم يُغرق قبضتيه في الوحل والماء ويبكي. سوف يقتلوننا ويقولون اعتقدنا أنّهم واوية يأكلون الزرع كئنا نحرس الأرض بحكم القضاء ولم. سوف يقتلوننا

استمرّ المزوّق يحفر الأثلام ويُدفق المياه فيها ويرتل. قال للرجل لا تخف، العدراء قالت لي أن أفعل أمّ الله. يرحم جدّك القديس الطاهر، قال الرجل وراح يسقي معه. وغزرت المياه كعجبية الخبز المقدّس، تربّس الجلل كأنّ ماء النبع تضاعف مرّات وفاض في عدّان بلا نهاية.

ظلّا هناك حتى الفجر وفي اليوم التالي، والصيف لم ينته بعد، حمل المزوّق ما استطاع تحميلة على الفرسين والبغل، رفع

الأولاد على الأعدال الكبيرة. لم يردّ على أسئلة سلمى. وحين لم يجد راجي بو علي في بيته ولا في الأرض قال لامرأته: الصبي في الضيعة مريض وأمّه بعثت تريدنا، قد نحمله إلى الساحل. سأعود وحدي بعد أن أترك الأولاد هناك مع أمّهم ونساء أعمامهم. إن تأخّرت قليلاً أوصيك بالمونة. الزبيب والجوز، وقمح البرغل نقطعه هناك.

والكشك أيضاً يا بو سابا، قالت المرأة، من عينيّ الاثنتين. الخير خيرك ولا يكون لك همّ اهتمّوا فقط بالصبي. الله يفرّحك به وبأولاده في حياتك. وبو منصور يتكفّل بالحصيد وبكلّ شيء. حين تعود ستجد كلّ شيء كما تريد. الله معك. يسوع والعذرا يرافقوك. انتبهي لإخوتك يا سلمى.

ليس جبناً لم يهرب. أراد فقط أن يكون وحيداً بلا الأولاد. وفي الضيعة، في المقلب الآخر من الجبل، لبث أياماً دون أن يسمع بمشاكل حصلت في عيناتا لم يسمع بشيء.

عاد بعد أسابيع قليلة. أقلّ من شهر دهمه العسكر في البيت وجروّه جرّاً كان يمسح شاربيه ويطلب الصبر من يسوع كلّما أحسّ بالغضب يفور في قلبه.

قال للقاضي: ليست المياه ملكاً لأحد ولو كان النبع في أرضي. نهره القاضي بفظاظة وقال له مع أنّك فهمان وتقرأ وتكتب، لماذا يا ابني لا يحوِّك رأسك ما أردّده على أذنيك المسطومتين النبع لك، ملكك، لكنّ المياه ملك الدولة، لا تتصرّف بها كما تريد. القانون موقع منذ مئة سنة، أيام الأمير حيدر

اللّمعي، أوّل قائمقام على النصارى جميعهم والموارنة خصوصًا وهذا مسجّل عندكم في الدفتر الثري وبعهدة مشايخ بشرّي يا ابني. منذ مئة سنة. تريد أن تغيّر القوانين؟ لكنّ هذا القانون عثمليّ وما عاد. قاطعه القاضي صارخًا أنا من أقول القانون صار أو ما صار. القانون عندي. أم أنّك تريد أن تعلّمني القوانين. من أنت يا ولد لتتكلم هكذا

حين قال القاضي «يا ولد» سكت المزوّق نهائيًا ولم يعد ينظر ناحيته، ولا ناحية رجال البيك، ولا ناحية ربه وأولاد أعمامه. أطرق في الأرض، يناديه القاضي صارخًا وهو لا يردّ ولا يرفع بصره ناحية القاضي.

عالحبس. ما بيربّيكم غير الحبس. راح يصرخ والمزوّق لا ينظر إليه. عاقداً حاجبّه ومُطرقاً في الأرض. لم يسمع حتى النطق بالحكم. وهو بقي على صمته هذا وإطراقه في الأرض طيلة أشهر الحبس التي لم يعدّ أيّامها وهو الآن يقدرها بستّة. تقريبًا هذا ما حصل.

ابتعد عن وفاق النار وقال لابن بو علي، لا قبل ولا بعد، أنا لا أكره البيك أو أستعديه ما لي وله. قبّلت كمّه وهو قال طوينا الصفحة، أنت لم تقصد شرًا فقط لم تكن تفهم بالقوانين واتقاء للشر لم أردّ على كلام المونسنيور النشاز ثم قال:

- أيش في من جديد هلق؟

- في إنّو أولاد الدبّاك باعوا أرضهم للبيك.

- إي إيش عليه؟ ما دخلنا نحن؟

- شريك البيك، ابن وطفا اللّي متل أحوالي ما عندو أرض
استلم أرض أولاد ابن الدبّاك، هو وأولاده.

- إيه . ؟

- تعرفه ابن وطفا وتعرف أولاده كَلّما طلعت إلى أرض
النبع أو عرّجت على الكرم يفتعلون معي مشكلاً ويسحبون سلاحهم
ويشتمونني بشتائم نابية وإلى آخره.

- إيه . ؟

- وأنا، تعرفني، لا أردّ. لكنّهم صاروا يأخذون عدّان السقاية
مباشرة من فوق، يقطعون المكسر من عندنا، من فوق، أكان
دورهم في العدّان أو لا ذهبّ من أيّام قليلة إليهم في بيتهم.
لاقوني عند الباب ولم يقولوا ادخل قالوا لي قلّ للمزوّق.
اشتك له، لا تشتك لنا اذهب وأخبره بما نفعّل، إذا لم يعجبه
ذلك فهو يعرف الحلّ. هو يبيع والبيك شراء قلّ له هل يتصوّر
أن تكون أرض البيك تحت أرضه، هو يقرّر متى نسقي ومتى نأخذ
عدّانا

- لكن. البيك والقاضي والمونسنيور قالوا إنّ لا يحقّ لي،
لا أن أمنع ولا أن أمنح المياه إذ هي ملك الدولة لا ملكي.
وحبسوني بموجب القانون. وأنا أحنيت رأسي وقبلت.

- يا بو سابا، لا، الأمر لا عندي ولا عند ابن وطفا وأولاده.
نحن لا أرض لنا ونعمل كعبد مأمور

- لن أبيع الأرض .

- أنت تملك أراضي في الضيعة . هناك لا

- لن أبيع فليطّلع لي قوانين ويطردني من الأرض . أو نذهب

إلى محكمة بعلبك .

- تذهب إلى المحكمة وتقف قبالة البيك وفي وجهه؟

- أنا لا أريد ذلك لكنتي لن أبيع .

- العين يا بو سابا لا تقوى على المخرز .

- أيّ عين وأيّ مخرز . هذه الأرض ملكيتي ولي عنها أوراق

طابو

- وأنا كيف أطلع وأشتغل في الأرض . من يحميني؟

الأوراق؟

- لا تطلع إلى الأرض . اتركها بور .

- أنا لا أستطيع أن أتحدّى البيك أو بيت وطفّا

- أنا لم أقل لك أن تتحدّى . اقعد في بيتك .

- هكذا أقعد في بيتي . ولا أذهب للقدّاس؟ أحرم نفسي

وأضع رأسي ورؤوس أولادي تحت غضب الربّ؟

- من قال لك لا تذهب إلى القدّاس؟

- بلا طلوعي إلى الأرض سيسخرون مني في الكنيسة،

ويقولون إنّني امرأة قاعدة في البيت وإنّي جبان .

- نفكّ الشراكة إذن يا بو منصور .

- نفكّ الشراكة؟! تقطع برزقي ورزق أولادي؟ الآن لم يعد يريد أن يشغلني أحد في أرضه. بعد أن ذابت عظامي وعظام أبي في قبره ونحن في خدمتكم من أيام جدك تقول نفكّ الشراكة. لأنني فقير هكذا ولا ذراع أرض لي. أنا مسلم جَلَب على هذه البلاد؟

يكسر قوّتك يا شيطان، تقول المرأة. يكسر قوّتك يا شيطان. يصرخ فيها زوجها فيزداد غضب المزوّق

- يا بو سابا لماذا تتحدّى البيك؟ لماذا تتحدّى البيك. بيديك رحت تسقي أرض أولاد الدبّاك. عرف الجميع أنّك كنت هناك، وأنّه لم يسرق الماء منك. لماذا لم تقل إنّ ابن الدبّاك سرق الماء في الليل وأنت نائم

هكذا؟ تتحدّى البيك وهو سندنا؟ هو الرافع رأسنا والمدافع عنّا بوسط المتأولة. تُهينهُ وتُهين نفسك، كم حرباً بيننا وبينهم أنهاها البيك برفع رؤوسنا البيك ليس من ربنا إنّهُ من بشرّي، ضيعتكم. لكنّه يعرف أنّنا دساكركم هنا ولا أمان لكم في المقلب الآخر إنّ لم تحافظوا على قوّتنا هنا منذ أيام الحماديّة الذين حكموا جبّة بشرّي قروناً قبل دحرهم بالقوّة إلى بلادهم، بلاد الشيعة المتأولة في بعلبك، الذين نحن هنا محاطون بهم كقطرة ماء في النهر الجارف.

- أفّ أفّ أفّ. من أخبرك بكلّ هذا؟ خرج بنو حمادة باتّفاق مع والي طرابلس.

- يبييه! أنا لا أقرأ لكن أسمع وأعرف . سامحني دمّرناهم
وهربوا في الشعاب .

- ومتمن سمعت هذه الأخبار؟

- من الناس . من وعظ القدّاس . هذا كلام مكتوب في
التواريخ ، ويعرفه وقراه المونسنيور في التاريخ والنواميس وأنا لا
أكذّب رجل الله والكنيسة .

- أي . ي بلحية المونسنيور .

يا أمّ الله يا حنونة ، صرخت المرأة .

- أي . ي بلحية المونسنيور ، كرّر المزوّق واقفًا

فوقف راجي بو علي وقال :

- لا أحد يسبّ المونسنيور في بيتي .

- في بيتك الذي على أرضي . أسبّ المونسنيور والبطرك إن
أردت على أرضي على أرضي أنا أسبّ من أريد .

قوم يا بو قال المزوّق للصبي ابنه ، وخرج الاثنان ، الأب إلى
فرسه والصبي إلى البغلة التي يحبّها كثيرًا وقبل أن يجتاز المزوّق
عنق الربعة أخذته الشفقة على بو منصور . وقرّر في نفسه أنّه إن كان
لا بدّ من بيع الأرض فسيبيعهها له . وبسرّ التراب . لكنّه سرعان ما
رأى أنّ ذلك لن ينفع

ثلج

عاد الثلج يرفع ما على الأرض إلى السماء. يدور بعنف وبسرعة ثم يضرب كأن بسياطٍ من شوك على وجهي الرجل والفرس، وقد صار الآن قادرًا ليس فقط على منع سيرهما إلى الأمام بل وعلى ردهما إلى الوراء. حتى توقفا في أرضهما يحاولان فقط أن يثبتا فيها ثم قرّر المزوّق أن يقتعد الأرض حتى لا ترفعه الريح بكامل جسمه وتعيده إلى الخلف. لكنّ الفرس لم تنزل على ركبها

لم يكن ممكنًا أن أبيت هناك. الصبي نائم الآن بين أولاد البيت في الدفء ندم المزوّق ندمًا شديدًا حين تذكّر كيف قال للرجل، وأمام امرأته، لا بيت لك إن كان البيت على أرضي. بما معناه. يا عيب الشوم. كيف تفوّهتُ بهذا الكلام الرذيل أمام المرأة.

هل تبيّست أطرافه ومفاصله من البرد حتى لم يعد يقوى هكذا

على الوقوف؟ هل دنت ساعة التخلّي؟ هل سيموت هنا قبل الاعتراف للخوري بخطاياہ الكثيرة. هل يتلو فعل الندامة فيرحمه الرب؟! ارحمني يا الله كعظيم رحمتك وكمثل كبير رأفتك.

نزلت الفرس برأسها إليه فغمر رأسها وراح يصرخ في أذنها سامحيني أيتها الأصيلة، العربية المعتوقة، معتوقة من كلّ عيب. ثم تعلق برقبتها ووقف على قدميه يقول ويكرّر: بيت بو علي. عيناتا إلى الخلف بيت بو علي. يقطع بلسانه وحلقه لها كما يفعل عندما يطلب منها شيئاً ما ذنبك أنت يا مباركة؟ عودي. يلاً تعرفين الطريق. بيت بو علي. يلاً على عيناتا

لم تتحرّك. عادت تميل برأسها إلى رأسه، تلامسه وتضرب عليه خفيفاً، تمرّره صعوداً ونزولاً وتحمحم.

لا تريد أن تتركني. تريد أن تبقى معي. تعرف أنني من دونها لا أمل لي بالمرّة. أراد إخراج ساعته من جيبه الداخلي فلم يجدها في هذا البياض القريب من العينين حين يتمكن من فتحهما، لا ينزل ليل الضوء غائب بأيّ حال ولا شمس. وقت بين ليلٍ أسود وليلٍ أبيض لا تعرف أين تضعه في النهار أو في الليل. لا تُعتم الدنيا ولا تبيض الأرض ثلج داكن. وهو الآن يلتصق صار بشابه ولا يقع عنها إلا أكواماً أو إذا نفضته الريح. جرّ الفرس إلى ما خمن أنّه كفّ الطريق فصدمت كتفه الصخر إنّه لا بدّ طرف كوع القاموع أم أنّه ما زال بعيداً، وما هي إلا صخرة أو حجر كبير التفّ حول الحجر وهو ممسك جيّداً بالرسن، يحاول أن يلطو من الريح، أن يقعد قليلاً في عكس اتجاهها. لكنّ

هذه الريح لا اتّجاه لها تلتفت كحجر الطاحون وتضرب. كحجر الطاحون في كلّ الاتّجاهات. من كلّ صوب وتضرب.

سوف يهدأ العصف. سوف يهدأ فهذا ليس موسمه. لا تسير الأمور هكذا إلاّ إن أراد الربّ. قوّته وبطشُهُ وحكمته أيضًا هو فقط يضرب انتظام المواسم عبرةً لمن اعتبر، لكنّه يُعيدها إلى قانونها

عبرةً لمن اعتبر لأنّي خاطئ. أسبّ لحية رجال الكنيسة ولا أكمل قداسًا أضحك أحيانًا يوم الجمعة وأنسى أن أستسمح آلام المسيح. اغفر لي يا الله وارحمني كعظيم رحمتك وكمثل كبير رأفتك. اشفعي لي يا عذراء. وأشفقي عليّ.

تهيأ لي من صلفي وكبريائي. لكنّهم فعلوا ذلك كثيرًا بعد أن جرّوا المياه من نبع القوس في ظهر القضيب إلى ساحة الأرزات راحوا يقولون إنهم دفعوا ثمنها غاليًا، وإنّ الأرض التي تمرّ فيها المياه لهم. والأرض التي تلاصق الأرض التي تمرّ فيها المياه لهم. اتّفقوا علينا وجلبوا أوراقًا لا أحد يحسن قراءتها صارت الناس التي تخاف تبعات المشاكل توقّع أو تبصم. صارت النساء لا تكفّ عن الإلحاح ما لنا في أراضي الثلج الجرداء هذه. من أجل باقة حمّص نخسر أولادنا ورجالنا مونسنيوران وزعماء ومشايخ، لماذا يريدون الأرض؟ من أجل حليش الحمّص؟ يسأل الرجال. يعمّرون فيها كنائس أو أوتيلات. ما لنا ولهم؟ نعطيها فدية عن صحّة أولادنا خلاصًا لأنفسنا وبركة لذريتنا، تُجيب النساء.

رَبْعِي أعطوا ما لنا هناك . حتى الشفق . قال كبير إخوتي إنَّ البطرك نفسه سيمنحنا غفراناً، مكتوباً، عن أرواح موتانا، وترضى عنّا وتباركنا العذراء لولد الولد . هذه الأراضي ستكون لأرز الربّ ليتمجّد اسمه .

قلت في نفسي لا نَوَى ولا أمل . هل أتقاتل مع إخوتي؟ ثم رحّت أقول إنَّهم ربّما يكونون على حقّ . قاموا بعمل ما ينبغي عمله . على أيّ حال ماذا ينفعني أن أطلع سلماً في العرض وأعصي كلام إخوتي .

أولاد بيت شحّير قالوا نحن نتفق مع الربّ على طريقتنا لا نريد أن نعطيكم الأرض، لا نبيعها ولا نتصدّق بها على الكنيسة . وموتانا ترحمهم صلواتنا وإرادة الخالق . هم أورثونا إيّاهم بتلاعها وبالمواشي التي ترعى فيها قُتل الأوّل ثم هاجر الثاني مع أولاده وأولاد أخيه القليل إلى البرازيل وانقطعت أخبارهم . لم يفهم أحد لماذا أعادوا واحداً من الأولاد، اسمه مالك إلى الضيعة . قالوا ليتعلّم . كأن ليس هناك مدارس في البرازيل . ثم قالوا ليتعلّم العريّة ماذا تنفع العريّة؟

أنا لا أريد أن أهاجر إلى البرازيل . هذا أكيد .

لم تقوَ أصابع المزوّق على جمع القليل من الثلج ليحمله إلى فمه عطشاً عطشاً حرّاً فأحنى رأسه إلى الأرض يراوغ الشفرات المسننة ليشرّب . وضع يديه بين فخذيّه . سيفقد أصبعاً أو اثنتين وسيقبل بحكم يسوع . سيفقد حتى من أصابع قدميه، وسيمشي وهو يعرج إن كانت إرادة الربّ أن يمشي مجدّداً . إن هداً العصف

سيمشي وسيصل إن بدأ المشي من هنا سيسخن دمه فيمشي ويصل. إن هدا العصف الذي لحكمة في إرادة الرب يأتي هكذا في غير مواسمه.

المهمّ الآن هو ألا ينعس

يبدأ النعس بالتهويمات والتخيّلات وينتهي بالنوم. ويكون المرء قد دنتق. مات.

نزلت الفرس على ركبها، التصقت به فصار بينها بين الصخرة والفرس. حثها أن تنهض من جديد. هع هع. لم تفعل. إن بركت هكذا بجانب ستوقّف عن الحركة ويبرد دمها دمها الحارّ سيرد فتموت هنا هع هع أو ارجعي إلى عيناتا

هذه الفرس لم تكن يومًا عنيدة. أو هي تريد ردّ الريح عني، تعطيني بطنها لشيء من الحرارة، أو هي لم تعد تقوى على الوقوف.

كان يندس بخاصرة أمّ الأولاد فيدفاً قبل أن يرفع اللحاف إلى كتفيه. هذه المرأة النعمة التي لم يسمع لها يومًا صوتًا عاليًا لم ير رجلٌ غريب يومًا لها ساقًا عارية أو شعرًا مكشوفًا

نام الأولاد. نامت سلمى على الدكّة في الخارج قبالتة لو وُلدت سلمى صبيًا لعوضه يسوع عن شقائه بكبير صبيّه سابا، المريض دومًا، الأقلّ قوّة بين أولاده، الأضعف قلبًا من أمّه التي لا يبتعد عنها شبرًا هكذا، عيناه تدمعان باستمرار وصباحًا لا يفتحهما قبل أن تغسلهما أمّه بالحليب الساخن. كم نذرًا نذرت أمّه

ونساء الحارة لقدّيسين نعرفهم وقدّيسين بعيدين، في نواح لم نسمع بها من قبل. حفاة، راكعين وزاحفين على بطوننا في الأتربة والوحول. الداية عطارذ التي راحت تزغرد حين سحبه من بطن أمّه قالت صارخة: صبيّ، إنّه صبيّ وسوف يعيش. وحين جلست تستريح، تدخّن وتشرب العرق، الكثير من كؤوس العرق، على عادتها، راحت تكرّر كم لزمها من قوّة لسحبه من يديّ «القرينة» صارت تقول: ما زال قلبي يدقّ كالطبل من خوفاي، أنا التي لا أخاف إلاّ الله. أنا أشدّ وهي، يتمجد اسم المسيح، تشدّ بقوّة الجن. الجن لمن لا يعرف أقوى بكثير من الإنس. أقول لها اتركيه باسم الصليب وهي تصرخ هاتيه، سأخذه كإخوته، تشدّ، رغم آلامها وصراخها من ذكر اسم الصليب.

آن الأوان، فكّر المزوّق، لأسكتها ليرة ذهب عثملي لم تكن لتحلم بها سوى عند البكوات الكبار. لفتها بمنديلها ودستها في صدرها لكنّها لم تسكت واستمرت تحكي وتشرب العرق. ولا تأكل شيئاً جرياً على عادتها حين تشرب العرق. تعرف عطارذ أنّ السميعة، ممّن دخلوا وجلسوا، متعلّقون بذهول وانخفاف بفمها فامرأة المزوّق لم يعش لها صبيان، كانت القرينة تخنقهم حال ولادتهم أو بعد ذلك بأيّام قليلة. يولدون كبار الحجم أصحاء كعجول صغيرة، إن لم يموتوا أجنّة في بطن أمّهم. لكنّهم، رغم شفاعة سيّدة البزاز القريبة والتي تدرّ الحليب بسخاء من ثديّ أمّهم، يروحون يذوون ويذبلون ويتقيّأون ثم يموتون بسرعة كموت العصافير، كلّهم تقريباً قبل الأربعين وبعضهم قبل ميرون العمادة، حتى صارت عطارذ تعمدّهم حال وقوعهم في حرجها، وتأخذهم

منها سيّدة، امرأة أخيه الكبير يوسف لترقيهم الرقية التي ورثتها من أجيال وأجيال، والتي أثبتت مرارًا كثيرة كم أنها رقية قويّة، إذ حالما تبدأ سيّدة بالتثاؤب علامةً على وجود عين شرّيرة فعلت فعلها حتى يشمّ الحاضرون رائحة البخور النفاذة فيبدأون بالصلاة والتراتيل، لكن داخل صدورهم، إذ تقول سيّدة إنّها لا تريد سماع الصلوات حين تروح ترقي، فقط إشارة الصليب على الصدور مسموح بها والجميع كانوا تحت طاعتها إذ تساورهم الشكوك من منع الصلاة بالصوت العالي، فيفكّرون في سرّهم إنّ الرقية - أو سيّدة - تستسمح الجان أيضًا، وتفاوضهم لكن من ناحية يسوع وسلطته عليهم. وإنّ منعها إيّاهم من الصلاة بالصوت المسموع إنّما هو لخلق جوّ حياديّ، كذلك الذي يرافق المفاوضات العسيرة، حيث يجب على كلّ طرف أن يُخفي نواياه الحقيقية من أجل الاقتراب من منطقة الوسط لإيجاد حلّ تمامًا كما يحصل في المصالحات المهمّة، أكان مع الشيعة المتأولة أو بين العائلات أو حتى مع الزغرتاوية. وأكثر ما يخشى الحاضرون هو أن تهز سيّدة رأسها، حين سكب الرصاص المذاب في الماء، ما يعني أنّها رأت صاحب العين الشرّيرة في شكل الرصاص وتعرّفت إليه، إذ وفي هذه الحال قد يؤدّي الكشف عن اسمه إلى حدّ إشعال الحروب بين أهل الضحيّة وأهل المتّهم. لكنّ سيّدة لا تفعل، ولفكّ شر العين تجد دائمًا طريقة للحصول على شيء ممّا يخصّه، خيط أو حتى شعرة، تعود لتشعله فوق البخور وهي ترقي وتظلّ ترقي حتى

لكنّ الجالسين في الدار، يأكلون الأطايب ويحتفلون بولادة الصبيّ، يتعلّقون بفم عطارده وبكلّ حرف تقوله هذه المرأة التي لا

أحد يعرف من أين أتت، ولا إلى آية عائلة أو ربيع تنتمي حتى الخوري لم يجد لها أثرًا في سجلّات الكنيسة، فقال للناس إنّها من أرض بعيدة، ربّما من الساحل. ولأنّته يعرف كرههم واحتقارهم لأهل الساحل، راح الخوري يكرّر أنّها ربّيت بيننا، والآن صارت منّا وهي بنتنا وكي يقوّي شفقتهم صار يقول إنّ عطاردها وُلدت هنا في حرب الأربعين وُلدتها أمّها وماتت من الجوع وإنّ أناسًا وجدوها في غابة مار سركيس قرب الدير وقد أرضعتها الضباع، دليلاً على أنّ يسوع أحبّها وأراد لها الحياة.

وعطاردها، التي أرضعتها الضباع في ثلوج مار سركيس، لا شك أنّ فيها شيئًا من الله. لكنّ هذا الشيء يبعث أيضًا على الخوف وعلى التوجّس من قوّة غامضة هي ليست قوّة الربّ فقط. قوّة ملتبسة، وبقيت ملتبسة في مسار حكاية حياة هذه المرأة التي تسكر أكثر من الرجال فهي تعيش وحيدة في بيت ملاصق للساحة، وراء الكنيسة مباشرة، أرضيّ وطبيء العتبه، داكن المدخل ولم يعرف داخله أحد. لا أحد. لا رجال ولا نساء ومن يذهب إليها طالبًا أن تولّد امرأة تجيبه إحدى المواخض من وراء الباب المقفل ولا تفتح له تجعله ينتظرها خارجًا وتسرع في غلق بابها وراءها، ومن الظلمة في الداخل لا يرى الواقف خارجًا أيّ شيء أيّ شيء. حتى في وضوح النهار وتحت سطوع الشمس الواطئة صيفًا لم ير أحد شيئًا من داخل بيتها البتّة.

في عمرها الشابّ، وفي قوتها التي راحت تُنسج حولها الحكايات العجيبة، من أنّها ضربت ذات يوم مغربيًا وأوقعته عن

فرسه في الساحة وأمام الجميع إذ قيل إنّه راح يتمرّج عليها في الطبّ، مستعرضاً ما في جيب خرجه من أدوية وعقاقير للمرأة العاقر أو التي يموت أولادها، أدوية وأعشاب لم تسمع بها في حياتها في عمرها الشابّ وقوتها المذهلة تلك، ابيضّ شعر عطارد في ليلة واحدة. أو يوم وليلة. ابيضّ شعرها كلّ، وتشعث وانتفش. صار كبة شوك أبيض مستديرة فوق رأسها خاف الناس. إذ حتى ولو كانت تصبغ شعرها بعصير قشر الجوز، أو غيره من الخلطات التي تعرف سرّها، فليس معقولاً أن يبيض شعرها بالكامل في ليلة واحدة نتيجة توقّفها عن صبغه وتلزم الجذور البيضاء شهوراً طويلة حتى تنمو وتدفع الشعر المصبوغ بعيداً عن جلدة الرأس بعد مدة تجرّأوا وسألوها فلم تردّ. كانت لها مشية سريعة واسعة الخطى، تهيج أحياناً الكلاب الشاردة إذ يعتقدون أنّها تركض فيلحقون بها مطلقين عواءهم حتى تستدير وتنهرهم. هكذا كانت تستدير وتمشي مسرعةً حين يسألها أحد عن ابيضاض شعرها، ولو في تحبّب، إذ يعتقدون أنّها ذاهبة إلى ولادة.

لكنّ الناس راحوا يخافونها أكثر في شعرها هذا حتى إنّ الشبان الذين ظلّوا لوقت طويل يدرسون كيفية سرقة بيتها بليراته الذهبية الكثيرة جداً، بلا شكّ، أقلعوا تماماً عن خطّهم، أو أجلوها لوقت طويل ولوقت صار أكثر طولاً حين قرّرت عطارد أن تروي حكاية ابيضاض شعرها لكنّها اشترطت حضور الخوري.

بعد القدّاس الصباحي أطفأ الخوري شموع المذبح ونزل مع الناس إلى مدخل الكنيسة. وضعت عطارد ماءً مقدّساً من الجورة

الصخرية على رأسها وقالت، شاخصة إلى عيني الخوري فقط إنها كانت نائمة في بيتها ذات ليلة، لم تشرب خلالها كأس عرق واحدة، حين سمعت طرقةً عنيفاً، ولما فتحت بابها رأت رجلاً كبيراً، مثل مارد، أخذها من يدها قبل أن تأتي بغطاء رأسها أو تقفل بابها، وراح في مشيه السريع وخطواته الواسعة يجرها أو يدفعها حتى توقّف عند مقبرة الخيرية في مدخل الضيعة، ولم يكن هناك إنسيّ واحد في ذلك الليل الحالك. قال لها إنه سيأخذها لتولّد زوجته، المتعثّرة في ولادتها، تكاد تموت، إذ لن تستطيع ذلك داية غيرها ثم تقدّم بها بضع خطوات فوجدت نفسها أمام شلال نهر نبات، ثم دفعها دفعة قويّة فدخلت في الشلال، ثم في المغارة التي خلف الشلال. وهناك ولّدت صبياً شعره من ذهب وطوله بطول رجالنا القصار. وبعد أن شكرها الجماعة وأطعموها أكلاً لم تره في حياتها، ورقصوا لها وأنقدوها عملة غريبة، من ذهب، ثم أرجعها الرجل إياه إلى بيتها وبمثل الخطى السريعة الواسعة التي حملها فيها إلى شلال نهر نبات، ودّعها قائلاً لن ننسى لك جميلك يا عطارد فلقد ولّدت أميرنا، ابن ملك الجانّ الأصفر وقالت عطارد، في الصباح وجدت شعري أبيض هكذا من الخوف ابيض شعري يا أبونا ثم فتحت يدها وقالت له هذه قطعة النقود التي أعطوني إياها لا أدري ما هي لكنّها من ذهب أقدمها لك، لمار سابا لا أريدها

كان الخوري جوربة التقيّ قد رأى مثل هذه القطعة النقديّة عند ابن أحد الزعماء البكوات الكبار، والذين قيل إنهم صاروا بكوات كباراً حين عشروا على جرار من هذه النقود. لم يعرفوا قيمتها إلا

بعد حين . ولما كثر التجار من السواحل خصوصًا من الفرنسيين الذين اشتروا مئاتٍ منها سرًّا فكان أن وسَّعوا ديارهم واشتروا سلاحًا وعمَّروا أبنية من طوابق صاروا يستقبلون فيها زعماء آخرين يأتون من بعيد وأيضًا عساكر فرنساوية .

سأل الخوري عطارد: من أعطاك هذه، وهو يُفرد كَفَّهُ قريبًا من أنفها، إن كذبتِ عليّ أرم عليك الحرم يا عطارد، وسأحلّفك على الإنجيل . خرّت عطارد على ركبتيها وصارت تنتف شعرها فاتّسعت دائرة الناس حولها تراجعوا إلى الوراء خائفين متوجّسين من هذا الخوري، ومن أن يوقظ غضب الجنّ علينا إذ . إذ وشعر عطارد الأبيض؟! لم يصطفت أحد من الواقفين المتحلّقين حول عطارد والخوري في صفّ الخوري . الدرس في الأناجيل لا يطير عقل الإنسان أو يعمي نظره . ألا يرى شعرها الأبيض؟

اذهبوا إلى بيوتكم بسلام، قال الخوري فمضوا ومضت معهم عطارد . التفتوا إلى الخلف ليروا إن كان الخوري سيستبقي عطارد في الكنيسة أو يجلب لها الأناجيل لتحلف عليها لكنّه لم يفعل .

قال المزوّق لعطارد إنّ الجميع يصدّق حكاية ابن ملك الجانّ ولا لزوم للحلفان وتكرار القسم على رأس المولود . وقال للموجودين إن شاء الله الفرح عامر بدياركم، فقاموا وخرجوا ثم أكلت عطارد قليلاً وعادت إلى بيتها رافضةً أن يرافقها أحد .

لم يمت سابا لكنّه بقي سقيماً، عليلًا وضعيفًا، وهو ينام الآن لا بدّ في فراش أمّه في الضيعة . ينام أكثر ممّا يصحو هذا الصبيّ .

حين تطلع غلاوتها في قلبه كان يقول لها جدّيلتك تخرّبت

فيحمرّ خدّاهما وتقول: بعدين. يضع ماء الزهر في طاسة المياه ثم يجلسها بين ساقيه وظهرها إلى صدره. يروح يسحب الدبابيس الطويلة ببطء، واحدًا واحدًا، ويضع المشط العاجي الكبير المطعم بالصدف والفضة على الإسكاملة بجانب الدبابيس في صحن النحاس. تأخذ صحن النحاس إلى حرجها، تنظر إلى الأولاد وتبتسم وهم يراقبونهما بطرف العين صامتين، مانعين أنفسهم من اللعب أو الضحك. تقول لهم: إيش في؟ فلا يجيب أحد، يتعدون قليلاً بنظرهم لتتشغل عنهم. ثم يعودون للنظر إليهما

يفرد شعرها الطويل ويديه يفكّ الطعجات السوداء الكثة على الكتفين. يجعلها خصلات كبيرة. يروح يغمس المشط في الطاسة ويسرّح الخصلات. ترفع يدها إلى رأسها حين يعلق المشط بشعرها فيسألها موجهة؟ لا، تقول بخجل كبير وتتلثم ذلك أنه يسألها مرارًا، موجهة، حين ينام معها وكأنّ هذا الخجل لن يخفى عن الأولاد الذين كلّموا حدّقوا بهما نهرهما المزوّق: أيش في؟ فأشاحوا، وغرقت هي في خجلها حتى تبدأ ترفع إليه الدبابيس جاعلةً يدها أمامه، إلى الورا كأنّها تقول له كفى.

ثم يفصل الشعر الكثّ الجميل في فرق وسط الرأس. يأخذ نصفه، يملسه جيّدًا ويروح يجذّله بأناة مغمّسًا يديه مرارًا بطاسة المياه الممزوجة بماء الزهر لم تضعي زيت الخروج في الماء هذه المرّة، يقول لها ليقول شيئًا حنونًا لا لزوم، تقول وهي ترفع الدبابيس إليه من جديد. ثم يلفّ الجديلتين الحلوتين فوق رأسها، ويشبكهما بالدبابيس، وفي الطرفين اللذين يلتقيان عند مؤخّرة

الرأس يحرص على أن تنتظم أسنان المشط العاجي كامل التسريحة فلا تخرج شعرة واحدة من ضمة المشط العريض .

نعيمًا، يقول لها ممازحًا، كما يقول الحلاقون . فتنهض بسرعة، وتشكره وهي تلمّ الأغراض، تضعها في أمكنتها، وتلفّ الشعر الساقط على سبابتها لتدفنه في الأرض فلا تقع عليه عين حاسدة شريرة تستعمله صاحبها في كتابة شيطانية .

كان كلما ولدت بنتًا وقعدت تبكي وهي بعد في النفاس يهديها مبرومة ذهب . يعطي المصريات للمصوّر الأرمني هارمنديان الذي ينزل باستمرار إلى الساحل . يقول له . على ذوقك، مثل السابقات بل وأثقل قليلاً متى تنزل إلى الساحل، أريد المبرومة قبل المعمودية، في أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر الله يخلّيك ياه ويعيشو، يقول المصوّر الأرمني الذي استوطن بيننا أهلاً وسهلاً ياه ياه، ويعيشها، يصحّح له المزوّق، إنّها بنت .

الناس تضحك عليّ، كانت تقول وهي تبكي، شو أنا خلّفت صبي كي تكافئني بهدايا الذهب . تريدان أن تكفري بإرادة الربّ؟ يقول وهو يلبسها المبرومة البنات مفاتيح الخير، سوف ترين الرزق الذي سيدفق على وجهها ثم ضاحكًا يقول: مع الصبيان لن تري أساور أو مباريم . ولدى ولادة الصبيّين لم يحمل لها شيئًا ولا هي افتكرت الهدايا كانا مطوشين بهيجان الرصاص الذي ولّع الحارة، وبالزغاريد التي انطلقت احتفاءً بالزيرتين الصغيرتين اللتين انتصرتا على القرينة وشراستها وسلطتها الغاشمة . يا بوبابا إخوته ينادونه، وينصتون إليه باحترام أكبر صاروا يتكلّمون

معهُ أكثر عن تفاصيل الأراضي ومشاريع المستقبل، ذلك أن كل هذا الرزق لن يذهب إلى الغريب. إذ لا أحد يضمن أن تتزوج البنات من أولاد أعمامهن، في هذه الأيام. أخوه الكبير أهدها بارودة لم ير أحد مثلها في كامل الجبل. انتحى به جانباً حين حملها إليه في بيتها الجلدي وملفوفة بحرام سميك. قال له يا خو، الآن وقد عمر بيتك، نزل الكرب عن قلبي. ها هو الربّ أتاك بعمود بيتك، وبجاه مار سمعان العمودي أبو ضيعتنا ورئيس قديسيها، يعيش لك سابا وتفرح يا بو سابا بأولاده. إن كان والدنا سمّاك المزوّق على اسم الجبّ وجدّ الجدّ فلأنّه رأى سبباً لذلك وهو القديس الطاهر والواسع الحكمة. ثم راح أخوه يفلش الحرام بتؤدة وكأنّه يلمس القربان، وحين سحب البارودة، مكث برهة ينظر إليها بين يديه، ثم يمسّد على طول معدن فوهتها اللماعة وكأنّه نادم قليلاً على التخلّي عنها

أتعرف هي بارودة من، هذه البارودة؟ يسأل الأخ الأكبر ثم يصمت، ويروح يهز رأسه للأهميّة. يُطرق المزوّق ناظرًا في الأرض اعترافًا بالأهميّة، واحترامًا لأخيه، ولهذه المناسبة، الجليلة لا بدّ. هذه الجوهرة أهدها القنصل الفرنسي بوجيه للبطل الزغرتاوي خليل كرم. وحين قُتل الصنديد خليل كرم استعادها الفرنسيّة لا أحد يعرف كيف. كان خليل كرم يقول إنّها بارودة البيك، بارودة البطل الأكبر والزعيم الأوحّد لديهم يوسف بك كرم. ولأنّنا نكره الزغرتاويّة عن بكرة أبيهم ونعاديهم كبيرًا وصغيرًا حتى يوم القيامة، ومن الأزل وإلى الأبد، تكتسي هذه البارودة أهميّة مضاعفة إذ تصبح بين أيدينا غنيمة.

قال: بس. فقاطعه أخوه قائلاً أفهم أن تتساءل كيف صارت عندنا؟ لماذا لم يُهدّها الفرنسيّ للبيك؟ وهل سيعود الفرنسيّ لأخذها منّا، إذ لا أحد يثق بهؤلاء العكاريت؟ أنا يا خو فكّرت كثيرًا ولم أجد جوابًا لذا احتفظت بالبارودة كسرّ دفين. حين سلّمني إيّاها عمّي الكبير كان على فراش الموت، واكتفيت بتقبيل يديه ورجليه ثم دخل الخوري ليعطيه مشحة الموتى وأسلم الروح.

قبل المزوّق يد أخيه الكبير ثم كتفيه، ولما صار وحيدًا راح يفكّر بأمر سر البارودة، وإن كانت هديّة أم همّا ظلّ أمرها يشغله حتى اطمأنّ إلى استحالة العثور عليها في مخبئها ثم صار ينساها أخرجها مرّة واحدة، ذات مغيب وكان وحده في البيت. رأى ثعلبًا يتحرّك في البعيد صاعدًا في شير مار نهرًا تذكّر البارودة وأراد أن يجرب نيشانها فوق الثعلب من طلقة واحدة. البارودة عجيبة في دقّتها، ومار نهرًا شفيع العيون وطيبها أعطاه هذا النظر الحادّ. ثم عادت البارودة إلى مخبئها السريّ، لا يعرف بوجودها حتى إخوته.

انتفضت الفرس على قوائمها فجأة، وراحت تصهل، وتركل الهواء بقائمتيها الخلفيتين. وثب المزوق إليها، يصلب على رقبتها وصدرها هووو. اسم الصليب. ما بك. هوووو، يكسر قوتك يا شيطان. ممّا خفتِ هكذا تعلق برسها فرفته عاليًا، نترته نترًا في الهواء وعادت تركل الهواء، تهز رأسها بعنف وتصهل هل تراءى لها ملاك الموت؟ لم يستطع غمر رأسها ليغطي عينيها عمّا قد تكون تراه، ويخيفها إلى هذا الحدّ. راح ينظر باتجاه ما تنظر الفرس صوبه فلا يرى أبعد من شبرين اثنين حتى التمعت شرارتان نافذتان في هذا الستار الليلي اللبني.

ضبع ضبع.

إنه ضبع عينا ضبع كتينك اللتين كانتا ترافقانه من بعيد حين يُمسي على ظهر الجرد دون أن تقوى على الاقتراب.

هذا ليل آخر أم هي تلك التهويمات والتخيّلات التي تفتح باب النعس لمن سيموت دنقًا؟

لن تقترب الضباع أكثر والفرس بجاني.

ها هو القصاص يقترب لأنّي خاطئ. ارحمني يا الله كعظيم
رحمتك، وكمثل لم أكمل قدّاسًا ولم.

السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الربّ معك، مباركة
أنت بين النساء. و نسي السلام عليك. وجفناه أصبحا ثقيلين
وقد عاد يقعد على الأرض. ولم يعد يسمع سهيل الفرس

أبانا سيصلّي الأبانا، بالسريانية. سيتذكّرها أكثر إذ حفظها
ولدا بالسريانية: أبون دمشمايو، نيت قاداش شموخ، نيتيه
ملكوتوخ. نحويه سبيونو، نسي البقية.

هايلو تشبوحتو نسي.

يتلو القدّاس، بدايته،

المجد للآب والابن والروح القدس من الآن وإلى الأبد.

أيتها الشمس البهيّة الطالعة من مريم، الشرق الحقّ، على
ديجور هذا العالم المظلم تحنني علينا نحن الضعفاء، ساعدنا
نحن المساكين. لا، قبل ذلك نسيته. ثم. قديشات ألوهو
قديشات حيلتونو قديشات لمويوتو إتراحام غلّين.

إتراحام غلّين.

نزل الليل أسود حالكا الآن، ربّما أنا أغمضت عيني من قوّة
النعاس. ذلك النعاس الذي غالبا ما يأتيني وأنا أصلي. غفرانك يا
ربّ.

حين فتحت أمّ منصور بو علي باب بيتها فجرًا رأت الفرس في

الوسعة جامدة، رأسها مدلى يكاد يلامس التراب. نظرت الفرس إلى المرأة قليلاً ثم أعادت رأسها إلى تحت. راحت تضرب حافرًا أماميًا بالأرض ضربًا خفيفًا ثم عادت تقف جامدة كحجر

راحت المرأة تصرخ، ألقت بغطاء رأسها أرضًا وهي تشدّ بشعرها المنبوش. ثم ركضت إلى موقد الحطب تغرف من رماده وتشخر رأسها ووجهها وتصرخ.

فاستيقظ الصبي.

- قال لك عمّي لا تُدخلي النور إلى البيت . الآن إن سرقتُ شيئاً ستسأليني عنه كما لو أنني لصّ حرامي .

- يكسر قوّتك يا شيطان وأعطنا يا ربّ خير هذا النهار .

راحت تفرد الأرغفة الكبيرة على الفرش والبساط الصوفي كي تبرد وتنشف .

- هل طبختم رُشتا؟ كلّ يوم خبيز تطبخون رشتا عدس وعجين، تفو ماذا آكل أنا؟ إقلي لي بيضاً يا سلمى لماذا لم تعملوا فطائر على الصاج؟

لا أحد يردّ على الصبيّ .

تطوي سلمى الرغيف مرّتين وتشقّع المثلثات الكبيرة جانباً قبل أن تستفها نبيهة على الشرف الأبيض داخل القفّة وتردّ عليها القماش أولاً بأول .

- برحمة بيّ، إن شاء الله كون على صدره هذه الليلة، سأترك هذا البيت وأهجّ في الدنيا

- حين يخطّ شاربك، تقول نبيهة، الله لا يردك .

- أنتِ سأكسر رأسك يا كذّابة . وكلّما وجدت البيض الذي تُخفينه سأكسره .

- يكسر قوّتك يا شيطان . لا ترفع صوتك في البيت . أسكب لك رشتا؟ تسأله أمّه كمن يسترضيه وقد شارف على البكاء وهي لا تريده أن يبكي .

- لماذا لا تطعمونني بيضًا؟ كلّ البيض لسابا؟ تريدونني أن أمرض حتى تطعمونني بيضًا؟ أين البيض المتبقّي عن سابا؟ أكل سابا كلّ البيض؟ ثم أين الفخذ الذي أعطاني إياه عمّي، قدّدموه كلّهُ، لماذا؟ تقدّدون كلّ شيء ونحن ماذا نأكل؟ يلعن دين الرشتا

اخرج من هنا قبل أن أكسر ساقيك، تقول أمّه . لا أحد يكفر تحت سقف هذا البيت

يخرج طنّوس وهو يضرب الأرض بقدميه . لا بدّ أنّه يبكي الآن في الإسطبل كما يفعل حين يحرن . ترى أمّه دموعه على وجهه الأسمر الجميل وتغصّ بدموعها سلمى القويّة التي لا توافق على بيع البيض سرًّا لدكان ابن دلّا قد تفضحها وتخبره . رغم أنّها جعلتها تقسم على الإنجيل، هي وأختها نبيهة التي تحمل البيض إلى السوق، إلّا أنّها تخاف من سلمى القويّة التي عادت مرارًا تقول لأمتها لماذا لا نحكي مع أعمامي

هاتي الطبلية يا سلمى، حلّ الظهر

سلمى أيضًا حردانة وتقول إنّها غير جائعة . ونبيهة تأكل من

أجل أن تأكل أمها يطلّ ابن الدبّاك الصغير من الباب. تفتح له ذراعها وتقبّله. اسكبي له طاسة كبيرة يا سلمى. هذا اليتيم سيبقى في البيت. ذهب إخوته الكبار إلى أخوالهم في أستراليا، كان ليموت على الطريق لو تركتهم يأخذونه معهم. تعطيه نبيهة رغيفاً من الخبز البائت أعطه من خبز اليوم يا ميمي. تمخط أنفه وتمسح خديّه وفمه بمنديل رأسها كُلّ واذهب إلى حبيب قلبك، روح العب معه إنّه في الإصطبل. ضع هذا الرغيف في حزامك علّه يستحلي، انتبه للجبين في داخله ولا تنتظط. إنّه في عمر البنتين الصغيرتين وهي لا تفرّقه عنهما لشدة ما هو عاقل ومطيع وحلو

هل صرنا فقراء يا مومو؟ تسأل سلمى مُطرقةً في الأرض الفقير هو فقير الإيمان يا سلمى صلّي وأنت تجلين الصحون في الساقية، لا تنسي حشيشة القزاز تخلطينها بالرماد وإلا أعدتك بالأواني إلى الساقية مرّة واثنين ويا سلمى، ها أنا أقول لك مجدّداً إن مر مغربي ورفعتِ نظركِ إليه سأقتلع جديلتك بيدي. مهما حكى وقال. شوفي ماذا حلّ بفيلومينا

لن تردّ سلمى على المغربي إن مر من هنا لن تنظر إليه لكنّها لا تخاف منه.

أنا لا أخاف من أحد، ولا من جنّيات نهر نبات، ولا حتى من المقبرة. أنظرُ وأنظرُ إلى أيقونة مار الياص الحيّ، مفنجرًا عينيه ويقطع رأس الكافر الشيطان الأسود بسيفه الذي يقطر دمًا ولا أخاف. حتى هذه المياه المثلّجة، لا أحد يقوى على إبقاء يديه فيها هكذا حتى تصبحا زرقاوين، مثلي.

فيلومينا شلّها الغرام ولا دخل لأدوية المغربي ولا لسحره .
 أحبّبت المتوالي البعلبكي الذي رآته يدبك في عيد الربّ في
 الأرزات أمال لها عقاله وغمزها مثل القمر، قالت هي لي لو
 تشوفي هالهامة . شايفة وهيب الطريّا؟ أحلى منه ويدبك أحلى من
 يوسف حنّة، على الرأس . ينزل هكذا على ركبته ويرفع معه التراب
 حين يشرب واقفًا برحمة بيك لا تقولي لأحد . ما في أحلى من
 سماره، أمير على عشيرته، كلّ الرجال كانوا يخدمونه . يشوون له
 اللحم ويحملونه لحدّ جزمته . حاجباه معقودان هكذا، وشارباه
 يقف على طرفيهما النسر لا تقولي لأحد . لن أقول لأحد برحمة
 قبر بيّي، هل كلّك؟ يا عدرا يا عدراااااااا حين كلّمني، متّ رعبًا
 لمجرد أنّه اقترب مني ماذا قال لك؟ قال يا دين النبي، يا دين
 النبي قدّيشك حلوة هكذا قال؟ وشافك إخوتك؟ أين كانوا؟ لا ما
 شافوني كانوا يدبكون . وماذا قال لك؟ هربت منه، رحت إلى حيث
 طبّلنا والتصقت بأمي وبعدين صار يشير إليّ من بعيد . هكذا يلّوح
 بيده ويهز برأسه ثم رفع عقاله وصار يرم حظّته في الهواء ويطيّرها
 صوب بلاد بعلبك . لهاك الجهة . أنا فهمت . ماذا فهمت؟
 فهمت أنّه يقول لي تهربين معي؟ يا عدراااااااا أفكّر به ليل نهار،
 ولن أراه قبل عيد الربّ المقبل . أفكّر به ويطرق قلبي وتنعصر
 معدتي . الصيف المقبل سأراه لكن ربّما يكون قد تزوّج لا تقولي
 لأحد يا سلمى برحمة بيك .

لم أقل لأحد . لم أخبر أحدًا هي التي فعلت ولا أدري
 لمن . كنت عندهم حين دخل أخوها من الباب رأسًا إلى شعرها
 وخبطها بالأرض وراح يضربها بجزمته . يضربها ويركلها في بطنها

وأَمَّها تصرخ أيش في؟ أيش عملت؟ يا أمِّي يا خيِّي يا ابني أيش في؟ طردني من بيتهم، يا سلمى روجي عابيتكم قال، وقبل أن أصبح عند الباب سمعته يقول لأخته تريدان الهروب مع المتوالي، تضعين رأسي ورأس ربعك ورأس الموارنة ونصاري الله في الخرا؟ عدت إلى الورا وأمه على الأرض ممسكة بساقيه وهو يرفع سكين الأم سبع طقات على فيلومينا يريد أن يذبحها لن أذبحها هنا صار يقول. سأذبحها عند الأرزات مثل جميلة. تسمعين بجميلة التي ذبحها أخوها؟ كان الدم يخرج من بين فخذي فلومينا وهي باركة في الأرض. ومن يومها لم تقف ثانية، ولم أقل لأحد، هي الحمارة أخبرت أحدا ما ووصل الخبر إلى أخيها باطل كم هي حمارة، والهيئة كانت تريد أن تهرب معه. وهي لم تقل لي ذلك.

وحده الدّم الذي يخرج من طيز البنات يخيفني. الآن يخيفني قليلاً وليس كأول مرّة.

حين رأيت طشتنا مليئاً بالدّم خفت أيضاً كانت أمِّي تطردني صارخةً بي كلما اقتربتُ من كوخ بيت منّة القريب منّا خلف بيتنا كان كوخنا وليس بيتنا وكلّ من فيه كانوا خوتانا خوتان لكن لا احد يخاف منهم ولا يهجمون على أحد. أبوهم أخوت وكلّ بناته. كانوا دائماً يجلسون في الخارج إلا حين يكون الثلج عالياً يجلسون هكذا يتبسّمون للمارّة وينادونهم بأسمائهم، حتى الكلاب الشاردة لا يطردونها ولا يخافون عواها قبل أن تأخذ الراهبات الطليانيّات البنات ولدت أمِّي ومسيحية جارتنا البنت الخوته يوسفيّة مرتين ورّبا ثلاث مرّات. لكنّ مليء بالدم ورّبا الوليد بداخله ولا

أجرؤ على سؤال أمي التي تعود إلى البيت حانقةً وغاضبةً فتركع من تَوْها أمام المذبح المضاء بالزيت تصلي للعدراء بحرارة وتطلب منها الستر على بنات الأرض. هل الخوته تخلف، لا أجرؤ على سؤال أمي التي بعد أن تهدأ تقوم من ركعتها وتروح تكلمنا بلطف أنا ونيهة، وبكلام مبهم، مُكَيِّلةً اللعنات على جنس الرجال. توصينا أن نخاف وألا ندع أحدًا يرى أكامنا مرفوعة إلى الكوع. تروح أمي تكرر كلامًا عن الطهر وطهارة الجسم والبنات، وعن دنسنا ونار جهنم وعن اتساخ اللحم بالخطيئة الأصلية. تقول نبيهة التي لا تفهم الكثير لكننا استحممنا منذ يومين وأنا لا أرفع كمي أمام الغرباء. فتضحك أمي وتقول. عافاك يا نبيهة، يا بنت العذراء. أما أنا فأفهم أكثر من نبيهة التي لم ينزل لها دم من بين فخذيها بعد، وأقول: سأسأل أمي يومًا ما عن الخطيئة الأصلية التي نحملها على رؤوسنا مهما صلينا، وقد أسألها يومًا ماذا فعلت هي ومسيحية بأولاد يوسفية. وربما لن أسألها إذ أخاف أن تقول أمي إنها خنقت الموالي.

حملت سلمى المواعين والأواني إلى كتفها، وقالت في نفسها إنها ستوقف في الإصطبل لعل طنوس والصغير ما زالا هناك.

ليكي مرتا ليكي برجوت لماذا أنا لا لماذا بنات عمي
مسموح لهن وأنا لا؟ اسألني طنوس. كلهن فوق في الساحة. إن لم
تسمح لي، لن أنزل غداً إلى عرب التوتة للّم اللوبياء. أقسم
بالقربان الطاهر لن.

مريانا أيضا طلعت مع مرتا وبرجوت، لماذا لا تسمحين
لسلمي؟ قال طنوس، فقفز سابا عن الدكة وقال: أنا من قال لا،
لا أمك. أنا أخوك الكبير والكلمة لي. قالت نبيهة إي، الكلمة
لسابا

رسم طنوس إشارة الصليب على صدره علامة على تصبّره
واتقاء للمشاكل. إيه. على رأسي، لكن ليش لا؟ هيك، من
عقلي، لا طلوع إلى الساحة، قال سابا خافت سلمى أن يضرب
طنوس أخاه الضعيف فيعطبه من صفة واحدة. قالت: خلص، لا
أريد أن أطلع إلى الساحة.

خرج طنوس من البيت وهو يكفر للربّ، وسابا ينتفض

باتجاهه مهدداً بتحطيم عظامه . صار طنوس يلتفت إلى البيت ويقول: لن أعود إلى هذا البيت . سوف ترون . سأذهب إلى عسكر الفرنساوية ولن أعود، سأدع لكم البيت والحقل . سأروح إلى العسكر

قالت الأمّ: قد يفعلها هذا دمه فائر وقد يلتحق بعسكر الفرنساوية . قالت سلمى: سيعود بعد قليل، سيتفرّج على الحفل ويعود ناسياً، من قلبه الطيب . لا تخافي . سيدبك قليلاً مع الدبّيقة ويشرب ويسرّب .

سألته أمّها

تريدين حقاً أن تطلعي إلى الحفل؟ قالت سلمى لا ، صوت الطبل والمزمار يصل إلى هنا واقتربت من الطبلية تساعد أمّها في تنقية العدس .

كثيرة حجارة هذا العدس ، قالت سلمى ، ممّن اشتريته؟ أهذا عدس من عند عمّي؟ إنّه نفاية عدسهم .

يا مومو لماذا بعّت أرض عيناتا؟

يا مومو لماذا بعّت الفرس؟

يا مومو لماذا سلّمت أعمامي أرض بُنحلي ورجال النصيرية يملأون الساحة ويشغلون بأكلهم وكسوتهم؟ سابا مريض لكن طنوس يشبّ بعافية، وكان يستطيع أن يطلع إلى أرض بُنحلي . أو أنا أطلع، مع نبيهة . حين يكفر طنوس برّب الأرض فهذا من غلّه ومن حنقه لا من كسله أو كرهه للأرض . منذ راحت أرض عيناتا

وهو يفكر فيها ويكي ويكفر برت الأرض .

يا مومو هل صرنا فقراء لهذا الحدّ؟ أعني رغم أنّ الغني هو غنيّ الإيمان، هل ترانا صرنا فقراء إلى هذا الحدّ؟ ولا تريد أن أطلع إلى الساحة بثيابي التي صارت عتيقة فيما ثياب بنات عمّي جديدة وجميلة؟

يا مومو يرحم بيك .

ترك الأمّ طبلية العدس، ترفع جواربها وتطويها ثم تلقها جيّدًا حول شريط المطاط فوق الركبتين فيبان ظاهرًا خطّ اللحم الأحمر الذي تركه المطاط في مكانه القديم قبل أن يغطيه الصوف الأسود. صارت أمّي متقدّمة في العمر تكبر بسرعة بعد موت أبي

تلفّ شالها على رأسها وتقول . انتبهي على البيت أنا ذاهبة لعند أختي فوز لن أتأخّر

أختها فوز التي لا نراها إلا قليلاً في الضيعة تشّتي في ظهر العين، قريبًا من الساحل وعندها زيتون . كلّما راحت أمّي إليها عادت بزيت زيتون، وبقطع كبيرة من الصابون الأخضر تكفيننا طيلة الشتاء . فوز التي كان جدّي يتحدّى بقوتها الرجال زوّجها إلى واحد من ظهر العين لأنّه أعطى كلمة لأبيه وهو سكران . يسهر جدّي ويسكر ويتمرّج في ظهر العين كان قبضايًا وزكرتًا فلم يتراجع عن كلمته حين رأى العريس فراح يقول إنّه ابن عيلة رغم كلّ شيء .

حين ذهبنا لزيارتهم مع أمّي وأبي كانت فوز تبكي . قالت لأبي: هذا حكم الربّ . ماذا كان بإمكانني أن أفعل؟ هل أكسر

كلمة أبي وأنا أعرف أنه نادم؟ أكسر كلمته في اغربة؟ هل أفعلها يا صهر؟

راح العريس يقول لنا كُلوا كُلوا الخير كثير خير الله . سأجعلكم كلكم يا أولاد تبوسون يد خالي المطران . ثم راح يروي لنا - وأبي ينهرنا عن الضحك بنظرة عابسة - كيف أنه التقى النابليون بونابرت على السفينة التي عاد عليها من الأرجنتين . على البيور، قال لي النابليون . لا تُكثر من أكل الفاصوليا وقالها بالعربي، لا بالفرنساوي ولا بالسبانيولي ولا الطلياني . وبالت فوز لأمي لا يتركني أنام، لا يجرؤ على الذهاب إلى بيت الحلاء لوحده . يخاف في الليل فيوقظني أذهب معه ليتبول . وهو يتبول عشرين مرّة في الليلة، وما أكاد أغمض عيني حتى يلكنني يا فوز يا فوز بدّي شخّ قومي بدّي شخ . فوز التي كان جدّي يقول إنها أقوى أخواتها الست وأقوى من وحيدة خالي شحادة، الذي شحده من الرب، وإنها حين قال لها العسكري الفرنسي ممنوع البواريد هاتي البارودة، نظرت إلى أبيها قبلتها على سطيحة البيت فقال لها جدّي : فوز لا تعطيه البارودة يا بو كان العسكري ممسكًا بالبارودة ويشدّ بها وهو على فرسه . ظلت فوز قابضة على البارودة بيديها الاثنتين . لن يأخذها مني وحية شواربك يا بو ثم نتعت نتعة قويّة وأوقعت الفرنسي عن فرسه ورفعت البارودة فوق رأسها ناظرةً إلى أبيها فقال لها عفارم فوز، عودي بها إلى البيت . فحملتها إليه . وحين جاء العسكر الفرنسي يحقق قالوا له : هذه هي البنت التي غلبت العسكري . تريد حبس بنت؟ خذها فخجل الضابط وراح يبرطم بالفرنسيّة ثم ذهب مع عسكريه والنساء تزغرد . يلا ، فرنسا كاك . .

فوز التي شقّت جرن الحجر وهي تدقّ لحم الكبّة حين قال لها
أبوها فوز، رَحبي بالضيوف يا بو قولي لهم أهلاً وسهلاً فخبطت
المدقة في قعر الجرن وفلقته

درّب جدّي بناته على حمل السلاح وعلى ألعاب العراك
والقوة، ورفع الأثقال أيضاً قبل أن يرزقه الله في الآخر بخالي الذي
سمّاه شحادة، لكن لم ينجح في التدريبات منهن سوى فوز أو إنّ
الأخريات بقين دون المستوى المطلوب فأصبحن كأنّ مساعِداتٍ
لتمريناتها التي أخذ جدّي يزيد من صعوبتها عند كلّ إنجاز جديد.

وحين كان جدّي ينزل إلى بيروت أو ساحل الكورة ليشتري
أغراضاً أو يحضر حفلات أو يستمع إلى سيرة عنتر في قهوة القزاز،
كان أحياناً يصطحب فوز معه ويتحدّى بها الشباب في لعبة
الكباش. وهو كان درّبها ليس فقط على استعمال عضلاتها بل
وأيضاً على المخاتلة واستعمال أساليب المفاجأة والحيل، كي
تغلب من يكون أقوى منها وتلوي ذراعه، وسط دوي التصفيق.
وحين يعودان إلى الضيعة كان جدّي يروي مطوّلاً حكاية فوز وكيف
أنّها اسم على مسمّى ورفعت اسم وكرامة الضيعة كلّها، عاليّاً

فوز هذه طلع جميع أولادها لأبيهم مثله ويشبهونه، ويفخرون
بتقبيل يد المطران خال أبيهم.

- يا سلمى، إيدي عالعدرا والقربان الطاهر، ترشّين الرمل فلا
بصل إلى الأرض من كثرة الناس

إيدي عالعدرا تخنقني الليلة وما يطلع عليّ الضوّ حملوا
البطرك من ساحة الديمان إلى ساحة مار سابا . هو يبلع بفتانته

الأحمر يريد أن ينزل وهم لا يردّون عليه .

- من الديمان؟ قالت سلمى . من أخبرك؟ طنّوس لا تبالغ .

- أخبرني ابن بلاق . هو كان في الديمان . قال لي رأينا
كلسات البطرك وثيابه التحتانيّة وهو يبلعط كلّو أحمر يا زلمة من
جوّة ومن برّة . ولم ننزله إلّا في الساحة . قال لي ابن بلاق وهو
يحلف على العذرا والقربان .

- يكذب ابن بلاق . الجثّة أنزلوها في غابة مار سركيس ولم
تصل الساحة ، أرايت أنّه يكذب؟

- إيه يا ربّي سامحني ، صحيح هو قال في مار سركيس وأنا
غلطت نسيت .

- وصلّوا عليها هناك وقبروها هناك . والتابوت كان ثقيلاً مثل
الرصاص وربّما كان من رصاص ، لأنّ الرجل مات من خمس ستّ
سنين ، وظلّ بأميركا بالتابوت حتى حملوه إلى الضيعة .

- ليش؟ العمى . هيدا عفن المعترّ

- لا ، هيدا صار قدّيسًا وجسد القدّيس لا يعفن . لا أدري
لماذا انتظروا خمس ستّ سنين حتى ردّوه إلى الضيعة

- لا نبّي ، نبّي ، قالوا إنّه صار نبياً ، مثل مار الياس الحيّ .
بأميركا ، قدر ما كان ذكيًا ويصلّي صار نبياً لأنّه راح إلى أميركا
صار نبياً ، وأكد غنيًا حتى دفعوا ناولون تابوته الثقيل إلى هذا
الحدّ . أنا سأذهب يومًا إلى أميركا تعرفين أنّه يقربنا؟ قال لي
الخوري هذا النابغة هو ابن خالة جدّك رزق . أمّه كميلة أخت

جدك، وأخت القديس جدك مار يوحنا بركات، وكان فقيرًا جدًا تركته يحكي ومشيت. كان يسخر مني. هذا الخوري يسخر من الناس ومن الملائكة.

- لا، لا يسخر هي حكاية الزلمي مضحكة أو غريبة. أنا أخبرتني بنت عمي مرتا لأن المعلمة نجبية أخبرتهم في المدرسة عن الحفلة وعمن يتدربن على استقباله. قم، حمل الموي وطلع البغلة إلى البيت حتى تكمل أمك الغسيل فأحكي لك.

ولما أقسم طنوس برحمة أبيه عفته سلمى التي حرمت على إختها هذا الحلفان قائلة: فقط نصلي لراحة نفسه، لا تحلفوا برحمته، بيبي

ثم أكملت الحكاية حين عرفت أن طنوس سينفجر بالبكاء إن لم تكملها سيصبح طنوس رجلاً وسيظل هكذا يبكي كلما انقهر أو غضب أو حزن. كيف تفعل به؟

- قالت المعلمة نجبية للبنات إن كميلا كانت بنت عيلة ومن البكاوات لكتها ترملت وكان عندها ولد اسمه بطرس، لذا قبلت الزواج من خليل ابن مخايل الذي لم يكن لا ابن عيلة ولا غنيًا بل معازًا عاديًا وصار زوجها هذا يسكر يمشي في الطرقات سكران ولا يشتغل، ويريد أن يضرب الناس، فحبسه عسكر العثملي فحزنت كميلا كثيرًا من الفضيحة، ومن الفقر أيضًا، إذ إلى جانب بطرس كانت قد أنجبت جبران ومريانا وسلطانة. وكانت سلطنة حلوة كثير ويحبها أخوها جبران. فباعت كميلا البيت واشترت بثمنه ناولون وسافرت مع أولادها إلى أميركا. هناك أعطها رجل

أميركاني كسّة بالإيجار وصارت تسرح بها وتبيع وتُطعم أولادها،
وجبران لأنّه كان ذكيًا، وضعوه في مدرسة الجمعيّة الخيريّة.

- كيف عرفوا أنّه ذكي؟

- لا أدري. المهمّ أنّ أمّه بعد الكسّة اشترت دكّانًا ولمّا رأت
جبران ذكيًا هكذا

- كيف رآته ذكيًا؟ قالوا لها في الجمعيّة؟

- لا أدري. أرسلته إلى بيروت ليتعلّم في أحسن مدرسة.

- يعني صارت أمّه غنيّة؟ يعني مدرسة بيروت أحسن من
مدرسة أميركا؟

- لا أدري. شو أنا كنت بالمدرسة؟ أقول لك ما قالت مرّتا

- مرّتا حمارة ولا تعرف شيئًا ولا تسأل ولا تفهم. والله أعلم
ما قالت في الحقيقة المعلّمة نجية

- طيّب، قم نطلع إلى البيت، أمك تنتظر الماء والنوريّة
ستسرق البيت.

وحين كاد يبكي من جديد راحت سلمى تسرع في الحكاية
وهي تقطع القرّة والجرجير لتبرّر تأخرها في العودة إلى البيت.

- المهمّ أنّه لشدّة ما كان ذكيًا لم تعجبه المدرسة في بيروت،
وصار يتفلسف ويشارع المعلّمين والرهبان ويُسكتهم. صار أفهم
منهم وقال في نفسه: ماذا أستفيد منهم؟ أنا أعرف أكثر منهم ولا
يعجبني هذا الوضع وسأعود إلى أميركا.. لكنّه حين عاد وجد

أخته سلطنة قد ماتت وأمه أيضًا ماتت وأخوه بطرس مات .
فسكروا الدكان وصار هو وأخته مريانا فقراء من جديد .

- العمى ! لماذا لم يشتغل في الدكان؟

- لا أدري . ثم أحبّ بنتًا أميركيّة اسمها جوزفين لكنّها طلعت فقيرة . فقال في نفسه يلعن حظّي لكنّ خالة ، أو ربّما عمّة جوزفين كانت غنيّة كبيرة في السنّ لكن غنيّة ، واسمها مري عسكل ، أو هسكل أو هيك شي وصار يحكي لها أنّه أمير الأرز وأنّه كانت له أراضٍ وماشية وبيت يشبه القصر لكنّه خسر هذا كلّه ، أو ربّما أخذوه منه .

- كيف؟ من سلّحه كلّ هذا؟ هذا كذاب بس ذكي كثير عافى ربّه . هكذا قالت المعلّمة نجية؟

- لا أدري ربّما مرتا تتفصح عليّ وتخترع المهمّ لا ، لا تذكّرت هو أخبر هذه المرأة ، عسكل أو هسكل ، أنّ البيكوات أخذوا منه ماله وأراضيه لأنّه أحبّ ابنتهم سلمى ، وتحالف معهم المونسنيور ضدّه ولم يزوّجوه إيّاها لأنّه نسيت لماذا لم يزوّجوه إيّاها

- لم لا يزوّجونه ابنتهم وهو أمير الأرز ومن أحسن عائلة و

- لا أدري . خبّرت مرتا أنّ أهل سلمى قالوا إنّ جبران هذا كافر ولا يحبّ الكنيسة ولا العذراء مريم ، وأيضا يحكي مثل الرسل والأنبياء ويتفصح علينا هكذا ، وخصوصًا أنّه لا يحبّ المونسنيور .

- لا أحد يحب المونسنيور، عندنا مونسنيوران، ولا أحد يحب أيًا منهما قال أبي مرّة - أنا سمعته - السلام على اسم بابا روما، بابا روما نفسه - بابا بيّوس - هكذا قال أبي - البابا بيّوس - أرسل من روما رسولاً إلى الضيعة ليقول لجميع خوارنة الجبّة ولبطرك الديمان إنّه فقط مونسنيورنا، من كلّ بلدان الكون المسيحيّة يستطيع أن يتزوّج ويبقى مونسنيورًا و صار أبي يسأل لماذا تبعنا مونسنيورنا دون مونسنيورات الكون؟ ولا أحد من الرجال عرف أن يجيبه. ثم قالوا له إن كان بابا روما يعرف المونسنيور وسمح له وحده أن يتزوّج تريدنا نحن أن نقف بوجه زعيم بقوّته هذه؟ هذا، من روما إلى هنا قوي، يملك تنكًا من الذهب. أرسل تنكتين إلى طرابلس ليدفع دية الصلح بين بيت المقدّم وبيت كرامي. إيدي على العدرا مريم أنا سمعتهم. تنكتين ذهب مليئتين، يعني عنده مئة تنكة. تصوّري يا سلمى يا بيّبي وجبران أبوه معاز وسكّير ويريد أن يتزوّج بنت عيلة وهو فوق هذا لا يحب المونسنيور؟! عجيب أمره.

- لا أدري. لكن أنا أعرف شيئًا لم أقله لمرتا اسم البنت حلا وليس سلمى. هو أحبّ حلا الضاهر، ابنة راجي بيك الضاهر سمّاها سلمى حتى لا يعرفها أحد. سمّاها هكذا في كتاب خبر فيه الحكاية.

- يا بيّبي. من أخبرك؟ ابنة راجي بيك؟ هذا أخوت. من أخبرك؟

- أتعرف هذه البنت، العانس، التي بيتها لصق بيت عطارد، وكبيرة في السنّ وتعيش لوحدها هكذا مثل عطارد.. أرسلتني

مرّة أشتري لها دخاناً و. لا تخبر أحداً، دخاناً وحشيشاً، من بيت التركي، وصرت أدخل بيتها، وأحياناً أنظفه لها فتعطيني مصاري. تعيش كالفقيرة لكن معها مصاري. لا تقل لأحد. وصارت تحبني وتحكي لي هذه البنت من بيت الضاهر كحتوها طردوها وقالوا خوته، وراحوا يقولون إنها ماتت في الغربية، ضاعت في بيروت وماتت في الدير بعد أن أصبحت راهبة وهي قالت لي إنها من بيت الضاهر ولا تخبر حكايتها ولا حتى للخورى. لا تقل لأحد. قالت لي إنّ أهلها كحتوها من البيت لأنها أحبّت واحداً مسلماً وبروتستانت، من بيت الشدياق، ويسبّ البابا والبطرك ويقول عن البابا نفسه شيخ الفسوق وعن البطرك شيخ السوق، بعيد من هون، يا ربّ سامحني هذا كلامها خوته يمكن. قالت إنّ هذا الرجل، من بيت الشدياق عمل مسلماً بروتستانت لأنّ البطرك حبّش سجن أخاه في دير قنوبين، يمكن في دير مار قزحياً ربّطوه بقيود الحديد مثل المجانين، في قبو المجانين، ليشفى بعجبية من مار قزحياً فيطقّ قيد سلسال الحديد من نفسه ويخرج الرجل مُسبّحاً باسم الربّ فيعلّقون السلاسل في الحائط إلى جانب قيود المجانين الكثر الذين شفاهم قزحياً العجائبي وخرجوا لكنّه لم يشفّ ومات هناك وقبروه في قاديشا لا أحد يعرف أين، وعرف أخوه وصار يكفر ويسبّ. وهذه البنت العانس، التي كانت صبيّة صغيرة آنذاك، تقول إنّها مبسوطة هكذا وتعيش بكيفها، ولا تريد أن تعود إلى قناطر وأبراج قصرهم الذي كان مليئاً قبوه بالزنزانات، يرمي عمّها الناس فيها إن تخلفوا عن أعمال السخرة أو لم يستطيعوا دفع غرامة سبّ الدين أو الكفر بالعدراء أو بالكنيسة. في ذلك القصر، لا تريد أن

تعيش، ولا تريد أن تترث ما تبقى منه وهي حتى لم ترَ ساحة مار
يوحنا القريبة مذ كحتوها من البيت. هي قالت لي: حبيبة جبران
سلمى اسمها حلا الضاهر

يمكن خوتة وهي تحشش كثيرًا حين تحكي. وأنا صرت
أفكر أنها هي نفسها حلا الضاهر لكنها قالت إن حلا ابنة عمّها،
وإن حلا تزوّجت ابن أخي المونسنيور وهاجرت معه إلى البرازيل
وهناك لم تعش في سعادة إذ كان زوجها أكبر تاجر بن في كلّ
البرازيل، وهو اخترع آلة تصنع القهوة بدقيقة، ومن دون غليها في
الركاوي، آلة بالبخار اسمها إكسبرسو، هكذا تقول إكسبرسو،
لكن سرق فكرتها منه واحد من صقلية، رئيس عصابة، وكتبها في
سجلات الحكومة هناك، فخرس زوج حلا كلّ ثروته في حربه مع
عصابة الطلياني الذي كان أذكى منه ويفهم بالقوانين وصار اليوم
غنيًا جدًّا في أميركا وبقيت حلا في البرازيل وماتت فقيرة
هناك.

حين تحكي تحشش كثيرًا قالت لي إن جبران ذكي، ونبيّ مثل
الأنبياء، ويكتب كتبًا جعلته مشهورًا في أميركا وغنيًا كتبه عجائب
تحليل التراب ذهبًا لكنّ اللجنة التي شكّلوها هنا، وركبها
البكوات والمطران والمونسنيوران، عرفت بالذهب الذي تدرّه هذه
الكتب، لكنّ أعضاءها لا سمعوا ما بداخلها ولا قرأوها وهذه
اللجنة ستنهب قبر جبران الذي وضعوه فيه البارحة وستنهب روح
روح ربّه. خوتة يا حرام. أو إنّه الحشيش.

قم. قم نطلع إلى البيت. ولا تقل لأحد. احلف على

القربان المقدّس . ثم سأقول لك شيئًا ، صحيح ما قاله الخوري عن جدّك الناسك يوحنا بركات المزوّق . هو كان قدّيسًا وستطوّبه روما يومًا ما أنا أعرف . كلّما أخذوا أحدًا ، ميّتا ، إلى مقبرة مرّت مورّه حيث هو مدفون كان الناس يشمّون رائحة بخور قويّة . ويقول أناس من بيت صعب ، بيوتهم في حيّ الحرّيم ، إنهم في بعض الليالي كانوا يسمعون صوته الجميل يرتل القدّاس في الليل أو ربّما فجرًا جدّك التقيّ الناسك يوحنا بركات المزوّق .

ملاً البخور الفضاء الرطب. كان يخرج من الكنائس ومن البيوت أيضاً يُطَيَّب شحنات الهواء البارد مخفّفاً من روائح الحطب والزبل المحترق الخارجة من مداخن السطوح، والمثقلة دوماً بثلج يحدله الناس في النهار فيعود ليلاً الصابرون يقولون إنّ ذلك خير كلّه ويظهر الأرض من أجل مواسم مباركة، ونافدو الصبر يطلبون من الربّ أن تكون حربهم اليوميّة هذه ضدّ اللعنة البيضاء كفّارة عن ذنوبهم ثم، إمّا يطلبون الرحمة أو يلعنون القديسين بأقذع الشتائم، كلّ عائلة بحسب دائرة قديسها الشفيع، ثم يسترحمون نادمين، اتقاءً للقصاص ورفعاً للعتب. فقد بالغ الربّ في تسليطه الشتاء على بدايات الربيع، هذه السنة.

لم يحدل أحد سطحه ذلك الصباح تعاونوا على عجل في فتح المماشي بين البيوت. انتشر الخبر مباشرةً بعد قدّاس الفجر من استغرق في دفء الفراش أيقظه جاره. ولأنّها كانت أيام الصوم الكبير كان عدد المتلكئين في أبخرة كؤوس العرق قليلاً جداً هؤلاء استيقظوا فلم يجدوا نساءهم في البيوت، وحين خرجوا خيّل

لهم أن الربّ نقلهم إلى بلادٍ أخرى أثناء الليل .

في الساحة كان الثلج مهروسًا بحوافر البغال والخيول والحمير، تلك التي لأهل الضيعة، وتلك التي مرّت في ساحتها من الضيغ والقرى التي على حافة الوادي الغربيّة. كلّ الدكاكين كانت مغلقة عدا دكّان بشارة العبد الذي فتحه غداة دفن أمّه ولم يلمه أحد إذ تعود الناس ذلك من هذا الدكّان. يغلق بشارة أبوابه نصف غلقة عند مرور الجنازات، وقبل أن ينتهي مرور المشييعين يكون فتحه في ذلك الصباح كان الدكّان فاتحًا بابه لكن وراء طاولة الحساب كان هناك أبو بشارة العجوز، لا هو ولا امرأته ولا حتى أحد الأولاد. بقي أبوه في الدكّان ليس من أجل أن يبيع بل من أجل أن يحرس الدكّان والبيت الذي وراء حاجزه الخشبي، خوفًا من السرقة، فرغم خشوع ورهبة المناسبة هناك دائمًا حرامي يخطر له أن يستغلّ الوضع. وأيضا لأنّ بشارة العبد لا يحبّ أبدًا أن يغلق أبواب دكّانه هكذا

العابرون في الساحة الفارغة، إلى بقاع كفرا كانوا يرسمون إشارة الصليب إذ يشمّون رائحة البخور في الضيعة القديسة، بلدة المقدّمين والقبضايات الأشداء، لكنّ العادلين، الذين لا يعتدون على أحد. بعض الزغرتاويين والهدانة لكن من النساء فقط، عبرن الساحة إلى بقاع كفرا لكن متخفيات بين نساء كفرصغاب وحديث. هن أيضًا شمن البخور في الضيعة الفارغة، وتصوّر كيف ألقى أصحاب البيوت بحبيبات البخور في المواقد، قبل الخروج، لتمرّ روح شربل وتقدّس الدور كلّها والضيعة أيضًا،

بكاملها، لتقويها على أعدائها الكثر، المحيطين بها من كل صوب. لكنّ الزغرتاويّات رحن، لا بدّ، وهن يرسمن إشارة الصليب يطلبن إلى الربّ، فلتكن مشيئتك، ولا يجرؤن على التضرّع إليه أن يجعل عاليها واطيها ويهدّ بيوتها فتفطر حجراً حجراً وإلى الأبد. لا بدّ. ذلك أنّ حروباً قامت بين البلديتين دوماً وتكراراً ومن قديم الأزمنة، حتى بين القديسين الشفعاء من الطرفين لا نعترف أو نصليّ لقديسيهم، ولا يعترفون أو يصلّون لقديسينا، بل هم إن أرادوا إيذاءنا بالشتائم كالوا أقذعها لشفعائنا وقديسي كنائسنا، ونحن لا نفعل ذلك. إلا نادراً

بأيديهم ومعاولهم ورفوشهم كان الشبان يرفعون الثلج إلى جانبي الطريق لفتحها أمام الجموع بعضهم كان حانقاً من وفد الرهبان الطليان الذين اكتفوا بالمباخر والصلاة بلغتهم، وكعادتهم كانوا حفاة مكشوفي الرؤوس عن قرعاتهم المحلوقة على شكل طاسة، ينظرون أمامهم كأنهم يرون الملكوت راح يقول بعض الشبان وهم يتصبّبون عرقاً بادري قل لإخوتك أن يحظّوا يدهم معنا فالجمع صائم، لن نصل إلى بقاع كفرا التي تدقر بالسماء، ولا بدّ أنّ ارتفاع الثلج فيها يفوق المترين، كيف يصعد الجمع إلى مار شربل. يقول له صاحبه دعه، هذا جاسوس للبابا، هذا البادري الطلياني مثله. انظر كيف يراقب الجميع سراً، متظاهراً أنّه غارق في صلاته. اذهب إلى الرهبان ولا تعبّره. هؤلاء أوادم، يعلمون اليتامى ويزرعون الأرض، مثلنا، فلآحون وفقراء هاهاها يضحك رفيقه ويضيف: وما في أشطر منهم في صنع النبيذ يا زلمة. في بدء الطلوع صعداً إلى بقاع كفرا الذاهبة في السماء والتي

تختفي قممها في الغيم العالي، بحيث تبدو غابة الأرز تحت قدميها، بعيدة وواطئة على يمينها كنقطة سوداء في محيط الثلج المترامي والذي يعود ويصعد من الناحية الأخرى حتى القرنة السوداء التي هي داخل السماء وفي بطنها، ولا يرى قممها أحد، صارت حركة الجموع ثقيلة وبطيئة جدًا، ليس فقط بسبب الثلج الذي وفي أحسن الأحوال لم يترك سوى ممر ضيق لرجل يصعد وآخر يهبط، بل بسبب الإغماء الذي أصاب بعض النساء، خشوعًا وتأثرًا بالعجبية طبعًا، ولكن أيضًا بسبب البرد وهن حافيات الأقدام كاشفات رؤوسهن ورعًا وإماتة، وبسبب أنهن صائمات ضعيفات القلوب من الجوع. النساء المغمى عليهن كنّ ينزلن على أكتاف أقاربهن. فيتوقف طلوع الناس تمامًا، ويسأل العالقون النازلين هؤلاء أيش بها؟ شربل يتكفل فيها، أيش في فوق؟ أما زالت المرأة التي فتح القدّيس عينيها فوق؟ فيروح هؤلاء يبخلون بالأجوبة بخلا شديدًا، لأهميّة الموقف، إذ تصبح المرأة التي يحملونها وهي تتململ على أذرعهم على شيء من القداسة، هي أيضًا

ولأنّ الأعجوبة في ذلك النهار كانت مزدوجة، كان لا بدّ من الوصول إلى فوق. فالمرأة العمياء منذ ولادتها فتحت عينيها ورأت، لكنّ تمثال العذراء الذي كان في محبسة شربل، في دير كفيفان البعيد، انتقل من نفسه، هكذا في بحر الليل، إلى كنيسته الصغيرة التي أُقيمت فوق بيت أهله الفقير، وراحت ترشح زيتًا عطرًا والجميع يعرف أنّ العذراء لا تتنقل هكذا بين المذابح والكنائس والمناطق، لا ترشح زيتًا عطرًا هكذا جزافًا، بل لأنّ شعبها في خطرٍ ساحقٍ قريب. ذلك أنّ أخبار الحروب كانت

كثيرة، ووقت الشدة والتجربة والتهلكة يقترب مع تواتر أخبار الحروب ولو كانت هذه الحروب ما زالت بعيدة عن جبلنا المبارك، المحمي تحت رداء العذراء الأزرق البهي الطاهر هي التي لا تتخلى عنا

الصغيرتان صابات وإميلين راحتا تبكيان بصوت مرتفع. تسميهما سلمى الصغيرتين وهما أكبر من الصبيّين لكنّها تفعل كأّمها؟ وهي صارت أكثر فأكثر تفعل كأّمها مذ ماتت أمّها عند خالتها فوز ولم ترجع إلى البيت لم يلحق بها الطبيب الذي كان في حقله، خارج الضيعة، والذي قال لهم قتلها الضغط، وانفجر الدم في رأسها دائماً ترى سلمى رأس أمّها مليئاً بالدم وقد فجّره الضغط من الهمّ والعذاب. وهي تشدّ بالصغيرتين صعوداً وتنهرهما عن البكاء. راحت تتساءل عمّا ستطلبه من القدّيس فوق وقد ماتت أمّها ونامت في القبر وهي لن تقوم. فقط يسوع يُقيم الأموات من القبور، وشربل لم يشتدّ بعد عودّه في السماء لدرجة إحياء الموتى.

قالت مرّتا طلعتُ روحي، وحياة العذرا سيقف قلبي. أنا سأعود وأصلّي في البيت. راح موت يا سلمى يا بوطيل. يا بوطيل أنا راجعة. فقالت لها سلمى يرحم جدّي خذي البنّتين معك. يرحم جدّي وأنا أصلّي عنك مسبحة كاملة فوق. خذي البنّتين، إن شاء الله يخنقني شربل رح صلّي عنك وأضيء شمعة أيضاً قالت مرّتا آخذهما معي، لن أحملهما على ظهري. سأنتظر أخي حنا قرب الأوتونيل في بقرقاشا وتعودان معنا. لكن

أنتِ أضيئي شمعة لي، لي خاصّ ناصّ.

برحمة عمّي بيّك. لا تنسي.

قبل وصوله إلى باحة الكنيسة الصغيرة، الأشبه بالكاييلا، رأى طنّوس سلمى تحته بأمّطار قليلة بعد أن كان أضعافها مع البتتين. راح يناديها ويشير ناحيتها بيديه الاثنتين أن تشدّ طلوعاً لتلحق به بسرعة. يناديها بصوت منخفض يشبه الفحيح إذ بات قريباً جداً من الصفوف الأمامية حيث ينبغي أن يصمت وأن يصليّ.

كان المصلّون راكعين بخشوع حول الخوري العجوز الذي بدا عليه الإرهاق الشديد. حتى إنّه كان كأنّه يترنح وهو يردّد أن منّة، التي فتحت عينيها الأعجوبة، لم تعد بيننا، وعلينا ألاّ ننتظر رؤيتها هنا إذ هي حُملت إلى الديمان لعند البطرك في خلوته. خلوة البطرك لصلاته، التي من أجلنا وإنقاذ أرواحنا والتكفير عن خطايانا يخصّصها لجبلنا، ومن أجلها يترك بكركي والعالم. وسيرى غبطته منّة ويصليّ عليها، وهو سيخبر بابا روما بما جرى عندنا، في ربوعنا المقدّسة.

كانت لهجة الخوري المسن تشي، في لكننتها الغريبة، بأنّه ليس من ناحيتنا بالمرّة. لذا بدا أنّ أكثرية السامعين لم يفهموا كلمة واحدة ممّا قال.

ثم، يأساً ركع الخوري على الأرض مُنهيّاً مرّات أخرى عديدة صلاة القدّاس اذهبوا بسلام يا إخوتي وأحبّائي. ولتصحبكم بركة الثالوث الأقدس، الأب والإبن والروح القدوووووس. وحين رأى الناس لا يتحرّكون راح الخوري العجوز يعيد رسم إشارة الصليب

فوق رؤوسهم تقبّل الله، اذهبوا بسلام. ثم. يا إخوتي حلّ
الصيام. فات الظهر، روحوا كلوا في بيوتكم. فشعر الناس فجأة
بالجوع وشرعوا بالعودة نزولاً

وقفت سلمى تمسح دموعها وراحت تضرب ركبتيها بقبضتي
يديها من الألم. كأنّ مسماراً من مسامير الصليب دُق في عظم
الركبة. راحت تلکز أchaها من كتفه لينهض وهو لا يردّ، واضعاً
كفيه حول رأسه، غارقاً في البكاء وفي نشيج صامتٍ يهز جذعه هزّاً
خفيفاً وعلى دفعات.

ابتعدت عنه سلمى وراحت تنتظر أن يُنهي صلاته، ثم عاودها
البكاء إذ قالت في قلبها إنّ طنّوس يبكي على أمّه يكاد يصبح فتى
يافعاً، هامته تشبه هامة أبيه، لكنّه كأنّه ما زال طفلاً تراه هكذا
وتظفر الدموع من عينيها إذ هي تعرف أنّ طنّوس لا يبكي خشوعاً
أو من رهبة الأدعية والصلوات، ولا من الندم على الخطايا إذ، هو
طنّوس، ما قد تكون خطاياها. يا مئّمي

راحا، وهما ينزلان، وقد اختارا أن يخوّضا في ثلج الصيران
عوض الرجوع في النفق الضيق الذي عاد يعجّ بالصاعدين من
الوفود الجديدة القادمة من أمكنة بعيدة وصلها الخبر، راحا يتوقّقان
لُطيلا النظر إلى عمق هوة الوادي العظيم التي كشفت عنها الريح
ورفعت الآن غيمها التحتاني إلى السماء. ذلك الغيم الصوفي الذي
يندلق أحياناً فجأة ويملاً الفوهة الواسعة فتصير سماءً تحت السماء،
وتندفه الريح فجأة أيضاً، ثم تلتفّ ساحبةً إيّاه، كاشطةً حوافّ
الوادي بلحظات، كشرّاقة هائلة

صارت سلمى تتوقّف كلما توقّف أخوها ولا تنهره وقد نخر
البرد عظامها تحت هذا المطر الخفيف. فقط تقول برد. برد يا
رَبِّي قدّيش في برد وهو لا يردّ. تقترب منه وتقول. شفت الوادي؟
وادي قنّوبين. شفت وادي القديسين، قاديشا، قدوشو، من هنا
نرى المغاور التي سكنها النساك والقديسون الذين تركوا العالم
وهربوا من الأوثان والأتراك ليتعبّدوا للربّ ويشترّوا أرواحهم.
أرأيت؟ يذوب الثلج في الوادي قبل الضيع. لأنّه أقلّ بردًا، ومن
مياه الشلالات أيضًا أرأيت؟ وطنّوس لا يردّ ثم ترى ظهره يهتزّ
بالبكاء فتسكت. وتبكي هي أيضًا تمسح دموعها بسرعة وتقول.
كفى بكاءً الله يرحمها أمنا كانت طاهرة النفس وهي لا بدّ في
السماء الآن، صلّ لها نحن في أيّام الصوم، والسماء مفتوحة
تسمع الصلاة، أرأيت عجيبة حبيبها شربل؟ صلّ لها تعالّ نتلّ
السلام عليك عن روحها اليتيم، تقول سلمى وهي تشدّ على
حنكها المرتجف بردًا ورغبةً في البكاء، اليتيم ليس من فقد أباه
وأمه، اليتيم هو من أغضب العذراء تعالّ نقل السلام عليك يا
مريم.

وعد طنّوس، الذي لم يتوقّف عن البكاء وعن النشيج
الخافت، أخته سلمى بأن يلحق بها إلى البيت، حين وصلا إلى
الطريق العمومي في بقرقاشا لم يأخذ النقود التي مدّت يدها بها
قائلة إنّ الظهر قد دقّ في كلّ الكنائس، اشترِ فطيرة من الفرن إن
كنت لا تريد أن تمشي معي إلى البيت.

لم يعد طنّوس إلى البيت. مشى قليلاً على طريق بقرقاشا ثم
راح ينزل في الصيران حتى لم يعد هناك صيران.

في العريض، حيث تنتهي الشجيرات ذات الجذوع ولا يعود
بعدها سوى منزلقات صخرية ليس فيها ما يتمسك به النازل تحت،
راح طنّوس يبحث، يميناً وشمالاً، عن الطريق الحلزوني الذي تسير
عليه الدوابّ حتى النهر رأى قطعاناً من الماعز تحته بقليل لكنّه لم
ير الراعي. فالماعز تصعد الصخور بقدرة قادر ولا تقع، ولا
يستطيع الماعز أن يلحق بها، بل ينتظرها إمّا في الصيران وإمّا قرب
مجرى النهر، يناديها فتعود إليه أينما كان.

في العريض الذي توقّف فيه طنّوس لا يدري كيف يفعل
لتجنب الانزلاق على الشير العاري تحته، لم يترك الثلج سوى
رشاتٍ قليلة لكنّ الوحل والطحالب والأعشاب الصغيرة الصابونية
جعلته يجلس بجانب شجرة بلّوط صغيرة نبتت أفقيًا، ويفكّر كيف
أوقع نفسه في هذا الفخّ، إذ بات الصعود الآن مستحيلًا والعودة
بمثل خطورة الاستمرار في الهبوط.

السماء البعيدة فوق، والتي تبدو الآن كقبة لبّادة الرأس، ما
زالت مضيئة لكن إلى متى لم يحسب الوقت منذ غادر الطريق إذ
كان منشغلًا جدًّا بأفكاره، وبما طفح به قلبه وفاض من عينيه.

إلى يمينه، إذ نظر وربّما، مغارتان غير بعيدتين إحداهما كبيرة
الفم. غير بعيدتين، لكنّ الصخر الذي يُحيط بهما على الجانبين
حجر عمودي كالبلّاطة الملساء لو مشى أفقيًا يصل إلى المغارة
الكبيرة في أقلّ من ساعة، وهناك قد يبقى إلى أن يرسل الله له
حلًّا لكنّ هذا مستحيل.

هكذا هو قلبه قويّ لكنّ دمه فائر ولا يفكّر بعقله، كما تقول
سلمى. حالتي صعبة ولا تحبّني العذراء فتحميني من دمي الفائر
هذا، ولا تبّهني إلى وقوعي في رعونتي قبل أن أقع في الخطيئة
والآن تكون سلمى في الساحة، تسأل عني الناس، وقلبها يتفّقع
كحبّات الذرة في النار من قلقها عليّ ربّما ليس الآن لكن بعد أن
يدخل الليل ولا تراني عائدًا قد تروح إلى عمّي الكبير أو إلى
الخوري. وسيشتمني سابا، وينظّ عن الأرض مهددًا بضربي. يا
ربّ اشفِ أخي سابا فلا يظلّ هكذا ضعيفًا ومريضًا وسيئ المزاج

دومًا، ولا يضحك. وهو أيضًا ليس وسيماً ولن ترضى الزواج به بنت جميلة أو حتى بنت غير جميلة

وستبكي نبيهة والبنتان. في البدء لن تبكي سلمى أمام أختيها لكنّها بعد ذلك، أو حين تصير وحيدة، ستبكي عليّ لكنّ هذه هي درب الربّ حين يناديك يسوع يقول لك: اترك أباك وأمك، اترك أحبّاءك واتّبني. أنا الدرب والحقّ والحياة.

وراح طنّوس يبكي من جديد. أيضًا ندماً إذ تأكّد من فشله ومن قلة حيلته وتفكيره الذي ينقّضه الكثير من الذكاء. الربّ يقرّر من يكون ذكيًا هكذا قرّر لجبران، وأنا قرّر أن يعطيني قلبًا وجسمًا قويين ورأسًا ضعيفًا، وإلا لكنت حملتُ معي حبلًا لا أحد ينزل هكذا من دون حبل إن لم يكن معه دابة تعرف الطريق. حتى مع الدابة يحمل الواحد حبلًا كلّ الناس معهم حبل، يلقّونه على كتفهم أو يضعونه في الخرج

ندماً وخوفًا أيضًا إذ حين ينظر قليلاً إلى تحت بات يدوخ وهو لم يشترِ فطيرة كما أوصته سلمى. وها هو يدوخ من بطنه الفارغ ومعدته يطحن لحمها اللحم. عدا الخوف.

لا يحبّني الربّ. هكذا لم أفعل له شيئًا كبيرًا يُغضبه إلى هذا الحدّ. ثلاث مرّات أبانا يعطيني الخوري فرض تكفير في كرسي الاعتراف لا أكثر هذا يعني أنّ خطاياي ليست كبيرة. جدًّا أبي أيضًا تركه الربّ يدنق في الجرد، في ثلج نزل في غير مواعده. كان أبي آدميًا، يتعبّد للعدراء ويصوم لها أيام السبت كلّها لكنّه كان يسبّ ويشتم، قال أي. ي بلحية المونسنيور ومرة قبلها قال

أي. ي بلحية المطران. وحين قالت سيّدة، امرأة عمّي، إنّ مار الياس الحيّ هو من شفى سابا من مرضته الأخيرة، وكان أبي يقول إنّها القديسة شمونة التي نزل إلى ديرها حافيًا فاستجابت لصلاته، وإذ ردتّها سيّدة لا، لا يا سلفي إنّ مار الياس الحيّ عليه السلام، ضرب المرض بسيفه كما كان قطع رأس القرينة، ففز أبي في الهواء وصار يقول لامرأة عمّي ي بلحية مار الياس الحيّ أقول لك إنّها القديسة شمونة أبي أيضًا كان دمه يفور أحيانًا، رغم عقله وفداسته، رغم هدوئه وصبره وحكمته كان يزفر بالكلام ويسبّ القديسين. لكنّه كان يندم سريعًا ويروح يصليّ لهم ليسامحوه. لكنّ هذا مار الياس بالذات لا يسامح أعرف من صورته، من هيبته المفنجرتين أنّه لا يسامح ومعروف أنّه يحبّ الانتقام، كثيرًا وهو حقود ودائمًا يقتصّ من الخطأة. سيفه، مار الياس، أكبر من جسمه، ويقطر دمًا لذا، لا يهمل أيّ إنسان عيّدّه، وتزحف إليه الخليقة، حتى من لا يحبّونه من قلبهم. وهذا، مار الياس بالذات، لا أحد في الدنيا ينسى نذرًا له، أو يؤجّل وفاءه. يقولون. كلّوا ولا مار الياس الحيّ دفتر حساباته كبير ولا يرضى حتى أن يتدخل شفعاء آخرون للتوسّط أو الصلحة. حتى العذراء يجب أن تلحّ عليه كثيرًا تشفّعًا لطالبي الرحمة. مار الياس الحيّ يكبّر الرأس حتى مع العذراء مريم. يا بيّبي.

أبي شتم القديسين ورجال الله، لكن أمّي. ماذا فعلت أمّي لتموت بعيدًا عن بيتها أمّي لم تقل يومًا كلمة نابية، وهي كانت حتى تصليّ لمغفرة خطايا أبي، وخطايانا نحن وخطايا الحارة كلّها. أنا سمعتها مرارًا تقول اغفر خطايا الناس جميعًا لتغفر

خطايانا فجر رأسها بالدم ولم يصل إليها الطبيب إلا بعد أن خنقها الدم، من الضغط انفجر رأسها وكان أبي مات، ولا فرس ولا أوتونبيل ليحملها أحد إلى الساحل ماتت عند أختها التي راحت إليها لأنها تحبها، وتتسلى عندها من همنا، لكن أيضًا لتعود من هناك بالزيت والصابون. يا ربّي ماذا فعلت أمّي التي كان ينبغي أن تموت في سريرها عجوزًا فوق المئة.

لكنّ للربّ حكمته، وهو قال لنا الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. ربّما حاسبها الله عن خطايا أهلها الربّ يحاسب الإنسان حتى ولد الولد. ولو كان الولد لا يعرف شيئًا عن هذا الحساب، لذا على الإنسان أن يطلب المغفرة دومًا، عمّا يعرفه وعمّا لا يعرفه. فالربّ يعرف. وطنوس ذاهب إليه.

راح طنوس يزحف على مؤخرته، وظهره ملتصق بالتراب. يتمسك بما تطاله أصابعه القويّة ولا ينظر إلى تحت ارحمني يا الله كعظيم رحمتك. نزل أمتارًا قليلة وتوقّف. لو تحرّك بعد حركة واحدة سينزلق ويهوي. بمشقة كبيرة استطاع أن يجلس وكان يخبط ويفرر كعصفور نزع الصياد رأسه للتوّ يا هووو. دخل إجريكن، لكنّ الصوت لم يذهب بعيدًا، بسبب ضجيج مياه الشلالات الكثيرة.

لم يعد غير الصلاة.

سيرتل الترتيلة التي يحبّها، ويحبّ سماعها كان من أبيه.

وستسمعه العذراء لأنّ الجمعة العظيمة ليست بعيدة.

رسم طنّوس إشارة الصليب، وكوّر كَفّه حول أذنه.

فتح فمه حتى حنجره أبيه، وبالصوت الحنون الخفيض نفسه
راح يرتل

أنا الأمّ الحزينة ولا من يعزّيها لهفي على أمّة قتلت
راعيها ناح الحمام على تشّت أهليها عذارى أورشليم تبكي
على بنيتها

توقّف الرهبان الثلاثة عن الصلاة، يرفعون الجرار، تدلق ماءً
عن حواقيها، إلى خرج البغل، وعلى ظهره جعلوا يشقعون الخرق
التي لّفوا بداخلها السليق على أنواعه.

سمعه الأخ لبا الحصريوني. أنصت جيّدًا وراح يبحث عن
مصدر الصوت. وإذا كان الكلام ممنوعًا بين الإخوة خلال أسبوع
الآلام، أخذ يشير بيديه، واحدة إلى أذنه وواحدة إلى مصدر
الصوت.

كان سهلاً أن يدلّوا الحبال ويسحبوه. أنزلوه بعدها إلى حاقّة
النهر لّفوه بمشلع صوفيّ رفعه أحدهم عن كتفيه، راحوا يفركون
رأسه وظهره بقوّة ثم حملوه إلى ظهر البغل فوق حشائش السليق
وأشاروا عليه أن ينحني على رأس البغل ويحيط رقبتة بذراعيه حتى
لا يقع وهم في طريقهم صعودًا إلى الدير

تعجّب طنّوس كيف أنّ أحدًا لم يعنفه.

لا أحد يتكلّم في الدير، لا في الكنيسة ولا على طاولة الطعام ولا في الغرف التي تبقى مقفلة، ولا بين الغرف. فقط يُنزلون رؤوسهم إلى صدورهم بالتحية ويقبلون يد اثنين منهم.

ثلاثة أيّام وهو بينهم كأنهم لا يرونه يتبعهم أينما ذهبوا حين يتجمعون عند صوت الجرس الصغير، يرسم إشارة الصليب ويركع ويقف ويمشي حين يفعلون ذلك أعادوا إليه ثيابه بعدما جفت وأشاروا إليه أن ينام على فراش صغير حملوه إلى المطبخ الدافئ دوماً يستحي لأنه لا يعرف كيف يجاريهم في الصلاة. لكنّه كان سعيداً بينهم إذ لم يعنفه أحد، ليس فقط بسبب امتناعهم عن الكلام إماتةً مع آلام يسوع. فالرئيس الذي لوحده مسموح له الكلام، لم يقل له شيئاً عرف أنه الرئيس لأنّ الصليب على صدره كبير، وهو يجلس إلى المائدة كرتب البيت، ويعظ ويتكلّم قبل الصلاة وبعد القدّاس. وهو الذي يأمر على من تقع فريضة القراءة قبل الأكل. ثم إنّ الأكل كان لذيذاً جدّاً، ساخناً وطازجاً وكثيراً ولو أنّه من غير زفر أو لحم. فهو أكل قاطع كما ينبغي أن يكون في الصوم، وطيب

ولو أنّه بلا زيت ولا جبن ولا بيض كما ينبغي أن يكون لمزيد من الإمامة .

كان طنّوس يشعر أنّه يأكل كثيرًا ويخجل إذ يروح الأخ الذي يطبخ يسكب له مرّة ثانية في قصعته، ومع أنّه يفعل ذلك دون أن ينظر إليه، مكتفيًا بالنظر إلى الرّيس كأنّه يطلب منه أن يسمح بذلك . ثم يحمل إليه خبزًا طيبًا من الشعير يكون ما زال ساخنًا ومقرمشًا عند أطرافه . يدور نظر طنّوس عليهم باحثًا عن وجه يشكره ولو بعينه فيجدهم مطرقين فوق صحنهم، بمن فيهم الرّيس . هكذا، مساء الخميس، وحين انتهى الأخ الذي كان يقرأ من السنكسار، وقبل أن يقف الرّيس فيقفوا وراءه، وضع طنّوس كفه مكورةً حول أذنه، أغمض عينيه، وراح بصوته الحنون والخفيض جدًّا هذه المرّة يرتل لهم أنا الأمّ الحزينة .

أنا الأمّ الحزينة ولا من يعزييها

ثم نسيهم طنّوس الذي يُبقي عينيه مغمضتين حين يغني أو يرتل . وإذ صار صوته الخارج من عتمة رأسه يعجبه كثيرًا راح يطلق له العنان، فيبعده أكثر فأكثر عن فمه، ويعيد غناء المقاطع التي تعجبه ويطرب لها . وحين فتح عينيه أخيرًا، إذ أدرك أنّه أطال، كان وجهه مملوءًا دموعًا، وبدت الشمعة على الطاولة ككبة من الشوك المضيء . كانوا واجمين ينظرون إليه بثبات ثم يردّون أعينهم إلى الطاولة . وحده الأخ الذي كان أوّل من سمعه في الوادي كان يهز رأسه بقوة وينظر إلى الرّيس .

مرّ وقتٌ قبل أن يقف الرّيس فكذّ العرق وجه طنّوس حتى كاد

يعتذر ويطلب المغفرة، وراح يمسح رأسه وعينيه ثم أطرق في
خشب الطاولة ينتظر

وقف الرئيس وقال له: تعال يا بني. تعال معي.

وفي غرفته الصغيرة المرتبة قال الرئيس لطنوس:

- ما اسمك يا ابني؟ وكان يكلمه بلهجة كلّ أحرف العلة فيها
مسطحة كلهجة أهل الساحل البعيد.

- اسمي طنوس. طنوس المزوق. طنوس المزوق رزق
بركات.

- أنت. هل يعرف أهلك أنك هنا؟ آ؟ لا يعرفون. أنت ابن
المزوق إذن. من علمك الترتيل والغناء. آ؟

شوف يا ابني. مار قزحياً ليس ملاذاً للهاربين من شغل
الفلاحة والأرض إن كنت هارباً من الأرض وقد دنا الربيع
وموسم الشغل فهنا في الدير ستشتغل وتتعب أكثر، كلّ هذه
الأراضي حولنا، وحتى النهر يفلحها ويزرعها ويحصدها ويقطفها
ثلاثة إخوة فقط، لا يساعدهم أحد. آ؟ ثم إن كنت تكره
الأرض، كشبّان كثيرين مثلك، هناك شغل كثير، اليوم يعبدون
طريق الأرز ويلزمهم فعالة وشغيلة وأولاد ضيعتكم أولى. آ؟
وهنا في الوادي تحت بينون مشروع قاديشا للكهرباء. آ؟

وإن كنت فعلت فعلة لا تُرضي العذراء فسأعرف، وقبل أن
أسلمك للعسكر سوف أحبسك في مغارة المجانين، وستخوت
مثلهم. آ..؟

و. إن بقيت ساكناً هكذا لا تبك، توقّف عن البكاء أنت
صرت رجلاً آ. ؟

وإن كنت تعتقد أنني سأسكت عنك لأنّ صوتك حلو وترتل
لتمجيد الربّ فأنا أقول لك إنّ صوتك الحلو هذا سيختفي ويفسد
حين ترجل، حين يتحوّل ويصير صوت رجل ؟

- لكنّ صوت أبي بقي حلواً أنا مات أبي يا بونا الرئيس،
وماتت أمي فصرت يتيمًا، والربّ لا يحبّني لأنّي خاطيء، سأعترف
لك في كرسي الاعتراف، وسوف أتناول القربان الذي - لو أنني
كذاب - سيفوّز الدم من فمي وسترى الدم يبقب من فمي وأذني. أنا
أحبّ يسوع وجئت هنا إليه، وأريد أن أبقى بينكم من أجل أن يرضى
عني ويسامحني ويغفر لأبي وأمّي ويردّ الشرّ عن إخوتي جئت هنا
من أجل يسوع. قال طنّوس وهو يشهق بدموعه

- حيث تطلبونني تجدونني، قال الرئيس. الربّ ليس موجوداً
في الدير فقط الربّ في كلّ مكان، وهو إن لم يسمع نداءك مرّة أو
اثنين فلأنّه يجربّك، يجربّ صبرك وقوّة إيمانك. توقّف عن
البكاء. آ. ؟ ستتعلمّ هنا الطاعة. الطاعة والتواضع. الطاعة
والصبر الطاعة ونبذ الذات والدنيا سأرسل لأهلك خبراً مع
المكارية. وتبقى هنا كام يوم. تصلّي معنا وترى كم أنّ عيشنا
صعب، ويقضي الربّ قضاءه بحسب مشيئته. آ ؟

رسم الرئيس إشارة الصليب. توقّف عن البكاء. خي لبا
الحصروني سيعطيك ثوب المسوح، ثوب المبتدئين. خي لبا
مُفضلّ عليك فهو الذي سمعك ونجّاك من الموت. وهو الذي يطبخ

ويطعمك . تخدمه وتطيعه ؟

وسوف ترتل غداً في زِيّاح الجمعة العظيمة . سوف أسمح لك ، ترتل أنا الأمّ الحزينة . ثم تتعلّم الصلاة . ؟ هل تعرف القراءة؟ بالعربي بالعربي ، الكرشوني والسرياني يأتي فيما بعد .
؟ عند المعلّمة نجبية؟ عافاك . عافاك .

سأرسل غداً أخبر أهلك . حارة المزوّقة أعرفها

لك صوت جدّك الطاهر يوحنا المزوّق الذي خدمته في محبسته عاش مئة سنة ، أو ربّما أكثر لكنّه توقّف عن الترتيل قصاصاً للنفس حين رأى الناس تقترب من المحبسة لتسمع صوته ، وشاف الخلق يتوقّفون عن الشغل في أراضيهم وقت الصلاة ، صلاة المساء ، حين كان يرسل صدى تراتيله في الوادي . كان صوته تمجيداً للربّ وتسييحاً باسمه لكنّه توقّف قصاصاً للنفس وإماتة كنت أحمل إليه الماء والخبز اليابس وأتوقّف طويلاً قبل أن أترك الزوادة على مقربة لعلّي أسمع . كبر كثيراً في العمر ولم يشخ صوته أو يتغيّر ليعطك الربّ مثل ما أعطاه من مقدرة الصوت من أجل تسييحه لكنّه . هو ، يا بنيّ ، كان قدّيساً لم يفتح أحد قبره لكنّه ، يوماً ما ستطوّبه روما نفسها ؟ قم واغسل وجهك وصلّ قبل النوم . ؟

جدّي يوحنا لن يصبح قدّيساً يا ريت ، صار طّوس يقول في قلبه وهو ينظر في فراشه إلى جمر الموقد القريب . قدّيس واحد ينجّي عائلته بجميع أفرادها من الهلاك . يشفع لهم فتُغفر خطاياهم . لو كان جدّي قدّيساً عند الربّ لما قاصص يسوع أبي

الذي دنق على ظهر الجرد وأكلته الضباع وهي ربّما بدأت تأكله قبل أن يموت . يا الله يا الله، ارحمنا يا ربّ كعظيم رحمتك .

جدّي ليس قدّيسا فهو - كما يقول عمّي - عرف الخطيئة وذاق جسده اللذة، تزوّج وأنجب أطفالاً، وسيقضي السنين الطويلة في المطهر، - والسنة في الآخرة دهر ودهور - قبل أن تصعد روحه إلى السماء سيطلع إلى السماء أكيد إذ هو ترك العالم شاباً يافعاً وساب الدنيا بأهلها ومالها، لكنّه لن يصير قدّيساً في السماء ناس كثيرون لكنّ الطلوع إلى السماء لا يعني أنّ الواحد يصير بالضرورة قدّيساً، جالساً عن يمين المسيح في ملكوت السماء . يقول عمّي الكبير الذي حين يتكلّم يسمعه الناس باحترام . خاصّة وقد أصبح عند حنا ابنه أوتونيل .

لن يصبح قدّيسا، جدّي سيطلع إلى السماء لكن لن يكون قدّيساً وقد ذاق طعم الخطيئة وتزعرن مع امرأته وأنجب أولاداً مستحيل .

خالي، وهو البعيد بيته عن حارتنا، روى لي أنّه سمع أنّ لجدّي حكاية أخرى . وحلف على القربان والإنجيل أنّها صحيحة ثم طلب المغفرة من الربّ وحلف على الإنجيل والقربان المقدّس أنّه سمعها، وأنّ من رواها له لا يكذب، وهو من حارتنا ويعرف

كان جدّك في بيته الكبير، ذلك الذي قسّمه أعمامك كان كبيراً كان جدّك في سريره في غرفته يقرأ في الليل منتصف الليل والجميع، جميع من في البيت نيام، دُق الباب عدّة مرّات،

ولمّا لم يفتح أحد إذ كانوا نيامًا، قام جدّك يوحنا الذي كان اسمه حنّا وفتح الباب. وجد في الباب رجلاً يشبه المارد الأسود وتسدّ كتفاه الدرّفتين اسم الصليب العظيم قال حنّا فقال له الرجل لا تخف. أنا جوعان وعطشان وبردان. دعني أنام وفرسي في إصطبلكم وأنا أغنيك لولد الولد. أعطني رغيفًا وماء وغطاءً وافتح لي قفل التحتاني وحين تصحو غدًا لن تجدني. اسمع جيّدًا قبل أن تقول لا، لأنك ستضيع عليك فرصة عمرك الوحيدة. أنا لا أطرق باب أيّ كان. وما سأعطيك إياه مقابل مبيتي في إصطبلك لا يوازيه ذهب الأرض لو أحسنت استعماله. خاف جدّك من هذا الرجل الذي كان كالمارد الأسود وقال له لا أريد منك شيئًا المسيح يوصي بالغريب. طرقت بابي جائعًا وعطشان وسوف تأكل وتشرب، أنت وفرسك، وتبيتان في ديرتي قال الرجل لجدّك اسمع يا ابن بركات المزوّق. خذ هذا الكتاب واقرأ أسطره بالصوت العالي حين تكون لوحده مُغلّقًا بابك عليك. فقط أوصيك بشيء واحد: ألا تخاف، وإن خفت لا تقل باسم الصليب. وقبل أن تطلب فُكر أنت قلبك قويّ، لا تخف يا ابن بركات المزوّق.

ثم قال خالي إنّ جدّي، بعد أن منح المأوى للرجل على حسب ما طلب، دخل غرفته وأقفل بابها من الداخل وراح يقرأ في الكتاب، ساخرًا قليلًا من كلام هذا الرجل، ومرتابًا بأنّه ربّما كان مغربيًا مشعوذًا وحين سألتُ خالي كيف عرفتَ يا خالي بما فُكر به جدّي، ارتبك قليلًا ثم قال: اسمع ولا تعمل نفسك مفوّهًا فهيمًا بالناموس. ثم تابع قائلاً إنّ جدّي راح يقرأ في هذا الكتاب فسمع حرتقةً ثم كلامًا غير مفهوم وبلغّة غريبة. إلى أن سألتُه امرأة لا

يراها، قل صوت امرأة: ماذا تريد يا ابن بركات المزوق. فأجابها جدك: هاتي أعطيني ليرة ذهب فوجد فوراً ليرة ذهب تلتمع تحت عينيه على غطاء السرير فصرخ من خوفه: اسم الصليب فاخفى كل شيء. الأصوات والليرة الذهب ووجد الكتاب بين يديه يحترق ويصبح كتلة من نار، رماها أرضاً فاستحالت رماداً

من يومها وجدك لا يتوقف عن الصلاة. من يومها، حين أدرك جدك أنّ من طرق بابه، ذلك المارد الأسود، لم يكن سوى ابن ملك الجان، وأنه قد ترك له كتاباً يحضّر الأرواح ظلّ منزوياً على نفسه، لا يأكل ولا يشرب حتى عاف الحياة وترك البيت وذهب يَجول في الأديرة والبراري ثم استنسك في محبسته يصلي ويمجد الربّ ويكفر عن خطاياها ليشتري راحة نفسه. وأنا أقول لك يوماً ما سيصبح جدك قديساً حقيقياً لكن يلزمه وقت.

مع أنّ خالي رجل محترم ويفهم سياسة الزعماء إلاّ أنّه يحبّ حباً خيالياً حكايات الجن. وأنا لا أعتقد أنّ جدّي سيصبح قديساً، يا ريت

نعسُ الدفء اللذيذ كان يُثقل جفنيّ طنوس وهو يسترجع مساءً ذلك النهار، وكيف أنّ بونا الرئيس تركه في الدير واعتبره بونا الرئيس واحداً منهم حين، بعد أن لبس طنوس المسوح، لباس المبتدئين الصوفي السميك الذي يهري الرقبة، جلس إلى جانب الإخوة ورفع رجليه - كما فعلوا - ليغسل بونا الخوري أقدام الجميع، يجفّفها بالفوطة ثم يقبلها، كما فعل يسوع لتلامذته، يوم خميس الغسل ولأنّه كان الأخير في صفّ الرهبان لم يخجل حين قبل بونا الرئيس قدميه.

كان الطقس دافئًا يوم الجمعة العظيمة. غصّت مغارة الكنيسة بالناس وامتلات باحتها والفسحات الصغيرة، حتى الجلالي الملاصقة للباحة، امتلات بالناس تعمشق بعض الأولاد بجذوع الشجيرات وانتحى المرضى والمعاقون جانب الدرج الصخري. ولأنّ ديرنا هو الأكبر أتى إلى زياح المصلوب رهبان من جميع أديرة الوادي، ومناسكه، حتى البعيدة منها، الكبيرة وتلك التي يسكنها راهب أو اثنان. من مار أبون وسيّدة حوقا ومار جريس ومار سمعان. حتى إنّ نساكًا أجنب أتوا إلى زياحنا

خاف بونا الرّيس جدًّا من كثرة الخلق. راح يرّد بالصوت المسموع يا أبنائي انتبهوا أمسكوا بأيدي الأولاد. وصار يقول لنا بصوت خفيض: سيّدنا سيرأس القدّاس والزياح في دير سيّدة قنوبين، الوصول أسهل إلى سيّدة قنوبين، لماذا لا يذهب الناس إلى الصلاة هناك. كان بونا الرّيس يعرف أنّ عجائب ديرنا هي الأكثر والأقوى، لكنّ حوادث سقوط الناس والدوابّ في الوادي كثيرة أيضًا، وغالبًا ما يستحيل الوصول إلى الجثث فيصلّي عليها

الرهبان من فوق ويرمون البخور والمياه المقدّسة وهم لا يرون الميّت. وحي لابا الحصريوني يقول لبونا الرّيس وهو ينظر مواربة ويشير برأسه ناحية الأبّاتي الذي اسمه سمعان: ولماذا لا يذهب الناس إلى دير مار أليشاع، طريق مار أليشاع هي الأكثر أماناً لكنّنا، لترحمني العذراء، لم نسمع بعجائب كثيرة حصلت فيه، فينهره الرّيس باحثاً بحذر عن الأبّاتي، راجياً ألا يكون على مقربة

في الزّياح ركع بونا الرّيس والأبّاتي سمعان جنباً إلى جنب تقريباً، لكنّ البونا كان أقرب قليلاً إلى المذبح وثيابه أجمل وأكثر ترتيباً ولأنّ جسمه أكبر من جسم الأبّاتي كان يبدو هو قائد القدّاس وزعيم الزّياح الفعلي.

وحين أشار بونا الرّيس إلى طنّوس إشارة خفيفة برأسه أغمض طنّوس عينيه لينسى خوفه من الناس وظلّ ممسكاً بقوة بشمّعته يضغط عليها

أنا الأمّ الحزيبينة/ ولا من يعزيبها

خيّم صمت قويّ على رؤوس المصلّين في الكنيسة، ومرّت لحظات قبل أن يردّ الناس بلازمة فليكن موت ابنك. حياة لطالبيها

بعد كلّ مقطع يغنيه طنّوس، ينخفض صوت الناس والمصلّين من الرهبان الغرباء أكثر فأكثر عند ترديد اللاّزمة حتى إنّ البونا راح يحمم بالصوت العالي، كالدّاخل على نساء، حين صار يسمع بكاء حي لابا الحصريوني وتمخّطه. إحم إحم، ثم يرفع صوته أكثر في لازمة فليكن موت ابنك، تحذيراً، وحي لابا لا

يفهم، وطنوس يزداد خشوعًا من بكاء خي لآبا، وتنزل الدموع من عينيه المغمضتين. ثم توقّف الناس تمامًا عن فليكن موت ابنك ومنهم أيضًا من راح يبكي بصوتٍ مسموع.

استدار الأبّاتي سمعان واقفًا وقال للناس يا إخوتي المصلوب يدور في الكنيسة ولن نخرج بالنعش الحبيب إلى الباحة نظرًا لعدد المؤمنين المصلّين. لكنّ الرجاء، عند لمس النعش أن تفسحوا للمرضى والمعوّقين. وحين تعذر الطواف بالنعش حتى داخل الكنيسة لشدة الزحمة إذ دخلها من كان في الخارج لمّا سمع صوت طنّوس، قال الأبّاتي: بيننا يا إخوتي اليوم بونا الرّيس شليطا، من قبَل غبطة البطريرك قبلنا أردان قداسته، فلنستفد من خلوته بيننا ونستمع منه إلى عظة الآلام.

لم يعجب طنّوس اسم بونا الرّيس فهو إذ سمعه للمرّة الأولى راح يردّد في نفسه أنّ الاسم لا يليق أبدًا بالرّيس شليطا؟ شليطا هو اسم القزم الوحيد في الضيعة، الذي يسخر منه الناس. وهم ظلّوا يفعلون حتى بعد أن تزوّج بتنا طبيعة القدّ من إحدى المزارع، وتعلّم صنعة الكندرجية وفتح دكانًا قريبًا من درج مار يوحنا وخلف أولادًا وظلّ الناس يسخرون منه وعلى مسمعه. حتى هدّد خوري من حارة الفوقا بالحرم الكنسي كلّ من يسخر من شليطا

درب الآلام يا إخوتي، راح البونا شليطا يتابع، هو دربنا جميعًا في هذه الدنيا الفانية. وعلى مراحل هذه الدرب أعطانا المسيح مثالاً للتضحية نضعه أمام أعيننا لنفديه كما فدانا بدمه لمغفرة الخطايا ومن أجل ملكوت الربّ. سمعتم يا إخوتي كيف

دُقت المسامير في يديه، وُرُفِعَ على الصليب بين اللصين، بعد أن كللوه بالشوك ساخرين منه، من أتة ملك اليهود. ثم شربوه خلًّا حين عطش، وطعنوه بالحربة وهو فقفر شاب من بين المصلين وصرخ باكيًا أي. ي باليهود. أي. ي باليهود يا بونا لنذ. ك أماتهم. لنذ. ك ربّ اليهود.

راح الناس يضحكون بالصوت العالي. أشار البونا شليطا بيده لأهل الشاب، البسيط العقل حتمًا، أن أخرجوه حالًا ففعلوا لكنّ العظة لم تنته على خير إذ اشتبكت الأيدي والعصي في باحة الكنيسة بين أهل الشاب والناس الذين راحوا يضحكون ساخرين. حتى خرج الريس والأباتي أيضًا يصرخان في الناس، والرهبان يحاولون التفريق بين المتقاتلين ودفعهم بعيدًا عن حافة الصيران التي تطلّ على الوادي السحيق. ولم تهدأ الأمور تمامًا إلا حين راح الرهبان يوزعون الأكل على الناس إيذانًا بانتهاء الزياح. يأكلون ويعودون إلى قراهم وبيوتهم الرهبان إلى أديرتهم، النسك إلى محابسهم وصوامعهم قبل هبوط الليل. يلا كلوا واكلوا على الله والعذراء مريم قبل المغيب وإلا وصلوا كثيرًا واطلبوا التوبة.

في أحد الفصح كذلك لم يهنا الرهبان بالعيد. في الفجر هتأوا بعضهم بعضًا بالمسيح قام من بين الأموات، حقًا قام. أقاموا قداسهم الأوّل كأنّ على عجل وكان مزاجهم عكرًا قليلًا، مع أنّ فطورهم كان لذيذًا أكلوا بيضًا وجبنا للمرّة الأولى بعد أيام الصوم القاطعة، والبيض كان مقلبيًا بالقاورمة التي وصلت رائحتها الزكيّة

إلى القرى فوق. هذا فطور ملوكي، لنحمد الربّ ونمجّده، وراح الأبّاتي يقول ناظرًا ناحية خي أفتيموس الإنطاكي الذي كان يبدو مثله سعيدًا على خلاف الآخرين

في المطبخ لحق طنّوس بخي لآبا يساعده في خبز القرابين التي كان عجنها قبل القدّاس. وحين رفع طنّوس غطاء الدّست الكبير الذي حمّله مع خي لآبا إلى الموقد، ورأى العنزة الكاملة المسلوخة ترتع في مائه، لم يفهم مزاج الإخوة السيّئ. قال له خي لآبا، عندنا ضيوف ولن يتبقّى لنا منها سوى الحساء والعظام. لا تتلمّظ هكذا

- من سيأتينا؟

- ناس مهمّون سيأتون وسيغدّون في ديرنا بعد القدّاس الأخير

- ناس لا تحبّهم يا خي لآبا؟

- ما أهمّيتي أنا أحبّهم أو لا أحبّهم. أنا أطبخ للجميع والربّ أوصانا بحبّ أعدائنا أنا أحبّ الجميع

- لكنّ الإخوة غير مبسوطين، فقط الأبّاتي وخي أفتيموس

- ذلك أنّ زعيمهم مدعوّ على الغداء وهو نازل إلينا خصّيصًا، ومعه نائب من ضيعته

لم يردّ خي لآبا على بقيّة الأسئلة مُستغرقًا في الطبخ. أحسّ طنّوس من وجوه الرهبان وحركاتهم أنّ هناك حزبين حزب مع الأبّاتي سمعان والأخ أفتيموس الإنطاكي وزعيم رهبان مثلهم آت

مع نائب يحبّهما، وحزب مع البونا الرّيس والرهبان الآخرين، أو أكثرّيّتهم على الأقلّ

بقي طنّوس في المطبخ، وحمل الإخوة الأكل إلى الطاولة التي وضعوها في الباحة. خي لبا لم يخرج، لكنّ بعض الرهبان صاروا يخرجون ويعودون إليه ويسرّون إليه بما يجري في الخارج، خصوصًا خي تادروس البزعوني، القريبة قرينته من قرية خي لبا وحده أفتيموس لم يعد إلى المطبخ وبقي في الخارج مع المدعوّين.

ثم دخل إخوة مسرعين وقالوا لطنّوس بونا الرّيس يريدك. قال بونا الرّيس لطنّوس يا طنّوس أسمع سيّدنا وضيفنا صوتك. ما بك؟ تحرّك، قبلّ يده وأسمعه صوتك كانت الباحة مليئة بالرجال أكثرهم وقوف وعلى خصورهم مسدّسات أنا الأمّ الحزينة. قاطعه الرّيس. لا يا طنّوس نحن في أحد الفصح وفرحانين بقيامة المسيح أسمعنا صلاة أخرى فنجر طنّوس عينيه وصار يتصبّب عرقًا

إليك الورد يا مريم. آ؟ طيّب رتل ما تريد. آ. ؟ أقول نؤمن أو أبانا؟ سأله طنّوس ورأسه في الأرض. نؤمن وأبانا لا تُرتل. آ؟ آ؟ رتل ما تريد، ما تعرف. فكّر طنّوس طويلًا، ثم سحب نفسًا عميقًا ورفع ذراعه عاليًا

أووف أووف. آوو آووو

ها يا ربي يوم الهيجا ما تذلّوا

خرطوش كثير وفرودي بارابيلو

ولاطلع عا راس الجبل وشوشع بعباتي

قاطعه البونا لَه. لَه، فيما كان الآخرون غارقين في الضحك. أهذا ترتيل يا طنّوس، هذا جدا، لإثارة نخوة المحاربين. نحن لا إي يا بونا، قال طنّوس، تعلّمته من أعمامي، يُحوربون به حين يحكون عن حربهم مع شيعة متاوله هاك البلاد.

نهرة البونا بقوّة: لسنا في حرب مع أحد والكلّ إخوتنا لكنّ الآخرين، سيّدنا والأباتي والزرعيم، لم يبّد عليهم أيّ غضب، ولا حتى القليل من الرعل

عاد طنّوس إلى المطبخ خجلان من فعلته، ومن حيرته أيضًا ثم راح يفكّر أنّ أمامه الكثير ليتعلّمه في الدير وأنّ غلظه هذا ما كان ينبغي أن يحصل خلال هذا الغداء المهمّ والذي بدا له كمأدبة صلحة، أو يشبهها كثيرًا

لكنّ اثنين الفصح كان مختلفًا تمامًا

الكلّ كانوا فرحانين، من كلا الحزبين. إلى أن خرج خي أفتموس الإنطاكي من غرفته مبللًا وشعر رأسه يقطر ماءً وقف دون كلمة جامدًا أمام الأباتي. قال البونا من فعل هذا فليتقدّم وليعترف من نفسه وإلّا تقدّم منه، لكن دون خوف، خي صفرونيوس الحدشيتي وخي جريس البشرّاوي. وقفًا مُطرقين في الأرض فقال البونا إنّ المزاح الخفيف ليس خطيئة فاليوم عيد ونحن

فرحون بقيامة يسوع، لكنّ للأمر حدودًا ثم أعطاهما فرض صلاةٍ ثقيلًا وطردهما إلى الكنيسة. وحين رأى البونا أنّ الأبّاتي ما زال يطرق عابسا، معبّرًا عن عدم رضاه على هذا الحكم، أضاف بونا الرّيس وحين تعودان من الفرض سأرى ما أفعله بكما

خرج الراهبان، وقال خي لبا لطنّوس، بأنّ الناس يتمازحون إثنين الفصح، والرجال يرشّون نساءهم بالماء قائلين لهن. حتى لا تدبلي يا مباركة. فالفصح هو موسم الماء واقتراب ربيع الشجر والنبات. لكنّ أفّيموس ليس امرأة، ولا هو زوجتهم، قال طنّوس معترضًا، فأجابه خي لبا ما لك أنت وهذه الأمور اليوم نشوي لحمًا كثيرًا نأكله لوحدنا واليوم نلّون البيض بالبصل والنيلة الزرقاء، ونفاقس ومساءً نسير إلى الأراضى والكروم والبيوت القريبة لنصلّي على الزرع والينابيع والناس ونرشّ عليهم ماءً مقدّسًا

اليوم أحلى عيد. سنفطر كبدة نيئة، قدر ما تريد، مع النعناع والبصل وظهراً نطلّ نشوي اللحم ونشرب النبيذ إلى أن يحلّ المساء

تعالّ ساعدني. ولا تخف، صفرونيوس وجريس سيكونان معنا.

حشت سلمى الدجاجة الطوزة التي لم تعد تبيض، صارت تقول متأففةً من نقّ نبيهة: مع آلامك يا يسوع تسألها نبيهة لماذا ذبحتِ الدجاجة ولم نطلع إلى بيت عمّي؟ ماذا فعل لك عمّي كي تحرني هكذا وتذبحي الدجاجة؟ لماذا لم تقبلي أن نأكل عندهم وهو عمنا الكبير وله كلمة علينا ويريد أن يجمعنا إثنين الفصح؟ حتى ولو كان الأكل بائناً من يوم البارحة. البارحة لم يكن عمك يستطيع أن يعزنا وعنده ضيوف وخلق الله وغرباء وزعماء. ماذا لو أكلنا أكلاً بائناً فنحن أهل، ومثلنا مثل أولاده. لماذا أنتِ عنيده هكذا ورأسك كبير وذبحتِ الدجاجة؟ تستبدين بنا، صدق نفسك لأن طلع لك بزاز؟

قالت سلمى يا نبيهة أنا هكذا إن لم تسكتي سأنتف شعرك. فحزنت نبيهة وسكتت

كانت سلمى غاضبة. وحزينة أيضا لأنهم سيأكلون من دون طنوس.

قعد عمّها يتحدّث مع بونا الرّيس، وهو ذهب معها إلى الدير لإحضار طّوس إلى البيت. ثم نسي طّوس، وراح يقول لها نفسه طلبت يسوع فهل نردّه. هذه إرادة الرّب فهل نكسر إرادة الرّب الذي اختاره لخدمته حتى إنّه لم يرد رؤيتنا لم يقابلنا وقال للبونا اطلب منهم أن يصلّوا من أجلي. ماذا كان بإمكاننا أن نفعل، راح يقول لي عمّي في طريق العودة، غير مهتمّ، ولم يذرف دموعاً واحدة.

تخلّى عمّا طّوس كان على المسيح أن يدعو سابا إليه، على الأقلّ يشفيه من سيساعدني الآن في أرض بُنحلي. حتى القليل من الأرض في عربة التحتا لم أعد أقوى عليه وها أنا أتركه للنصيريّة الحوارنة، لا يراقبهم أحد.

وسابا الأهل يخدم على طاولة بيت عمّي ليركّبه حتّا إلى جانبه في الأوتونيل، وليقدّ مراجل على الناس ويستعلي عليهم بأوتونيل حتّا وحتّا يضحك عليه، وهو جعله يقول للعساكر إنّه هو - سابا - من دفع مع أصحاب له بالزّقاة، التي كانت تعبّد طريق الأرز، إلى الوادي. حتّا الذي لم يرض به المهندس ريسًا مشرفًا على الشغيلة فغضب أبوه وصار يعزم الناس ويقول. حتّا لا يعمل تحت يد أحد لكن أنا سادّبر هذا المهندس، وفار الشباب وراحوا يقولون: نحن لا يستبدّ بنا الأعراب. ونحن نفتح الطريق إلى أرزنا متى نريد ونحن نغلقها ونقطعها متى نريد، وحملوا حتّا على الأكتاف، وحملوا سابا الأهل أيضا، ولولا ستر الرّب كانت حصلت حرب، إذ تعصّبت بعض العائلات للمهندس الغريب الذي التجأ إلى رجالها

يشكو ما حصل قائلًا إنّ هناك من لا يحبّ التطوّر والتقدّم، ولا يحبّ ضيعته التي تستأهل الكثير إذ هي بلدة المقدّمين وصاحبة التاريخ المجيد. ثم سكر الشباب وقرّروا أن يذهبوا إلى العساكر ويشهدوا جميعًا بأنّهم رأوا بأعينهم الزقّاة تجفل من الدوابّ كما يجفل الحصان وتقع في الوادي. ثم راحوا يضحكون وسابا يشعر أنّه أمير عرب.

ربّما يعتقد سابا أنّه سيتزوّج مرتا أو فرنسا أو برجوت، الأهل فهو لا يفكر أنّ عمّي لن يرضى به، وإلاّ وإلاّ لكان أسمعني أنا كلامًا بخصوص حتّا، ولو أنّنا لا نطبق بعضنا بعضًا أنا وحتّا لكنّه ابن عمّي والأولى بي.

ستأكل الدجاجة مع البنتين وبطريسة الصغير اسمه بطرس وحوّلته سلمى تصغيرًا وتحبّيا بطريسة. تزور عمّها فريد ثم عمّها رزق، تمر على عمّاتها، أو من تزوّج منهن في الضيعة، ثم تذهب إلى الراهبات الطليانيّات تصلي القدّاس معهنّ في كنيسة مار يوسف. فقد هجر الناس كنيسة مار مخايل الصغيرة إلى مار سابا التي بُنيت فوقها وظلّت غير منتهية البناء كبيرة فارغة وباردة ولا أحد يسمع فيها ما يقول الخوري ولو كان في الصفوف الأولى والناس يفتخرون بها بعدما قيل لهم إنّها كاتدرائيّة، وأكبر كنائس جبل لبنان.

أمس أيضًا ذهبت هي والبنات إلى قدّاس الراهبات وطبعًا زعل منها الجميع، إذ راحت بنات عمّها كلّهنّ إلى المعلّمة نجبية. قال لها سابا إنّ المعلّمة نجبية أسمعته كلام عتب شديد وقالت له.

أخواتك يا سابا، خيرة بنات العائلة يذهبن إلى الراهبات؟! يا عيب الشوم.

ذلك أنّ المعلّمة الفاضلة كانت مع الفرنساويّة، بينما الراهبات مع إيطاليا وكانت هناك حرب شرسة بين البلدين، وصلت أصدائها إلينا لكننا لم نخف منها، تلك الحرب.

الراهبات كنّ عطوفات جدًّا على سلمى، يعلّمنها أشياء كثيرة، من التطريز والخياطة والكويّ إلى الصلاة والترتيل. ودائمًا يعطينها شيئًا تعود به إلى البيت. مراطبين ومونة وثيابًا، وأحيانًا بعض النقود. وهي تحمل أعلامهنّ الجميلة حين ينظمن مسيرات في المناسبات المقدّسة. والصبيان في دير الرهبان الرجال يهتمّ بهم الطليان، وخصوصًا الأيتام منهم. وقال البادري لسلمى إن الدير والمدرسة تتّسعان لبطريسة، لكنّ سلمى شكرت البادري القدّيس واكتفت بأن التحق بطريسة بفرسان العذراء، ولبس أيام الأحاد لباس هذه الجمعيّة الصغيرة وصار يتعلّم في المدرسة مجانًا لكنّه ينام في البيت.

لم يقتنع سابا وصار يقول. الصبيّ خطيئة في رقبتك يا سلمى فالراهبات نصارى صحيح لكنهنّ لسن موارنة. بلادهم الآن، وحتى بابا روما، يحاربون الموارنة وبطرك الموارنة لأنهم يحاربون الفرنسيين الذين يحموننا فكري بعقلك. هل تحكي لك المادري شيئًا عن مار مارون؟ هل تصلّي المادري لمار مارون؟

صحيح. قدّيسو وقدّيسات الراهبات جميعهم أجنب، لكنّ المادري قالت لها: هم قدّيسوكم أيضًا يا سلمى، جاركم مار

مطانيوس البادواني إيطالي من بادو، ضيعته اسمها بادو وهل هناك فرق بين المسيحيين في قلب المسيح. القديس الشهيد صفرونيوس أصله من هنا، من هذه البلدة بالذات وهو التحق برهبان الكرمل، في أورشليم، وردّ هجمات المسلمين عنّا جميعًا حتى قيام الصلح مع أشراف العرب. القديس الشهيد صفرونيوس هو مسيحي وماروني وكرملي أيضًا مثل الطليان وهو من ضيعتكم لا فرق يا سلمى في قلب يسوع وحين سألتها سلمى والدوتشي، لماذا تحلّفنا الراهبات برأس الدوتشي، ويطلبن منّا أن نصلي له؟ هل هو قديس جديد؟ ضحكت المادري من قلبها وقالت لسلمى، لا ليس الدوتشي قديسًا، لكنّ الراهبات يحببته كثيرًا، إنّه زعيم، موسوليني، مثل البيك أو النائب عندكم، نجح في الانتخابات، وردّ الاعتبار لبلاده إيطاليا غلب الأعداء الذين أدلّوها وأهانوها وكانت محاطة بهم، مثل جبلكم هذا ثم. يخطئ أهل الضيعة، أحبّاؤنا، إذ يقولون - أعرف - أنّ الفرنسيين ضدّ الطليان، فنصف الفرنسيين معنا، ويحكمهم بطل حقيقي، جنرال يحترمه الجميع منذ حرب الأربعين وأسمه بيتان. ولا يكفي ألا تحبّه المعلّمة نجية، المعلّمة الفاضلة.

أقام بونا الرّيس في الدير حتى نهاية الصيف، ثم رحل عنه إلى الديرمان، ومنهم من يقول إلى بكركي بعدها غادرنا الأبّاتي سمعان إلى دير مار أليشاع، ومنهم من يقول إلى الساحل وربّما إلى بيروت أو ناحية قريبة منها اسمها الكسليك.

وجاءنا إلى الدير رهبان جدد، فقد كنّا اشتغلنا كثيرًا في ترتيب غرف جديدة داخل الحفر الصخري فعمّرنا الجدران وسوّينا الدكّ الحجريّة للنوم.

لم يسمح لنا بونا الرّيس بالطلوع إلى الأرز يوم عيد الربّ. فقط، في اليوم التالي، مشينا باكراً جدًّا إلى حيث الكنيسة الصغيرة في الغابة وحضرنا القدّاس وعدنا أمّا ليلة العيد فقال إنّها وثن، الناس تسكر وتدبّك وتذبّح، ولا أحد يفكّر بالربّ أو يصلّي له. هذه عادات من أيّام الأوثان.

لكنّنا يوم عيد الصليب، أواسط شهر أيلول، أطلقنا العنان لأنفسنا. قبل المغيب كنّا قد حضرنا كلّ شيء. خلطنا الزيت

بالرماد كومةً كبيرة، وصنعنا صليبًا طويلًا عريضًا يكاد يكون بكبر صليب تلّة قلب يسوع، لففناه بالخرق التي كُنّا أغرقناها بالزيت، ثم ثبّتناه في المنحدر وصلينا تحته. وزّعنا أكوام الرماد إلى حيث وصلت أقدامنا. وحين غابت الشمس أضرمنا النار في الصليب وفي الرماد ووقفنا نفرّج. كلّ القرى اشتعلت بالنار الجميلة فوق، حول فوّهة الوادي، وأضاءت كامل الجلالي المحيطة بالمناسك والصوامع، حتى بدت لنا الأديرة في قلب الصخر ونحن لم نكن نميّزها في وضوح النهار. وخطّت تلك الشمس الصغيرة مجرى النهر تحتنا نحن أيضا رمينا بخورًا في نارنا التقى دخانها بأدخنة بخور الآخرين فعبق الوادي برائحة لا بدّ شمّها قدّيسونا في قبورهم الطاهرة.

وحين رحنا نقول إنّ صليبنا هو الأجل والأكبر، نهرنا بونا الرئيس وقال: ما أدراكم؟ خطيّة. ذلك أنّ البونا لا يحبّ التساوف ولا الكبرياء ولا العجرفة. وكان دومًا يسأل ويشكّك ويقول من أين لك هذا الكلام؟ أو أين قرأت ذلك يا ابني. لذا تعلّمت منه الكثير، يسمح لي بالذهاب إليه حين أريد ويقول: إسأل ولا تخف شوف كيف كان يسوع يسأل الكتبة والفريسيين والكهنة، ويسأل أباه أيضًا الربّ يحبّ من يسأل. الربّ لا يحبّ الحمير

مر الصيف سريعًا لأننا اشتغلنا كثيرًا بين جمع المواسم والقطاف والحصاد وصنع المؤونة والجبن والقديد، وبناء الغرف الجديدة وتنظيف المطبعة، مفخرة ديرنا، وهي الأولى في الشرق التي طبعت كتاب المزامير مرّ الصيف سريعًا جدًّا، وأنا لازمت

معلمي خي لآبا الحصريوني مطيعًا وخادمًا وهو كان حنونًا وطيبًا،
وكثير النكات والضحك حين نكون لوحدها نرتل معًا ونغني، وهو
يصحح لي غنائي ويطرب له. وأحيانًا حين نكون بعيدين عن
الآخرين فلا يسمعونا، يلتفت إليّ بعينين ضاحكتين ويقول يلاً
إي يا ربعي

فأكمل مبسوطًا إي يا ربعي يوم الهيجا لا تذلّوا
خرطوش كثير وفرودي بارابلو
أتلقت حولي فيقول: لا، لا تخف. يلاً لطلّع عا راس
فأكمل لطلّع عا راس الجبل وشوشح بعباتي
وقلكم يا نشامى الموت خير من الشماتة
وإن سلمتم سالمينا نحنا لك
نحننا لك
وحياة أبوك وخالك
نحننا لك. آآآ ويا ربعيبيبي.

فيهز خي لآبا رأسه طربًا، حتى إنّه أحيانًا يقفز في الهواء رافعًا
يده مُحَوَّرَبًا، كأنّه من حماسه ذاهب إلى المعركة وأحيانًا يعضّ
على شفته أن انتبه كي لا يسمعنا أحد. ذلك أنّ الكلام والغناء
بالغزل وحبّ النساء كلّها أمور محظورة وممنوعة، وسيرة الحروب
أيضًا إلّا من أجل المسيح. مع أنّ الأفضل هو الاستشهاد على
أيدي الأعداء.

الأخ لا با لا يحبّ الاستفاضة في الشروح مثل بونا الرّيس . حين أطرح عليه الأسئلة يردّ بسرعة واقتضاب، وأحياناً كمن صبره نافذ وخلقه ضيق . فحين أسأله : لماذا نحن هكذا محاطون على الدوام بالأعداء ومهدّدون في أرضنا وجبلنا وإيماننا؟ يجيبني في مكانٍ آخر، فيقول بسرعة: لكن لا أحد يقدر علينا هل أنتِ خائف؟ لا تخف . قوّة الجحيم لن تقوى عليكم . هكذا قال يسوع . لا أحد . فأروح أفكر أنّ هامة خي لا با وقوّة الهائلة تجعله هكذا مطمئنًا لا يخاف، إذ هو بين الإخوة الأقوى على الإطلاق، يرفع بين ذراعيه كلّ ما يستحيل رفعه على الآخرين . يصرخ زيحوا يا عدرا، ويرفع أيّ وزن، ينتره نترًا ثم يحمله ويضعه حيث ينبغي، وحين أنظف غرفته أجد حجارة كبيرة أحتمن أنّه يتمرن سرًا على رفعها إذ لا أتبيّن وظيفة لها غير ذلك .

لكنّه علّمني أشياء كثيرة جدًّا، وفهمت منه لماذا لنا هذه الأسماء الغريبة التي قلّما يطلقها الناس على أولادهم، فشرح لي الأمر قائلاً إنّها غير الأسماء التي وُلدنا بها عند أهلنا، وإنّنا إذ نترك العالم وأهلنا لنهب أنفسنا للرّب ولعبادته لخلاص نفوسنا، نترك أيضًا أسماءنا كأسمال قديمة بالية لنتبع المسيح في حياةٍ جديدة . وإذ نقلب صفحة حياتنا القديمة نختار أسماء جديدة، من أسماء القديسين الشفعاء لنجعلهم قدوة لنا ومثالاً نستنير به . وحين سألته عن القديس أفثيموس قدوة خي أفثيموس الإنطاكي، راح كعادته يُجيب بالورب لأنّه لا يحبّ هذا الراهب . صار يحكي عن الإنطاكي وإنطاكية، ناسيًا ما سألته عنه من حكاية القديس . إنطاكية، إنطاكية هي نبع قديسينا، كما أنّ نهر قاديشا ينبع من قرنة

السودا والجرد العالي. فهمت؟ ترى النهر ولا ترى من أين ينبع. هكذا قدّيسونا الأوائل وبطاركتنا جاؤوا من هناك، حين كانت إنطاكية إنطاكية وسمّوهم أمراء إنطاكية وسائر المشرق، سائر المشرق، من أورشليم القدس إلى الإسكندرية إلى بلاد الموسكوب. لكنّ المواردنة هربوا إذ راح يقتلهم المونوفيزيون الذين يقولون بخلافنا - وكما سمعت من بونا الرّيس - إنّ المسيح إله وليس إلهاً وإنساناً معاً وهم كبعض الناس الذين لا أسميهم، لا يوثق بكلامهم، وخوانون إذ كانوا كمنوا لجماعتنا وهم في طريقهم إلى اجتماع صلحة وقتلوا ثلاث مئة وخمسين منّا مذبحه لم ينح منها أحد. ذلك أنّ الملك البيزنطي غير رأيه من العقيدة الخلقيدونية، عقيدتنا، وتحالف مع الأمبراطور أناستاز ضدّ مار مارون وأتباعه. هكذا دائماً، يتحالفون علينا، تتغير السياسات وتحالف علينا الأمم فنسقط ضحايا ولا نتعلّم. هكذا أيضاً قتلونا وكادوا يمحووننا عن بكرة أبينا أيام الفرنج حمونا وقووا شوكتنا فتحالفنا علناً معهم، ثم اتفقوا مع العرب، وحين ربح العثملي وترغم المسلمون قتلونا وأذلّونا ماذا تريدني أن أقول لك عن إنطاكية حكايتنا حكاية طويلة المردة. مردة من مارد. ماذا تقول؟ أقوياء وأشداء وجاؤوا إلينا من جبل طورس، فارسهم طوله بطول رجلين الواحد على أكتاف الآخر ظلّ المردة يهجمون على أبناء أمة ويهربون ويتحصّنون في جبالنا لا يطالهم أحد، حتى سمع بنا بابا روما نفسه وصار يقول يا عمّي هؤلاء المواردنة أبطال أبطال أبا عن جدّ، يدافعون عن النصارى في كلّ الشرق وهم قلة. وراح الرهبان يتوافدون إلى جبالنا، وكثر بينهم القدّيسون. صرنا أمة

شهيرة يضرب بها المثل. لكن أنا أقول إن رؤوسنا انتفخت وتكبرنا وتجبرنا فوق علينا قصاص الرب، إذن، ليس فقط بسبب تقلب السياسة. كان ذلك منذ زمن بعيد. لكن، كما يقول بونا الرئيس، يجب أن ننظر حولنا ونتعظ. جراجمة نحن ومردة ونفخر بنفسنا وبمناعة جبلنا لكننا لا نتعدى على الآخرين بمجرد أن يأتي زعيم غريب ويبدأ بحشو رؤوسنا حين هجم المتاولة ماذا فعل هذا الدير؟ هه؟ لكن لا نتعدى. السلطان بيبرس المملوكي الذي كان عبداً مخصياً ثم أصبح ملكاً حطنا في رأسه وقال في نفسه أكبر جيش سأرسله إليهم وأقوده بنفسي من يعتقدون أنفسهم هؤلاء القبضايات الجليون الرعاة؟! ويبرس هذا جعل عالينا واطينا لم أعد أذكر لم يكتف بالضيعة بل دمّر بقوفا أيضا تعرف بقوفا؟ كانت مملكة كبيرة عامرة وغنية، ماذا حصل لها حتى صارت حقلة هكذا فيها ثلاثة أربعة بيوت وأراضيها أغلبها بور ومشاع ففكر بنفسك.

إنطاكية كانت إنطاكية كما كانت بقوفا بقوفا من هدم إنطاكية؟ أوّل واحد يوليانوس الملقّب بالمرتدّ أحرّقها حين عاد إلى عبادة الأوثان. وثاني واحد ملك الفرنج الذي حاصرها وعمل فيها مذبحه كتبها التاريخ واليوم هرب منها الأخ أفتيموس الفصيح، ويلقّب نفسه بها كأنّها ما زالت إنطاكية القديمة. إنطاكية رمز بطركنا لكنّها صارت ضيعة صغيرة وفقيرة. فليسامحني الرب أخو بونا الرئيس ذهب إلى إنطاكية وأخبره عن حالها هناك. موقعها جميل وهي على تلة وتطلّ على نهر العاصي وضافه المقدّسة لكنّها صارت دسكرة فقيرة وحقيرة، مثل أصغر مزرعة عندنا

- وقصة القديس أفثيموس؟

- سيأتي دورها في قراءة السنكسار وسيشرحه الراهبان، خاصة الجدد منهم، فهم متعلمون ويفهمون في الشروحات والدرس، ألا ترى كيف يظلمون منكبين على الكتب السمكية، يدرسون في لغاتها ويكتبون وينسخون حتى بعد أن نام.

وأنت. أنت حين تنتهي فترة الابتدا يجب أن تختار اسم قديس وتنسى اسم طنوس وربما تستطيع أن تسمي نفسك أنطونيوس فلا تذهب بعيداً في البحث. أنطونيوس اسم عظيم، السلام لاسمه مار مطانيوس. جميل جداً اسمه. وتعرف حكايته كم هي حلوة.

تأكدت، من خي لبا، مما كنت أظن أنه عن الراهبان الجدد. إنه لا يحبهم كثيراً، وهم إذن في صف خي أفثيموس الذي بدا أنه صار رئيسنا الجديد، دون إعلان ذلك صراحة منذ غادر بونا الرئيس والأبائي الدير وحين سألته هل صار خي أفثيموس رئيسنا؟ انتفض وقال. من قال ذلك؟ قلت: إن صليبه كبير وهو من يبدأ بالصلاة، قال ربما ربما مؤقتاً هو كذلك. لكن بانتظار أن يرسلوا لنا رئيساً جديداً، من الديرمان. أنت اهتمّ بخلاص نفسك.

ومر صيفٌ آخر تركت ثوب الابتدا وصار اسمي أنطونيوس
لكنني كنت غالباً ما أشعر أنني لا أستحق أن أكون في مرتبة إخوتي
الرهبان. أقول في نفسي إنهم ربّما يثقون بي أكثر ممّا أثق بنفسي،
وإنه كان من الأجدى أن يمدّوا قليلاً في فترة الابتدا كي ينير يسوع
كامل روحي وقلبي، ويكسر قوّة الشيطان الذي يجربني ويعذبني
رغم كلّ ما أفعله لإماتة نفسي. وإذ أقول بعض ما أفكر به للأخ
أفثيموس الإنطاكي - الذي صار رئيسنا ولا نزال نسّميه خي
أفثيموس - يجيبني بأنّ سيرة قديسي وشفيعي مار أنطونيوس هي
قدوتي وسيرة حياتي الروحيّة، فهو قضى عمره يُغالب الشيطان.
حتى غلب الشيطان وانتصر عليه فلتكن سيرة شفيعك عبرةً لك
ومثلاً تحتذيه كلّ يوم. كلّ يوم.

لكنني كنت أزداد ريباً وشكاً بنفسي حين أرى الرهبان الجدد.
كانوا لطيفين جداً لكنّ أيّاً منّا لم ينجح في ممازحتهم ولو قليلاً
كانوا متشابهين كأنهم أشقاء، إذ قدموا الدير في الوقت نفسه.
حتى إنّنا نسّمهم الإخوة الجدد ولا نستعمل أسماءهم كأفراد. ذلك

أنهم دومًا معًا، وقلما يشاركوننا في الفلاحة أو الزراعة أو السقاية .
قلما يملأون معنا خزّان الماء في الربيع أو ينظفون الدير كانوا
يهتمّون بغرفهم وحدها لكنّهم، لضيق الوقت، اشتغلوا معنا حتى
نهاية الصيف في توسيع طريق الوادي إلى الدير

حتى هيئاتهم كانت مختلفة عن هيئاتنا قاماتهم نحيلة،
وملامح وجوههم مهذبة ومتناسقة وليس فيها غلاظة وجوهنا
أصابهم نحيلة وطريّة إذ هي لم تقرب المعاول والرفوش يومًا لا
يأفنون القراءة والكتابة اللتين تعلّموهما منذ الصغر حتى كتبهم لا
نعرف ما فيها وهم إذ يتكلّمون في ما بينهم لا نفهم، لا ما يقولون
ولا اللغة التي يتكلّمون بها فإلى جانب الآراميّة السريانيّة يتقن
الرهبان الجدد اللاتينيّة والفرنسيّة أيضا، وأحيانًا يتفاهمون بالطلبيانيّة
حين لا يريدون أن نفقه كلمة ممّا يقولون، بحسب ما نشكّ نحن
الفلاحين . لكنّ شكّنا هذا لا يدفعنا إلى كرههم لأنّهم متواضعون
جدًّا فنقول في أنفسنا إنّه درسهم، الصعب علينا، هو ما يجعلهم
هكذا فريقيًا واحدًا أكثر من هذا أنّهم أكثر تواضعًا منّا وأكثر طاعةً
والتزامًا بالأوامر، يمثّلون مطأطي الرؤوس، ولم نرهم يومًا
يرفعون نظرهم إلى وجه خي أفتموس، علامةً على تشكيكٍ أو
احتجاج، كما كنّا نفعل نحن، في الماضي، قبل قدومهم . فهم
أملوا على الجميع نظامهم، وصرنا نعتقد أنّ كتبهم وما بداخلها من
علم هي من يهذبهم هكذا، لا قسوة خي أفتموس، القاسي عليهم
كما علينا، وكما على نفسه

أحيانًا يعن لي أن أسألهم مستوضحًا عن بعض الكلمات أو

عن بعض الأسماء التي أجهد في حفظها ولا تكون أسئلتني دائماً بريئة أو من أجل المعرفة أو لكي أرقى إلى ما هم فيه من علم، فقد فات أوان ذلك، لكن لكي أمتحن تواضعهم واهتمامهم بنا ومع أنهم كانوا دائماً يجيبون على أسئلتني، عن العلوم وتطور البشر والفلسفة، لكنني أشعر أنهم يبسطون الشروحات كمن يتحدث إلى الأطفال. معهم حق في ذلك إذ، لو فهمتُ أنا شيئاً فإن إخوتي، وخصوصاً خي لبا وخي جريس لا يفهمان بل هما يزدادان غلقاً لآذانهما، ويروحان ينظران باتجاه آخر أو يبالغان في إنزال الرؤوس إلى الصدور، إحياءً منهما بأنهما قد استغرقا في الإغفاء لطول الشرح، ولعدم اهتمامهما أيضاً

وخي لبا قال لي ذات مساء في المطبخ أنت تصدق كل ما يقوله الإخوة الجدد؟ حتى لو كان مكتوباً في الكتب السميكة؟ أتصدق أن المسيحية وصلت إلينا في القرن السابع؟ وأنا قبله حاربنا النصراني كي نبقي على الوثن؟ طيب ما معنى شعبرنوب؟ هه؟ لماذا تُسمى هذه القمّة هكذا؟ حتى من قبل المسلمين والأجانب والطليلان؟ لأن كلمة شعبرنوب أصلها يشوع برنوب، وترجمتها يسوع ابن العزاء، ولماذا ابن العزاء لأنه أراد أن يعزي الناس بعد موته، وخصوصاً الرسل، فتجلى على أعلى قمّة في الشرق، على القرنة السوداء ومن يقول لك إنه تجلى في فلسطين تجيبه إن الربّ يتجلى حيث يريد وفي أمكنة كثيرة في الوقت نفسه. ثم تقول له لماذا نسّمى الأرز أرز الربّ إذن؟ ولماذا لم يستطع أحد في هذا الكون عدّ الأرزات. هل أحد قال أو كتب كم هو عدد أشجار أرز الربّ المقدسة؟ لا أحد! مستحيل! ثم. ما قصة الفينيقيين هذه؟ نحن في

كتابنا اسمهم الأوثان ولا نحبّ فيهم شيئاً في الكتاب المقدّس
 بلادنا اسمها لبنان. لبنان من قديم الأزمان. من أين جاءت فينيقيا؟
 هذا لا يعني أنّ الإخوة الجدد يقصدون الكذب أو التزوير لكنّهم
 غرباء ويقرّأون دائماً في كتب كتبها الغرباء. والغرباء هؤلاء، إمّا أنّهم
 لا يحبّوننا وإمّا أنّهم لا يعرفون هذا الجبل وتاريخه. هه؟ أيش يا حي
 جريس؟ أنت من بلاد أرز الربّ وبيتك هو الأقرب إلى الأرزات.
 أيش؟ فيهزّ حي جريس رأسه موافقاً وآسفاً ويقول: أنا لا أعارضهم
 ولا أصحّح لهم. هذا شغلّ حي أفتيموس لكنّهم، يبدو لي،
 على شيء من العناد، لذا لا أحاول. ولا أقول هذا لأنّهم غرباء،
 وربّما فيهم سوريّون مثل أفتيموس أو حتى زغرتاويّة، بل لأنّ المسيح
 دعانا إلى حبّ أعدائنا ومضطهديننا وجميعنا إخوة في قلب
 يسوع أنا، هكذا أقول.

أصدّق كلّ ما يُقال لي، وإيماني ضعيف يجربني الشيطان في
 عقلي وأيضاً في جسدي كما كان ربّما يفعل مع شفعي. لكنّ
 الشيطان كان يتراءى له في الماء الزلال حين يُميت مار أنطونيوس
 نفسه بنذر العطش، وفي الفاكهة واللحوم حين يصوم عن الأكل
 كفّارة عن ذنوب الناس وربّما أيضاً في أجسام النساء حين
 رغم ابتعاده في صومعته، لا يراهن لا في الكنيسة ولا في الحقل.

كلّما كبرت شهراً كبر إيماني سنة، لكنّ تلمذني سنون كثيرة
 وطويلة حتى أطرد الشيطان الذي، رغم تحصيني نفسي من
 أفخاخه، ينجح في مراوغتي ويتسلّل إليّ في الخفاء، ويصفعني
 صفعاً حين أكون غير متحصّبٍ لقوّته، وغير مطمئنّ إلى إيماني.

هكذا يوم عيد القديسة مارينا طلعتنا إلى ديرها الصغير، نظفناه جيّداً وأضأنا الشموع ثم أقمنا قداًساً لروحها الطاهرة. وفي المساء قرأنا سيرتها في السنكسار. قرأها خي المبارك ميما الذي يُخرج الحيّات من أوكارها، يناديها تعالي يا مباركة، فتخرج، سيرى بعيداً يا مباركة، فتسير زاحفةً بسرعة إلى البعيد. هو أفضلنا جميعاً في قراءة سير القديسين والشهداء، ويرفع نظره أحياناً عن كتاب السنكسار ويتابع القراءة من ذاكرته. أكان ذلك بالسريانية أو بالعربية. والمبارك ميما، حين نسمعه يقرأ، نرى كأنْ بأم أعيننا ناس الحكاية وقديسيها، يحضرون بيننا ونكاد نلمس أثوابهم بأيدينا، لشدة براعته في سرد الحكايات.

حزن أبو القديسة التقيّ كثيراً بعد موت أمّها، فزهد في الدنيا بعد جاهٍ وثناء. جاء إلى دير قنوبين يكرّس حياته للصلاة في أحد الأديرة. ولأنّ الرهبنة ممنوعة على البنات ألبس مارينا ثوب الصبيان وقال إن اسمها مارينوس وذات يوم أرسل ريسّ الدير مارينوس في مهمّة إلى إحدى البلدات، وهناك تأخّر مارينوس فاضطرّ للمبيت عند فنوتيوس، صديق الرهبان. وكان لفنوتيوس ابنة غضب عليها الربّ ورفعت العذراء عن طهارتها ثوب الحماية والرأفة فسقطت في الزنى، ثم بان حبلها بعد حين. فغضب فنوتيوس جداً وأراد أن يعرف كامل الحكاية، فقالت له ابنته إنّ الراهب مارينوس اغتصبها بالقوّة ليلة بات عندهم، فأسرع الأب إلى ريسّ الدير وشكا إليه الأمر وحين لم يتفوّه مارينوس بكلمة لردّ هذه التّهمة المشينة اعتبر الريسّ سكوته إقراراً بالذنب فطرده من الدير في الثلج والزمهرير بقي مارينوس ملتصقاً بباب الدير، باكياً

مصلياً يقاتُ من القمامة وفضلات الرهبان. ثم ولدت البنت الزانية صبياً جاء به أبوها إلى الدير ودفع به إلى مارينوس قائلاً ربّ ابنك.

ولأربع سنوات بقي مارينوس حاملاً عار التهمة الشائنة، يرَبّي الطفل الحرام لا يتنّم ولا يتذمّر وكان الرّيس أشفق على الطفل فسمح له ولمارينوس بدخول الدير، لكنّه فرض عليه قصاصاً يومياً شديداً ثم مات مارينوس وحين أخذ الرهبان يجهّزون جثمانه للصلاة والدفن اكتشفوا أنّه بنت وأنه بريء إذن من التهمة، فجثا الرهبان أمام ذلك الجثمان الطاهر مستغفرين يسوع وروح القديسة الطاهرة مارينا ثم قبروها في وادي قنوبين حيث كثرت عجائبها

لكن المبارك ميمّا راح يرفع رأسه عن الكتاب عند وصفه جمالها ورقة عينيها ونحول جسمها، ثم نتوءات وتكوّرات ذلك الجسم حين راح الرهبان ينزعون عنه أسمال لباس الرجال ليضعوا الجثمان في الماء الساخن ويصبّونها بلطف تجهيزاً لمثاها الأخير ضربني الشيطان فنتر جسمي نترّة قويّة دافعاً بمائه كلّ من عضوي الدّنس، وإذ صرختُ من لذّتي الآثمة التي كادت ترميني في الإغماء، راح الإخوة الرهبان يرفعون الدعاء إلى الربّ أن يكسر قوّة الشيطان. ولما أدركت أنّهم فهموا ما جرى لي أجهشت بالبكاء المرّ، خجلاً وقهراً وطلباً لمغفرة الربّ.

بعد أن قام إخوتي الرهبان إلى غرفهم ولم يبقَ معي سوى خي لبا وخي أفتموس الإنطاكي توقّعتُ أن يوبّخني الأخير ويأمرني بفرض صلاة قد يدوم أياماً لكنّي حين نظرتُ إلى وجهه بانّت

الدموع تغطّي وجهه رغم إنزاله أسكيمه إلى عينيه. ثم، لمّا لم يتحرّك في ركعته، أخذني خي لبا با معه، رافعاً إيّاي بقوة من إبّطي، ودافعاً إيّاي برفق إلى ممشى الغرف هل أنت خائف؟ لا تخف قال لي. الآن ستغتسل بالماء البارد وتصلّي كثيراً ولّمّا عدتُ إلى البكاء قال خي لبا با كفت عن البكاء، ألسّت رجلاً؟! هذا يحصل معنا جميعاً، يجربنا الربّ في أجسامنا، ويعاركنا الشيطان، لكننا نعاركه، وهذا ليس خطيئة مميتة إذ جعل لنا يسوع الصلاة حبلاً نتمسك به لنترفع عن هوّة الجحيم. قلت له: إنّي سأفعل ما يأمرني به، وسأنتظر القصاص القاسي من خي أفتيموس، فقال: دعّ خي أفتيموس وشأته. فهو، عذابه مرير وصلبُهُ غير صليّنا شيطانه قويّ جبّار مخاتل وخدّاع ويتراءى له على غير ما يتراءى لنا ففي حين يظهر شيطاننا في هيئات البنات وأجسام النساء يحلّ شيطان خي أفتيموس في هيئات وأجسام الصبيان والفتيان. وبأمر الربّ ولخطاياها الكثيرة فإنّ كفّارته عظيمة إذ وضعه يسوع في تجربةٍ دائمة فأحاطه بالصبيان والفتيان، يقوم ويقعد بينهم. صليبه عظيم، خي أفتيموس، إذ يضيف أحياناً إلى تجربته الدائمة واليوميّة منزلقاتٍ كمثّل حكاية مارينوس هذا المساء. خي أفتيموس يبكي كثيراً لكنّه، هذا المساء، لم يبك كمثّل بكائك أنت. هل تفهم؟ على أيّ حال صلّ من أجله ولا تقترب منه كثيراً حتى لا تقوّي الشيطان على إرادته. هكذا أقول لك. هل فهمت؟

ولا ترتل هذه الليلة.

فهمت جيّداً، وفي غرفتي، وبينما أنا أغتسل بالمياه الباردة

وأصلي رحْتُ أفكّر بأنّه ينبغي علينا ربّما أن نغطّي قليلاً جسد المصلوب كما نفعل في الفصح بالقماش الأبيض. لأنّ المصلوب عريان جدًّا

في الفجر التالي تغيّب خي أفتيموس عن الصلاة. وبعد أن بحثنا عنه وجدناه في المغارة الضيقة. داخل الدير مغارة صغيرة حشر البطريك يعقوب عوّاد الحصري جسمه فيها، هربًا من مُضطهديه، منذ قرنين أو أكثر وحيث، رغم بقاء جسم البطريك بائنًا لصغر المغارة إلّا أنّ الأعداء لم يروا شيئًا فصارت المغارة عجائبية لكننا نحن رأينا عجيذة خي أفتيموس الإنطاكي عالقة خارج فم المغارة، ورحنا نرجوه بحرارة وإلحاح أن يخرج إلينا ليرأس القدّاس ففهم، لا بدّ، أنّه لم يختفِ عن الأعين وأنّ المعجزة لم تحصل، فخرج.

أسرعنا في لَمّ مفارش القديد والنقوع عن سطيحات وصيران
جوار الدير، لنشارك في قدّاس وجنّاز النائب البيك الشابّ، الذائع
الصيت في البلاد كلّها لبراعته في الخطابة، ولجماله خصوصًا،
والذي انقصف كوردة في ريعان ربيعها

كلّ أجراس الأديرة فُرعت حزنًا، ولَمّا صارت طريق ديرنا أقلّ
وعورةً ذهبنا جميعًا للمشاركة في الجنّاز. فبغضّ النظر عن المناسبة
المفجعة، كانت رسالة المجمع المسكوني عن ضرورة اتّحاد
الكنائس تقضي أن نجتمع دائمًا ونصليّ مع الجميع. هذا لا يعني
أنّ كنيستنا منقسمة أو أنّ المواردنة فريقان. لكنّ قداسته، من
القائتيكان، أرسل يقول إنّ أخبارًا وصلته من عندنا ومن عند غيرنا
لم تعجبه كثيرًا. وكان خي تادروس البزعوني والذي يعرف
الكثير، إذ من بلده تخرّج أساتذة عظام من مدرستنا في روما، كان
روى عن أقرباء له حوارنة أنّ في بلدنا فروعًا لرهبناتٍ تتصرّف على
هواها وتبتعد أحيانًا عن المسيح وكنيسته، ومن هؤلاء مبشّرون لم
يلتزموا تعاليم الكرازة الكنسيّة، وارتكبوا الخطايا في بلاد السود

الإفريقيّة حيث، مثلاً، نصّروا أحد ملوك تلك البلاد فراح هذا الملك يختبر بالدنس العذراوات الطاهرات علّه يجد عذراء مريم وطنيّة. لكنّ البنات رحن يلدن أطفالاً مخلّطين، ليسوا بيضاً بالكامل مثل يسوع، ولا هم سود تماماً كأمهاتهم، كدليل على عدم أهليّة الأمّهات للعذريّة المقدّسة حتى انتبه ذلك الملك الأسود إلى أنّ الرهبان - البرتغاليّين - هم وحدهم البيض في مملكته فقتلهم جميعاً وارتدّ عن دين المسيح وهؤلاء الرهبان فتحوا فرعاً عندنا

وروى لنا خي تادروس البزغوني أشياء وأخباراً أخرى من هذا النوع وممّا يحدث في مدرسة روما وحذرنا من أنّ غضب البابا كبير، وعلينا أن ننتبه كثيراً ونصلّي كثيراً ونتبع توصيات المجمع المسكوني بحذافيرها

سرنا وراء جثمان النائب البيك إلى كنائس عديدة توقّف الموكب فيها كان علينا أن نُداري جميع العائلات التي طلبت إنزال الجثمان على مذابح كنائسها حتى لا نخلق حساسيّات، خاصّة أنّ السلاح كان كثيراً بأيدي الناس كذلك أنزلنا التابوت في القرى الصغيرة التي أرادت أن تبرهن عن أهمّيّتها وعن قدرتها على استقبال الجموع بما يليق بالقرية، فلا تفوتها مناسبة مهمّة كهذه في حسابات لاحقة.

ثم نزلنا بالجثمان إلى دير مار أليشاع قبل أن نعود ونحمله صعوداً إلى الطريق، ثم، ودائمًا سيرًا على الأقدام، إلى مقرّ البطريك في الديمان.

كاد الليل أن يقع قبل أن نواري الرجل في قبره. وهبطت

الضبابة من السماء فلم نعد نرى شيئاً وزادت من كثافتها أدخنة
كمّيات البخور الهائلة الطالعة من كلّ مكان، ثم تلك المنبعثة من
فوهات البنادق الكثيرة التي أطلقت بارودها في الجوّ

صرت أترنح من التعب والجوع ومن تنشق الأدخنة. اقترب
مني خي لآبا وقال: اصبر صرنا في الآخر فكّر بشرائح
الخنزير التي سأشويها الليلة.

آه. تلك الشرائح.

يعلّق خي لآبا الخنزير في الخطافة ولا يقبل بمساعدة أحد إلّا
في تنظيف الأمعاء والكرشة. يُشير للإخوة المساعدين بسكّينه أن
يحملوا ما دلّقه في الطشت الكبير إلى العين ثم يروح ينظر على
مهله إلى الذبيحة ويدور حولها كأنّه مهندس أو طبيب أمام مهمّة
دقيقة. وحين يقرب الخابية من الطاولة الخشبيّة العامرة بقناني النيذ
والبهارات والملح الخشن يبدأ عمليّة التشريح يسيل لعاب الإخوة
لكنّهم يكتفون بطرد الذباب ولا يجرؤ أحد على التلّفظ بكلمة حتى
لا يفسد مزاج خي لآبا تنزل الشرحات الرقيقة المملّحة جيّداً في
صحن البهار ثم تغطس في النيذ الذي ينبغي أن يغمرها جيّداً في
الخابية، وألّا يترك في ما بينها فقاعة هواء ولو صغيرة. وفي النيذ
ينضج لحم الخنزير من نفسه، وحين يُشوى على صفيح الصوبيا
الساخن لا يستغرق ذلك إلّا لحظات.

ولأنّنا تأخّرنا في الجتاز سيقول خي لآبا إنّهُ لا وقت لديه
لتحضير العشاء فيقوم بشيّ شرحات الخنزير على عجل، وإذ ذاك
لن يخالفه أحد..

في طريق عودتنا إلى الدير، وحين كنّا نجتاز ساحة الحارة التحتا على الطريق العامّ والتي كانت ما زالت مليئة بالناس، خطر لي أن يكون إخواني هناك، بينهم، ينظرون إليّ وقد تعرّفوا على هيئتي رغم إنزالي أسكيمي على وجهي وإطراقي في الأرض. رحت أرفع صوتي بالصلاة حتى لا أسمع نداء سلمى التي كنت أكاد أسمع صوتها أقول يا رب لا تمتحنّي بسلمى.

لم أسمع صوت أختي تناديني لكنّ أنا سأ تعرّفوا عليّ لا أدري كيف. راحوا يقولون هذا الراهب. هذا هذا هو ابن المزوّق الذي ترهبين يريد أن يصبح قديسًا كجدّه. هذا ابن المزوّق الذي تسمع السماء صلاته فتفتح أبوابها لصوته الجميل. حتى إنّ بعضهم تبعوني على الطريق. خي أنطونيوس. خي أنطونيوس برحمة جدك غن لنا، رتل، قل أيّ شيء صحيح أنّ البطريرك يريدك إلى جانبه، في الدير، وفي بكركي؟ لم أرفع رأسي ولم ألتفت. رحت أحاول التعرف على من يناديني من صوته فلم أفلح لكنّ هؤلاء الذين لحقوا بي على الطريق خففوا عني التوتّر والقلق الكبيرين اللذين تسرّبا إلى روحي من هذا النهار الطويل.

إذ رغم الفاجعة والحزن والبكاء، كان عويل النساء واضطراب أجساد الرجال، خصوصًا حاملتي البواريد، يشعرني بقرب وقوع حادث جلل أو سقوط ما يشبه غضب السماء على جبلنا الذي بدا فاتحًا ذراعيه، مكشوفًا، ذرّي ووديانًا، للعنات الداهمة النازلة من عند الربّ. هكذا أسر لي قلبي متوجّسًا وأنا أتلو فعل الندامة وصلاة الرجاء لقلب يسوع. ذلك ربّما لأنّ خي لا با لم يكفّ عن الطلب إلى الربّ أن ينتهي الجنّاز على خير.

رغم التعب الكبير الذي استحال أُلماً يحز مفاصلي وينخر عظامي، لم أنم تلك الليلة. عدت إلى إضاءة شمعتي مراراً أقرأ في إشبتي لكنّ خوفي هذا لم يذهب عني

ثم سمعت حركةً في الخارج، ووقع أقدام خفيفاً، وكلاماً لم أفهم منه شيئاً لكنه قطعاً ليس تسابيح أو صلاة لأحد الإخوة. ثم إنّ الفجر لا يزال بعيداً وانتظرت أن أسمع طرقاً على الباب الكبير فيكون الطارق طالباً معونة خي صفرونيوس الحدشيتي البارع في تجبير الكسور وكَيّ الدمامل وقلع الأضراس، والذي يقصده الموجودون ولو في الليل لكنني لم أسمع طرقاً على بابنا فتحت باب غرفتي على مهل ومددت رأسي إلى الرواق فلم أجد أحداً ولم أرَ باباً مفتوحاً

صباح اليوم التالي، بعد القدّاس، ذهبت إلى خي لآبا وأخبرته ما سمعت أو ما تهيأ لي سماعه فنجر خي لآبا عينيه وراح يكرّر أسئلته وكأنّ الشأن عظيم وحقيقي وليس من تهيوّاتي. صار يسألني في تفاصيل دقيقة مثل. كم تعتقد عدد الأقدام التي سمعت وقع خطاها، وفي أيّ جهةٍ تحديداً من محيط الدير سمعت الأصوات، وكم تعتقد كانت الساعة من الليل وهل. وأنا لا أستطيع الإجابة بشكل مفيد.

ثم هز رأسه مرّات عديدة إلى أن قال أنا سأعرف. سأتحرّى جيّداً عن الأمر لا تقل شيئاً لأحد. أنا أشكّ في أمر يحصل مؤخراً في الخفاء. ليس في الخفاء عن الجميع طبعاً أنا سأعرف.. ويا ربّ كذب شكوكي إن كانوا يخبثون أسلحة في

الدير سأذهب ليس إلى الدير، بل إلى بكركي نفسها إلى بكركي.

وسرى.

لكنّ خي أنطونيوس لم ير شيئاً، ولم يعرف شيئاً عن لغز تلك الليلة، ولا عن تحرّيات خي لآبا الحصريون وما أدّت إليه، ذلك أنّه بعد أسابيع قليلة هرب من الدير

في تلك الأسابيع القليلة طلب خي لآبا الحصريون مرّاتٍ عديدة، ومن وراء الباب، السماح له بالذهاب لزيارة أهله في الضيعة، ليمشح أمّه في نزعها الأخير وقبل أن تسلم الروح، مردّداً أنّه نذر نذره للعذراء أمّ المسكونة لكنّ خي أفتموس لم يردّ عليه كان انقطع في خلوة وجد الرهبان أنّها طالت، فراحوا بين الفينة والفينة يُحدثون أصواتاً ويسعلون سعلاً خفياً أمام بابه، وكان إمّا لا يردّ عليهم وإمّا يرفع صوته بالصلاة، طارداً إيّاهم من أمام بابه، ومُطمئناً من يدعي منهم أنّه هناك مدفوع بالقلق على حاله

وحال الأخ أفتموس كانت تدعو فعلاً للقلق، إذ قبل خلوته هذه ازداد شحوبٌ وجهه كثيراً، وهزل جسمه لقلّة أكله وندرة نومه إذ كانت شمعة غرفته تبقى مُضاءة أحياناً حتى الفجر، يرى الرهبان نورها من تحت الباب وهم يمرّون تباعاً في الممشى إلى الصلاة. حتى إنّهم، وقبل أن يذهب إلى خلوته، ما عادوا يرون وجهه إذ أخفاه تحت أسكيمه الذي لا يرفعه بالمرّة. وكان إلى ذلك يبالغ في قهر نفسه خارج التواريخ التي تستدعي ذلك، وكثيراً ما وجده الرهبان في الكنيسة ممدّداً على وجهه بشكل صليب، عاري الساقين

والذراعين وقد جعل على جسمه ثوبه البراني فقط . وحين يروحون إلى الصلاة بقربه دعماً لصلاته واستئذاناً منهم بالتدخل يستسلم لأذرتهم الكثيرة ترفعه عن الأرض وتجرّه إلى غرفة الموقد وتروح أيديهم تفرك أطرافه الباردة والمتخشّبة وهو يئنّ أنين المريض الموجوع .

وخلوة الأخ أفتموس وقعت هذه المرّة في وقتٍ غير ملائم ، إذ كان الدير في بلبلة سرّية وتوتر الرؤوس تتقارب في وشوشات ممنوعة وفي غير أوقاتها ، وهي لا تدور فقط حول حال خي أفتموس ومن قبيل التشاور ، إذ إنّها تسلك آذان البعض وتنقطع لدى اقتراب البعض الآخر . وخلال كلّ ذلك كان خي لابا ومعه خي جريس ينسحبان في حرّين مرير إلى المطبخ ، فيما يبدو خي كيريللوس ، أحد الرهبان الجدد ، الأقرب إلى فرض الهيبة والكلمة ، كلّ يوم أكثر من اليوم السابق .

لأوّل وهلة اعتقد الرهبان النيام أنّ الأصوات التي اقتلعتهم من أسرّتهم دفعاً هي عواء ذئاب تتقاتل في لحف الدير . كان يجب أن يُنصتوا جيّداً ليتبينوا مصدر هذه الأصوات الحيوانية الفظيعة والتي اقشعرت لها أبدانهم . وحين التقوا في الممشى وجدوا خي كيريللوس أمام باب غرفة خي أفتموس وهي الأخيرة ، فسارعوا وتحلّقوا حوله .

الأصوات المرعبة جعلتهم يتردّدون في فتح الباب . خافوا ركض خي المبارك ميما إلى الكنيسة وعاد بصلاة مار قزحياً للمسكونين بالأرواح الشرّيرة والشياطين ، وبدأ القراءة بصوت عالٍ

ما لبث أن راح يرفعه أكثر فأكثر لطرده الأبالسة، ولدفع الهلع أيضًا لكنّ الأصوات من داخل الغرفة كانت تقوى وتشتدّ، فرفع خي كيريللوس يده لإبعاد الرهبان إلى الخلف إذ قرّر أن يفتح الباب. لم يمثل أحد. وحين دخلوا جميعًا الغرفة وراء كيريللوس وجدوا خي أفتموس الإنطاكي غارقًا في دمه، يتخبّط على الأرض بقوة الثور المذبوح، وحين اقتربوا بشموعهم رأوا عضوه غير بعيد عن السكين الكبيرة التي كان ما زال يقبض عليها بقوة الجحيم، ضاربًا بطنه وطاعنًا نبع الدم الفوّار بين فخذه.

في دغش الفجر اقترب وكيل السقاية من طنّوس حتى تعرّف عليه وجده واقفًا في ماء الساقية، رافعًا ذراعيه إلى السماء يرتجف بردًا راح يقول له يا خي أنطونيوس أنت تقف في مكسر الثلج. واليوم - لا تؤاخذني - اليوم ليس دوركم في الريّ. حتى أدرك أنّ ليس في يد الراهب أو قربه لا معول ولا معدور، ثم رأى أنّه حافي القدمين ولا يردّ على الكلام ولا يبدو حتى أنّه يسمع الكلام. ثم إنّ صلاة خي أنطونيوس لم تكن صلاة الفجر ولا ترتيلة السقاية. كانت تساعيّة الميلاد، والفصل بات أقرب إلى الربيع. توجّس الوكيل بقوة حين سمعه يردّد، مرّة بالسرياني ومرّة بالعربي

شوبحا لهوقلا داهوا غوشما

شماعوي أف إدنا حزايب عينا

هدّما ورعشا هب توديتو

ثم بالعربي

المجد للكلمة المتجسد كلمة العليّ المتأنس سمعته الآذان رأته
الأعين لمستته الأيدي تناوله الفم

أيتها الأعضاء والحواس اشكري من جاء فأحيا كلّ ذي جسد
حملته مريم طفلاً ساكتاً والألسنة كلّها فيه احتجبت .

رغم اقتناع الوكيل بأنّ الراهب في وضع غير عادي إلا أنّه راح
ينصت إلى صلواته؛ إذ ربّما هم في فترة الصمت والإماتة، ويريدُ
الراهب من صلواته أن يقول له شيئاً أن يوصل إلى أذنيه رسالة
ذات معنى ما

ثم قرّر الرجل أن يُعيده إلى الدير، لكنّ الراهب رفض بقوة،
وراح يسير في الصيران بالاتّجاه المعاكس تركه الوكيل وذهب
فأحضر بغلته، ومن دون مقاومة من الراهب رفعه فوق ظهرها ثم
نادى ابنه وأوصاه أن يذهب به إلى الضيعة وأن يتركه عند خوري
مار سابا أو مار مخايل في حارة التحتا؛ إذ إنّ الأخ أنطونيوس من
المزوّقيّة، ومن الواضح أنّه لا يريد العودة إلى الدير، كما أنّه من
الواضح أنّ به شيئاً، فليصطفل به خوري رعيّته أو أهله .

حملة إلينا الخوري الشاب المرسوم حديثًا وقال لنا لا تلحوا، فهو لا يريد الآن الكلام؟ اصبروا عليه وأنا سأعود لزيارته. ولأن لا أحد يردّ على الخوري الجديد، لأنه شابّ وجديد، لم نتوقّف عن ترداد أسئلتنا فوق رأسه، نحن إخوته، وأيضا أعمامه والعائلة، ثم أهل الحارة، ثم أناس زارونا هكذا ونحن لم نرهم من قبل. حتى قررنا أن نقفل بابنا علينا، علّه يقول شيئًا لنا ونحن معه لوحدنا في البيت.

لكنّه لم يتكلّم، لا نفع إلحاحنا ولا رقيات سيّدة، امرأة عمّي، التي أكّدت مرارًا أنّها عين شريرة قويّة لدرجة أنّها دخلت الدير وأصابته هناك، في جماله وقداسته، وأنّها قويّة جدًا بسبب أنّها بائنة عليه منذ زمن. كان يركن بألفة إلى الخوري الشابّ لكن هو أيضا لم يكلمه طنّوس.

كنت متأكّدة أنّ أخي سويّ في رأسه، وليس مجنونًا أبدًا. أبقى إلى جانبه، أسهر بقربه ولا أتكلّم إذ هو لا يريد الكلام. وأتمتّع بالنظر إليه وقد كبر وصار رجلاً بهيّ الطلعة، جميلًا جدًا،

ويشبه أبي كثيراً وهو أحياناً ينظر إليّ ويبتسم أو . ينظر إليّ
وبيكي . إلى أن قال لي ذات مساء بعد أيام طويلة . يا سلمى
يسوع لم يأخذني إليه . إنه لا يحبني ، وأنا لم أستحق أن يدخل
قلبي . فرحتُ كثيراً وكدت أصرخ من فرحي وأكفر ، لكنني سكّثُ
علّه يستمرّ في الكلام . وبعد أيام ، وقد بدا لي أنّه توقّف عن
التمتمة بالصلاة ، قلت له ماذا نعرف نحن مساكين القلوب عن
إرادة الربّ؟ لعلّ يسوع هو من ردّك إلينا لعلّ يسوع أشفق عليّ في
حاجتي إليك ، إلى رجل البيت ، وسابا أخوك كما تعلم . أعني
كما تعلم وأكثر ، بين المرض وضعف العقل والسياسة

ثم ، بعد أيام ، رحت أروي له أشياء حدثت في غيابه ، وأختار
منها الأخبار الطريفة أو تلك التي أعرف أنّها تسلّيه أو تضحكه .
ربّما

أقول له هل تعلم أنّ عمّك الكبير أتانا ذات يوم ومعه عريس
لي . هكذا أتى ومعه واحد من الذين هاجروا إلى الأرجنتين ، يريد
أن يتزوّج ويعود إلى الأرجنتين . منظره يقطع شهية الجوعان عن
الرغيف السخن رأسه ، وحياة العذراء مريم ، رأسه مبعوج من
فوق قال لي عمّي في المطبخ رآك الرجل في الساحة وأعجب
بك كثيراً وهو مقتدر هناك ، عنده بيت ملك وموظّف في معمل
كبير والرجل لا يعيبه شكله وأنّ كبرت يا سلمى . هكذا قال
عمّك الكبير ، والزلمة يتنحّح ويسعل مثل القرد . قلت لعمّك : يا
عمّي أنا لا أكسر لك كلمة لكنني لا أحبّ الأرجنتين . ثم أنا
مسؤولة ، برقبتي عائلة وقصّار ولما بدأ عمّك يغضب قلت له .

زوجه بنتاً غيري من بنات العائلة، إنهن كثيرات، ثم هذا الرجل لا أحد يتزوجه لأنه بشع جداً أنا سأتكلم مع سابا، قال عمك وهو يخرج غاضباً مصطحباً القرد معه كدت أقول له إن سابا لو تكلم في هذا الموضوع فسوف أضربه. لكنني لم أقل شيئاً

ثم رحت أضحك، ووطنوس يضحك أيضاً، قليلاً

ثم قلت له، أنت لم تسأل عن بطريسة. فجأة قال: أين بطريسة؟ فرحت أروي له بحماس عن ذكاء بطريسة، وكيف أن الرهبان الطليان يتحدثون عن شطارته في المدرسة أتعرف؟ بطريسة قد يصبح مثل جبران ويمكن أذكى منه. أتعرف؟ أخذ عمك فريد بطريسة إلى طرابلس، كما أشار علينا الرهبان. أخذه إلى مدرسة اسمها المهنية، تُعلم الأولاد أشغالاً مهمة ومفيدة. عمك الكبير قال: ما لزوم طرابلس، ضعوه في دكان ابن الطحان يتعلم منه الحدادة. لكنني أقنعت عمك فريد بأخذه إلى مدرسة طرابلس بعد سنة أو اثنتين ربّما سيعود بطريسة إلى البيت وسوف ترى كيف سيكون أفندياً حقيقياً لكن، أتعرف؟ القصة الحقيقية

هي قصة عمك فريد الذي عاد ملطوشاً في رأسه من رؤية البحر يا بيبى كم هو كبير وكله ماء وأزرق. يا بيبى الذي لم ير البحر لم ير شيئاً، كبيبير، له أول وليس له آخر هكذا كبير، ويروح حتى أميركا، في المقلب الثاني. نسأله عن بطريسة إن كان بكى حين تركه في المدرسة أو إن طلبت المدرسة أشياء نرسلها له من هنا فيجيب عمك بكلام عن البحر، وعن طرابلس كيف هي بلاد عمران، وأن الإسلام فيها يلبسون الزي الإفرنجي بخلاف إسلام

بلاد بعلبك الذين تشبه ثيابهم ثيابنا و . و . حتى صرنا ننهره
ونقول: يا عمّي فريد جرّصتنا كلّ الناس نزلت إلى طرابلس
ولبس الإفرنجي صار دارجاً عندنا أيضاً جرّصتنا اذهب إلى
عند ابن بو سنّ وهو يفصل لك طقمًا إفرنجيًا فيزعل ويتركنا وهو
يردّد. لا تفهمون شيئًا ممّا أقول.

وحين ضحك طنّوس صراحةً، وكنا في حقلة بنحلي،
استجمعتُ شجاعتي وقلت له: أتعرف. الصار العالي يا خو
الصار العالي اشتراه عمّك، فانتفض وقال: أيش؟! قلت له وقّعت
له على ورقة، ووقّع عنك سابا، والبنات. ماذا كان بإمكانني أن
أفعل حتى مع الفعالة النصيريّة لم أكن قادرة على الأرض
أعطاني عمّك مالاً وقال كلّ موسم لكم حصّة، أنا لا أنسى أولاد
أخي اليتامى أتعرف. عمّك صار غنيًا ويشتري أراضي سمعت
في الحارة أنّه سبيني في الأرز أوتيلًا كبيرًا وحياة سيّدة بشوات لا
أحد يعرف كيف. واشتري أيضا أرضا في الحدث، في حدث
الجبّة، لم أصدّق. ماذا يأخذه إلى هناك، في الحدث؟! وقالوا
أيضًا إنّهُ نزل إلى بيروت يريد شراء قطعة هناك، قبالة البحر، في
الروشة يقولون، وسبيني عليها أوتيلًا الناس تبالغ كثيرًا وأنا لا
أصدّق. لكن هكذا يقولون. أتعرف؟ مدّوا كهرباء إلى بيته، مثل
الزعماء رأيت خليل ابن عمّك فريد في الساحة فقال لي عمّك
الكبير صار عنده كهرباء وهو سيعمّر طابقين فوق بيته، ذلك الذي
بينه خارج الضيعة، إذ هو سيترك بيته الذي في الحارة قريبًا هل
تصدّق؟ وعمّك يوسف الكبير يرافقه رجل داهية لا يتركه وهو الذي
يدبّر له كلّ شيء. فمه أكبر من رأسه وكلّما عزم عمّك ناسًا إلى

غداء أو عشاء يروح هذا الرجل يُلقي أشعارًا وخطبًا ذلك أنه محام، يقولون، وهو قريب المونسنيور، ابن أخته، يقولون. لا أحد يفهم شيئًا من ألغازه وخطبه الطويلة، لكنّ الناس تصفّق ولأنّها لا تفهم تقول كم هو فهمان، الأستاذ. فيلسوف كبير

لا تغضب يا طنّوس. أتعرف؟ بالمصاري كان عليّ أيضًا أن أشتري جهازًا لنبيهة. رأيت كيف كبرت، كيف صارت صبيّة، وحلوة؟ هل تدري أنّ اللقّاية وطالبي الزواج صاروا يأتون إلى السهرة عندنا؟! حين يروق مزاجك وتحبّ الكلام والسهر مع الناس سوف يأتون، ستري سيعودون، وستكون الكلمة لك في من نستقبل ونختار وفي كلّ ما نفعل

يا خو لا تدع الناس يقولون إنّك أخوت أخواتك البنات لن يتزوّجن ولن يدخل بيتنا أحد. سيكون أبوك مقهورًا في تربته. لا تترك نفسك هكذا ابن آدم يجب أن ينسى وألا يُبقي في قلبه إلاّ إيمانه بيسوع صلّ، في البيت، أمام نور العذراء وهي تهدينا، انس الدير، يسوع يحبّك، أينما تطلبوني تجدوني، هو هكذا قال لنا وأنا، طنّوس، ماذا أفعل من دونك يا خو؟

حلق طنّوس لحيته الطويلة وأبقى على شاربيه كثيرين ومعقوفين قليلاً قال لسلمي منيح هيك؟ فأخذت تزغرد وتبكي فرحًا لفتّ مشلح أبيه على كتفيه وخرج إلى الساحة

من يكون هذا الأ . ر ليتقدّم لأختي؟ يصرخ سابا قافزًا في الهواء بقوة كرقاص صغير . وحين يرى أنه لا يخيف أحدًا، وأنّ صابات وإميلين تضحكان في عبّهما ساخرتين من مرجلاته الكثيرة، يروح يهدّد بأنّه سيكسر رأس ابن الحاوي لو رآه عندنا لأنّ لا شيء يتمّ دون إرادته في هذا البيت .

أمرك يا خو، تروح سلمى تردّد أمرك يا خو لا تريد سلمى لأخيها الكبير أن يفقد القليل المتبقي من هيئته . لكنّ مجرد تصوّر سابا هاجمًا على ابن الحاوي يجعل الواحد يشخ على نفسه من الضحك . فابن الحاوي يزن وزنيّ سابا، وهو بهامته الطويلة وحاجبيه الكثين أحلى من القمر، قبضاي ومهذب متعلّم يقرأ ويكتب ويعرف الحساب، وفقره إذن لا يعيبه . ثم هو ابن أصل، فجدّه لأبيه لُقّب بقلب السبع، إذ هو الوحيد بين الرجال الذي جرؤ على الدخول إلى مغارة قاديشا ربط جسمه بالحبال وأضاء شمعةً رسم إشارة الصليب وقال لمن معه: لا تخافوا ومن الفتحة الصغيرة تدلّي ونزل حتى آخر الكهف . غاب أكثر من ساعتين لكنّه

كان بين حين وآخر يرفع صوته ليعرف من في الخارج أنه بخير، فيردّون أو يشدّون الحبل استلامًا للإشارة. وحين خرج من المغارة راح يخبر الناس بما رآه من عجائب الدنيا، واضعًا يده على الإنجيل المقدّس.

هكذا وصل الخبر إلى كبار القوم فأتت شركة كبيرة ووسّعت فم المغارة وحفرت إليها طريقًا في الصخر، وصارت مغارة قاديشا من عجائب الدنيا، يتفرّج عليها الناس من كلّ البلدان. فأقام الزعماء المآدب وألقيت الخطب والأشعار التي حُفرت على صفحات تاريخ جبلنا الأشمّ، والجميع يعرف ذلك.

وهو، نجيب، فوق كلّ ذلك أجمل من القمر ونحبّه جميعنا ما عدا سابا الذي، كرمى لكلمته قالت سلمى للعريس: أنت تعرف معزّتك عندنا يا نجيب لكن أمهلنا يومين أو ثلاثة من أجل سابا، فتوقّف عن المجيء وعن السهر عند نبيهة رغم دعوات طنّوس إلى أن راحت سلمى تصرخ على سطيحة البيت ذات ليلة وقد ازرقّ وجه سابا وخرجت عيناه من وجهه، وكاد يختنق من سعاله وطنّوس في بيت الحقلة، فركض نجيب الحاوي وحمله كالولد الصغير وطلع به صعودًا، إلى أعلى من حارة الفوقا إذ كان الحكيم يولّد امرأة من المعازة في الجرد. بعد ذلك صار سابا يخجل من نجيب، وهو، وإن استمر لا يحبّه إلّا أنّه صار يغضّ الطرف ويقول: افعلوا ما تريدون. لا تسألوني عن شيء. وهل لي كلمة أنا في هذا البيت؟ ويكتفي بذلك. وحين زارتنا أمّ نجيب وعمّه الكبير للكلام الرسمي عن نبيهة بدا جليًا أنّ سابا ليس سعيدًا لكنّه لم يقل شيئًا. . واكتفى

حين خرجا من البيت - بأن قال لنبيهة: مبروك. هل أحد في العالم اسم أمّه أورتانسيا؟ ما معنى أورتانسيا أصلاً؟ أورتانسيا مثل أسماء الأجانب! من يظنون أنفسهم؟ أورتانسيا، قال. وبقي الأمر عند هذا الحدّ.

كوت نبيهة شعرها الكثيف، نتفوا لها حاجبيها وشعر ساقها المبرومتين الملفوفتين كأنّ بالحري الأبيض اللّماع كانت كلّ يوم من أيام الاستعدادات للعرس تبدو أجمل لشدة ما هي مغرومة وسعيدة. لكنّها كانت محرّجة قليلاً وتجد أنّ سلمى وطّوس يبالغان كثيراً في المصاريف. حتى إنّ طّوس سألت سلمى إن كان بالإمكان، ولو من قبيل الافتراض بالمطلق، أن يقوم المطران بمراسم صلاة العرس ضحكت سلمى وأجابت: المطران يا خو؟ المطران؟ بدك إسا نبيع أرض؟ فأدرك طّوس كم أنّه يبالغ فقال. ذلك أنّ هذا الخوري الجديد يقولون إنّه غير لائق، وغير مُتّنع ولا هيبه لكلامه. لا يفرض احتراماً حقيقياً قالت سلمى لا تقل هذا، وانس الناس. فسلمى تعرف أنّ مبالغات أخيها ليست إلّا كيداً من عمّها يوسف الكبير، الذي بات طّوس يكرهه كرهاً واضحاً وعلنياً وأكثر من كرهه عمّه يكره ابنه حتّى، وحيد أمّه سيّدة، التي يقول طّوس إنّها صارت تعمل شعرها شينور

ولتطرّي الأجواء تروح سلمى تعدّد أصناف الأكل والطبخ التي ستنزّل على الموائد، ومن سيّطبخ ماذا، من الخالات القريبات والعمّات، ومن الجارات وبنات العمّ المحبوبات، بنات فريد ورزق طبعا... ثم تتساءل مَنْ مِنْ بنات الحارة حصلت على جهاز

كجهاز نبيهة، حتى تبكي نبيهة وتقول لأختها من جديد: لماذا أعطيتني كلّ جهاز أمّي؟ لماذا؟ وأنتِ؟ والبنتان؟ لماذا يا سلمى؟ ألا تريدين الزواج؟ لا أريد جهاز أمّي هكذا كلّه. فتجيبها سلمى ضاحكةً بأنّ بيتك يا نبيهة على بعد أمتار، وسنستعيد الجهاز سرّاً إلى البيت ثم نخرجه أمام العريس الجديد حين يأتي لإحدانا لكنّ نبيهة لا تضحك إذ هي تعرف أنّ الناس ترى وتحفظ كلّ قطعة في جهازها، ويستحيل إعادة إخراجها في جهاز آخر ثم تقول سلمى وهي تنظر بطرف عينها إلى طنّوس. وفي العرس ستكون حلا ابنة عمّي رزق أحلى البنات وستضيء مثل الشمس، فقد أرثني الفستان الذي سترتديه. قمر حلا، وستقدّم لها بعد العرس مئة عريس، فمن يريدّها يجب أن يُسرّع، ستنخطف خطفًا، حلا، مثل لقمة البقلاوة.

سيكون أحلى عرس. يا ربّ لا تسمح بما يكدره.

بدأ الناس ينسحبون إلى الخلف بصمت، وجوههم إلى المذبح، يرسمون إشارة الصليب ويخرجون. لاحظ الخوري الحركة المريبة لكنّه تابع مراسم العرس بشكلٍ عاديّ. قال في نفسه مشكل، بسيطة. لكنّه حين رأى الناس يخرجون راكضين، وجوههم إلى الباب صراحةً، ثم سمع الأجراس، كلّ أجراس الضيعة، تدقّ، راح يُسرّع كثيراً ويبتلع نصف الكلام. بارك العروسين وخرج الجميع من الكنيسة والنساء يضربن على صدورهن

أيش في؟ يا عدرا دخلك أيش في؟

كان الرجال يتراكضون في الساحة وهم يرفعون بوايديهم، ثم امتلأ الشارع الرئيسي بالعربيّات والمراكيب من كلّ نوع، تتحرّك في مكانها كالزراقات الهائجة. صارت الكلمات تتطاير في الجوّ عشرين قتيل. بالتلّ. الزغرتاويّة. الهدانة. لا تحتاج الأذان إلى أكثر راحت النساء تولول وتضرب رؤوسها وتصرخ يا ويلييبي. يا ويلييبي. رحن يطرحن أغطية رؤوسهن أرضا ويتنفّسن

شعورهنّ. منهن من خلعن أرديتهنّ وأحذيتهنّ وصرن يركضن في
الساحة مولولات، حافيات وشبه عاريات، يا ويليسيي

وقف رجل في عرض الشارع يمنع السيّارات والمراكيب من
التقدّم. لا أحد يتحرّك، صار يقول بصوتٍ قويّ. لا أحد
يتحرّك. انتظروا فهم قادمون، أولادنا من بلاد بعلبك قادمون،
نروح إلى الحرب معهم. طرحنا الصوت هناك ودُقّت الأجراس
وهم قادمون، وصلوا إلى الشفق، من ظهر الجرد سيطلّون علينا
هذه المرّة لن يبقى منهم ابن امرأة. هذه المرّة لن نحرقها ولن نترك
شاهدًا، سنهدّها هدًا، مرّة أخيرة، وسنمحوهم عن بكرة أبيهم.

ولمّا امتلأت الساحة بالناس، ما عاد أحد يسمع أحدًا وسط
لعلّة الرصاص وصراخ النساء راحت سلمى تلتفت حولها باحثةً
عن رجالها فلم تجد أيّاً منهم. كانت أورتانسيا أمّ نجيب تحتضن
نبيهة المذهولة، تربّت على كتفها وتبكي قائلةً. يلا يا بنتي على
بيتك الله يحميهم وينصرهم، الله يردهم إلى بيوتهم منصورين.
يا عدراااa

ثم فرغت الساحة كأنّ بحركة كبيرة واحدة، إلّا من النساء
والأولاد. وبقي الخوري يردّد لوحده يا أبنائي، ولا يسمعه
أحد. حتى دخل إلى الكنيسة ورأسه في الأرض.

في البيت لحقت بنا البنات، وامرأة عمّي رزق، مسيحيّة، التي
نحبّها قالت، الآن واجب النساء هو الصلاة. يجب أن نصليّ لهم
لينصرهم الله على أولاد الشرموطة القحبة قتّالين القتلا الجبناء
الخوانين الطاعنين في الظهر الكافرين بالعدرا وبالربّ. أعداء

النصارى والربّ. لا أحد يبكي منكّن. أضرب كلّ واحدة تبكي عرسك هذا يا نبيهة سيذكره التاريخ يوماً من أيّام العرب المشهود لها لا أحد يبكي، من تبك ترم فألاً سيّئاً على الرجال؟ من تريد البكاء منكّن إمّا تصلّي وإمّا تزغرد للأبطال، أو أضربها هل رأيتنّ خزّون؟ من منكّن رأّت خزّون؟ أنا كنت هناك في الجموع جهة الحريم حين وصل البعلبكيّة. رأيت خزّون بعقالها وحطّتها وصفوف الخرطوش تملأ صدرها وحياء سيّدة بشوات هكذا تكون النساء. جزمتهّا تصل إلى الركبة، وبارودتان واحدة على ظهر الحصان وواحدة فوق كتفها نزلت عن فرسها وصارت تعطي أوامر للرجال، وقسمتهم فرقاً قبل أن تعتلي ظهر الشاحنة وهم وراءها هكذا كانت واقفة كالرمح صرخت عليهم يا عرب. عليهم فصرخ الرجال وراءها هوووو عليهم هوووو. وطرقت بقبضتها على السطح فوق رأس السائق فانطلق الكميون، والرجال يُحوربون وراء خزّون. إن كان بناديق الفرنساويّة قتلوا مئاة عشرين، وحدها خزّون ستعود بعشرين رأساً من رؤوسهم. وليس غدراً كما يفعلون دوماً، بل في المعركة. وليس على أرض غريبة، في التلّ، بطرابلس حيث يتجمّعون كالواويّة من بيوتهم القريبة في زغرّتا ليقتلوا أولادنا ويستفردوا بهم، بل بالمرجلة الحقيقيّة، بالهجوم عليهم في أرضهم وفي بيوتهم.

قالت نبيهة بصوتٍ رفيع والعسكر؟ ماذا يد. فردّت عليها مُسيحيّة صارخة: أيّ عسكر؟ أيّ عسكر؟ نحن نأخذ حقّنا بيدنا، وليجرؤ العسكر على الاقتراب. لا يجرؤون. لن تري عسكرياً واحداً قبل أن ننتهي ممّا علينا القيام به. يأتون مع البكوات في

تمثيلية الصلحة . هكذا، ثم يذهبون بعد أن يقولوا بضع كلمات عن الدية وما إلى ذلك. نحن ديتنا الدم بالدم، وهم يعرفون ذلك جيداً

في المساء أخذت أورتانسيا كنتها نبيهة معها إلى بيتهم. صلّت سلمى بخشوع أمام صورة العذراء ثم سكبت في كأسها الزيت لتبقى مضاعة. راحت سلمى تنظر بحيرة إلى كلّ هذا الطبخ هل تُعيد توزيعه على الحارة؟ لكنّ ذلك غير لائق بالمرّة في هذه الظروف، نوزّع الأكل كأننا في عرس أو في عيد والرجال مات منهم من مات. ولن تتأخّر التوابيت عن حمل الجثث إلى الضيعة. يا ربّي عشرون جثة، وهناك أيضاً جثث الذين سيموتون في الحرب الجديدة. يا يسوع لا تجرّبنا وأعد إلينا رجالنا سالمين. أقلّه رجال هذا البيت.

وراحت سلمى تفكّر نادمةً بمرارة كيف أنّها تركت سابا يذهب مع الرجال. كان باستطاعتها، لو أمسكت به بقوة وعناد، أن تكون حجّته في البقاء هنا كأن يقول إنّني خوتة وإنّي تعلّقت به ولم أتركه. لكن، في ظروف كهذه يُعيب الرجال كثيراً أن تمنعهم النساء من الذهاب إلى المعارك.

ارفع غضبك عنا يا ربّ. وطنّوس، يا ربّ طنّوس، دخل إجريك طنّوس، ردّه لي سالمًا

رغم انحسار عدد قتلائنا في التلّ من عشرين إلى أربعة إلا أنّ الجوّ بقي مسمومًا متوتّرًا بقوة. ذلك أنّ قتيّلين جديدين أُضيفا إلى الأربعة. ورغم أنّ الأخبار التي وصلت إلينا كانت كلّها تبشّر

بانتصارات مهولة، إلا أنّ التوابيت الستّة التي ظلّت مصفوفة في باحة الكنيسة والتي كانت أرواح أصحابها الطالبة الثأر تهوّم في الفضاء، كانت تعسّ في أعصاب الناس ورؤوسهم عسًا بطيئًا كاحتراق الكبريت الرطب. فأّمهات القتلى جلسن مكشوفات الرؤوس، نائحات فوق التوابيت، وهن لن يقبلن بدفن أولادهنّ قبل أن يكون عدد قتلى الأعداء فاق عدد شهدائنا، على أن نُحمل الخرق المبلّلة بدم الثأر لتوضع على أغطية التوابيت. إذ ذاك فقط سيوارون الثرى. فقط حين تسمع الشكالي عواء الشكالي

أتى خالي يطمئننا على الرجال قال إنّ المعركة انتهت وإنّا حقّقنا انتصاراتٍ أكثر ممّا طلبنا من العذراء مريم وقال إنّ رجالنا لن يعودوا جميعًا في الوقت نفسه، فالشكليات تقضي أن يبقى بعضهم قليلًا في الحبس، ذلك أنّ أبطالنا قتلوا الكثيرين من الأعداء، ومنهم زعماء وشخصيات، في زغرّتا وأطراف إهدن وحقالي مزيارة والخالديّة. وقال خالي إنّ الرجال طلبوا منه أن يعود قبلهم لأنّه وحيد أخواته، وقد أدّى قسطه للعلی. ولما رأى النساء والبنات كثيرات حوله يُنصتن بشغف، راح خالي يروي ويحكى ويسولف ويتبهور ويهوهر، كأنّه كان لوحده في المعركة. لولا ذلك لصدّقت سلمى كلّ كلمة قالها

هكذا يحصل حين يتعدّى أحد علينا هكذا، ننزل عليه كغضب الربّ. منذ مات نائبنا البيك قلنا لهم لا ترشّحوا أحدًا إلى الانتخابات فهذه الكرسي النيابيّة لنا ومن حقّنا لم يردّوا بل رشّحوا زعماء وذوي نفوذ، رشّحوا اثنين، وفاز واحد منهما

سيجلس في البرلمان مكان نائبنا هل هذا حكم الرب أم هو اعتداء صريح وتحذّر. مع هذا سكتنا وأرسلنا إليهم نقول لهم: أنتم تعلمون الآن ما ينتظركم. يومكم قريب إذ كنّا حذرناكم وقد أعذر من أنذر. يتابع خالي وسبّابته مرفوعة.

راح رجالهم يتمرجلون في ساحة التلّ، وكلّما رأوا أحدًا من شباننا يفاخرون بنائبهم الجديد وبكرسي البرلمان كأنّ هذا الكرسي عرش الملكوت وهم يعرفون أنّنا لن نسكت، وبمجرّد أن يردّ عليهم أحد منّا يهجمون عليه وقد تجمّعوا وحضّروا للمشكل هل تسمّي هؤلاء نصارى وموارنة؟

كلّ حياتنا، كلّ تاريخنا معهم على هذه الشاكلة، منذ قديم الأزمنة. إن كانت القضية قضية مطران أو بطرك أو نائب يقع المشكل. حدّ الله بيننا وبينهم، يجب أن يأتي بابا روما ويعمّر حائط حدود ويقول كلمته.

نحن منتصرون يا سلمى، ضيفينا نحن والبنات من حلو العرس، أين حلويات العرس؟ حين يعود الرجال يا خالي، قالت سلمى بوجه ناشف.

هكذا من أسس هذه القرية، ومن يحميها؟ مار سمعان العمودي يسمّونه كذلك لأنّه عاش على عمود، إماتة. وكنا في القديم نتقاسم معهم مياه نبع مار سرقيس حين تخفّ مياه نبعنا العالي في السفح الغربي لضهر القضيبي، والذي لم يكن اسمه آنذاك نبع مار سمعان. نتقاسم مياه مار سرقيس ونجرّها من بقوفا وذات يوم غار نبعنا تمامًا في الأرض فجفّ الزرع ونضب، وبدل

أن يزيدوا حصّتنا من الماء قطعوها تمامًا هذا لا يتذكرونه! المهمّ أنّ الوفود تقاطرت تبحث عن حلّ فأشار عليهم نصارى الموارنة القادمون من هناك، من سوريا، أن يذهبوا إلى برّية قورش على حدود أنطاكية حيث عمود القديس . وحين وصل الوفد إلى العمود عرف القديس بوحى إلهي ما يريدون فقال لهم: أساعدكم شرط أن يتحوّل من بقي منكم على الوثن إلى التنصّر ويتبع مار مارون . ثم تصومون ثمانية أيّام وتنادون بصيامكم في المدينة كما تنادى أهل نينوى يوم أنذرهم نبيهم يونان . ثم تأخذون سبعا من الحصى كعدد أسرار الكنيسة السبعة وترمون الحصى في اليوم الثامن في منبع الماء، فينفجر عن مائه الزلال . وحين لا ينضب نبعكم يوماً ترفعون صلباناً على كلّ أكمة .

- أكمة؟ قالت صابات .

- أكمة يعني رأس الجبل على كلّ أكمة تطلّ على الوادي . معنى الحديث أنّ مار سمعان أنقذنا منهم وطالما بقيت الصليبان مرفوعة لن تقوى علينا قوّة الجحيم بضمانة القديس العظيم . مهما فعلوا هذا هو التاريخ .

ولمّا شعر خالي أنّ البنات بدأن بالتململ، باعتبار أنّ الموضوع نفذ وأنّ الحكاية انتهت، ثم رأني أقف وأقول: طيّب يا خالي أنا عندي شغل في المطبخ، انتفض ورفع يده وكاد يصرخ بالجمهور: لا يا سلمى، لا لا طبخ ومطبخ أيش؟ اجلسي واسمعي التاريخ، تاريخ بلدك واستفيدي من أنّي اليوم فاضي الأشغال . هناك تاريخ لحروبنا معهم . ألا يقولون إنّنا بناديق

الإسلام إذ تحالف مقدّمونا مع المتصرّف التركي ضدّ زعيمهم يوسف بك كرم. لكن هذا المتصرّف هل كان مسلمًا؟ لا كان نصرانيًا وتركياً واسمه داوود، أتوا به بعد أن قتلنا الإسلام منذ حوالي مئة سنة. فكيف نكون بناديق المسلمين؟ هه؟ ولماذا اسمنا مقدّمون: يعني قدام، أمام، في الصفّ الأوّل، زعماء المنطقة. وهذا ما لا يروق لهم. لكن، نحن حين نقول إنهم بناديق الفرنساوية فذلك عن حقّ لأنّ هؤلاء يحركونهم كانوا مثلما يريدون. نحن ولو أحببنا الفرنساوية أحياناً عن مصلحة لكن لا يحكمنا إلّا الربّ من فوق، ولا نخاف أو نُقيم وزناً إلّا إلّا له. وللعذراء طبعاً ولماذا تقف العذراء في صفّنا وليس في صفهم وهم نصارى مثلنا؟ هذا سؤال مهمّ؟ أنا أروي لكم فقط حادثة واحدة، وهي معروفة، حادثة عين الغزال.

- نعرفها يا خالي، قلت له، هذه حكاية طويلة وأنا مشغولة وحياة العذراء، لا أكذب.

- اسكتي يا سلمى واسمعي التاريخ أنا أروي لك التاريخ كلّ واحد، امرأة أو بنت أو رجل يجب أن يعرف تاريخ بلاده ويحفظه في رأسه إلى أبد الأبد.

إي يا خال، صارت تقول البنات. خبرنا خبرنا

من حوالي خمسين سنة، أكثر أو أقلّ، حصل مشكل على عين ماء اسمها عين الغزال في بنشعي. مشكل بسيط كما يحصل على السقاية. إلّا أنّ واحداً من بيت الكوسا من عندهم سحب مسدّسه، هكذا، وأردى شابين أخوين من خيرة شباب الجعاجة. ولما سمع

ربعمهم بالخبر أسرعوا إلى العين فوقعوا في كمين وخرّوا يتخبّطون في دمائهم.

- يا ويلييبيي . يا ويلييبيي يلعن دين الدين تبع فروج أمهاتهم . الدم يغلي في عروقي، تقول إحداهن، فيتابع خالي ميسوطًا، وعينه تدمعان من التأثر

- و . استمرّوا يقتلون فينا ودخلوا البيوت القريبة التي لربعنا وقوّصوا الأولاد في أحضان أمهاتهم طيب . ماذا فعلنا؟ طلعت الضيعة بكاملها إليهم، إلى حدودنا معهم في بقوفا، وجهاً لوجه وليس استفرادًا وخيانة . ظللنا نحاربهم حتى هربوا من متاريسهم فلحقناهم حتى إهدن وأحرقناها بالكامل . هم يقولون اليوم إنهم كانوا في المشتى، في زغرتا، وإننا تمرجلنا وأحرقنا ضيعة فارغة من أهلها طيب والقتلى؟ من أين جئنا بهم؟ الجثث التي نظفناها وألبسناها الثياب اللائقة وصلينا عليها قبل أن نردّها لهم؟ وهم، فظّعوا بجثث أولادنا وردّوها لنا ألسنة الشباب في - لا تؤاخذوني يا بنات - في باب البدن . ثم، إن كانت إهدن فارغة من كان يقول لنا من المتاريس سنزوّج السيّدة على مار سابا، يعني يهدّون الجبل لتصير سيّدة النور فوق على مار سابا تحت . وردّت عليهم سيّدة النور وز . كت أمهاتهم . والسيّدة ردّت بمشلحها الأزرق كلّ رصاصهم عتّا حتى صاروا يسألوننا فيما بعد، من هو ذلك الفارس الصنديد الذي كان يخيل بحصانه أمام متاريسكم ويردّ رصاصنا بردائه الأزرق؟ هم يسألوننا ونحن نضحك ونقول لهم: روحوا، امسحوا الشحتار عن أعتاب بيوتكم المحروقة وإذ ذاك نجيبكم .

فجأة وقف الخوري يتنحى في الباب . السلام عليكم يا إخوتي ، قال ، فتململ خالي على مضض . تفضّل يا بونا ، قال خالي . أنا في جولة هكذا على البيوت أرشّ الماء المصلّي فوق الأعتاب حتى ترمي العذراء السلام والطمأنينة في القلوب . ثم دخل الخوري يسوّي بطرشيله ويرشّ الماء ويصلّي . تفضل يا بونا يقول خالي ضائِقًا ذرعًا به إذ مجرد حضوره نفس الحماس في الجوّ لا يا ابن العذراء يجب أن أتمّ جولتي قبل الليل أريد أيضًا أن أقول للجميع إنّ الدفن غدًا والجنّاز في الكنيسة سيكون على جميع التوابيت . وأبواب بيت الله مفتوحة هذه الليلة ، لندعو جميعًا للوثام ولتثبيت حبّ يسوع في قلوب المسيحيّين ، ومن أجل راحة الأنفس ليكن ما حصل وانتهى صفحة من الماضي نقلها ونساها يا إخوتي

قال له خالي . مع احترامي يا بونا كيف ننسى؟ ثم معليش أنا سأسألك سؤالاً واحداً أمام كلّ الأعداء المحيطين بنا ، شيعة بعلبك المحميين من بلاد فارس ، وإسلام الضيّّة وطرابلس الذين يحميهم بنو دينهم من تركيا حتى بلاد الكعبة ، وروم الكورة الذين تردّ الأخطار عنهم سفن موسكويّة تصلهم من هناك بلحظة ، داير داير من يبقى؟ الزغرتاويّة ، الذين يتحالفون مع الشياطين لمحونا من الوجود . هذه دائرة النار التي تُحيط بنا ماذا يتبقّى لنا غير السماء ، إلى فوق؟ فوق ثم فوق . عند الربّ . الربّ لنا ، وحده . أم إن لك يا بونا رأي آخر أو مشورة تجود بها علينا؟ فقط أجبني ، أنت رجل الكنيسة أمنا ، ورجل الربّ؟

ولمّا تأكّد خالي أنّ إلحاحه لا يفيد، وأنّ الخوري لا يريد الإجابة وهو راح يصبّب على الجميع إيذاناً بخروجه، صار يغمز البنات متبسّمًا هازئًا من جبن هذا الخوري، بل من رجولته في الأساس.

ثم خرج الجميع وراحت سلمى تفكّر في جناز الغد.

أحبّ كثيرًا أن أتفرّج على ما سيحصل في الجناز ستأتي المجاميع من آخر الدنيا، وسيلقي الزعماء الخطب الحماسيّة، ويقول القوّالون أشعارًا عظيمة وسيدويّ الرصاص. وبعدها ستعلّق الذبائح لإطعام الغرباء وعابري السبيل

لكّتي سابقي في البيت ولن أصدق إلى الساحة. هكذا أفضل وأريح بالأفأنا لن أعرف أين عليّ أن أقف: بين بنات وسيّدات جمعيّة المعلّمة نجبية أم بين بنات وسيّدات جمعيّة الراهبات الطليانيّات. لن تسامحني المعلّمة نجبية إذ أعود إليها بعد أن تراجعته هيبة الراهبات، إذ يبدو أنّ بلادهم خسرت الحرب، هناك، حيث تتقدّم العساكر والجيوش التي تحالفت معها المعلّمة نجبية.

لا فائدة. هي هكذا، لا تسامح. وسوف توبّخني أيضًا، أمام الناس، إذ سبق أن لظّشت سابا؟ شفت أختك، بنتنا سلمى. ؟

لن أطلع غدًا إلى الساحة.

ثم خرجت سلمى تلمّ الغسيل عن الحبل وقد أصبح قديدًا

معلّقًا منذ أيّام، فنادتُها أمّ نجيب وقالت لها شفتي يا حرام؟ هل أخبرك خالك بما جرى للمعتّرة؟! الناس بالناس والقطة بالنفاس. يا حرام. قتلوا عطاردا. خنقوها في الليل وسرقوا بيتها الناس في الحرب وأخبارها يا حرام لم يسمع بها أحد، ولن يكون لها جناز لائق، هي المُفضّلة على أولاد الضيعة، ستُدفن على السكت ما حدا فاضي لها وجدوها هكذا يا سلمى، الله ينجّينا، عيناها خارجتان من رأسها ولسانها طالع من بلعومها وأغراض بيتها مقلوبة كلّها هكذا، يقولون، وجدوا المعتّرة مخنوقة، وسرقوا مصريّاتها

دخل عمّي يوسف وبرفقته سابا عابساً قفز قلبي في صدري .
لكنّي رحت أتأهل به وأنفض قماش الكنبه حيث سيجلس . أهلاً ،
يا أهلاً بعمّي ثم قبّلت يده فسحبها بدل أن يترضى عليّ ، فرحت
أقول أهلاً بيّ العيلة .

قال عمّي يا سلمى البنت تُطيع أباهها ولا تشذ عن طاعته أو
عن مسلك بنات عمّها لتعمل هكذا بهوى رأسها فهمتُ سبب
الزيارة وتنفس الصعداء

أنت الكبيرة ومثال أخواتك . منذ مدّة وأنا أسمع عنك كلاماً
لا يُرضي أخاك الكبير ولا يُرضيني . طوّلت لك الحبل ، أقول في
نفسي لا بدّ أن تستفيق وتعقل . رفضتِ العريس الذي جئتُ به
إليك ، كسرتِ كلامي وقلتِ إنك مسؤولة كأنّي أنا غير موجود ولا
ألبي حاجات أولاد أخي اليتامى ، فيما أنا أطعم يتامى الغرباء
والمشرّدين وعابري السبيل

راح سابا يهز رأسه بالموافقة والأسف . . فقلت في نفسي ،
بعدين ، بعدين حسابك معي يا سابا

طَيَّب . طَوَّلْتُ بالي وتركتك تراجعين حساباتك مع الوقت، لكن بدل ذلك صار رأسك يكبر تعتقدين أنك كأبيك لا تحبّين الزعماء وتقبيل الأيادي لكن، لو كان أبوك ما زال في دار الدنيا - رحمه الله - لأراك في شدّ شعرك كيف تتصرّفين . نساء أعمامك وبناتهم في وادٍ وأنت في وادٍ . وحتى الآن لم تطلعي ولا مرّة واحدة لزيارة المعلّمة نجيبة . وتمر المناسبات وأنت كالتيس لا تردّين على أحد ولا تطلعين لعندها ، وأنا حين تريد المعلّمة مراعاتي تقول لي سلمى أين سلمى اشتقت لها هالبنّت الديّوسة! ماذا أقول لها؟ لا أقدر على سلمى؟ لو كان أبوك من يقع في أذنه هذا الكلام، بم كان يجيب؟

- أنا فقط أستحي منها يا عمّي، قلت له، إذ كانت تراني عند الراهبات الطليانيّات . والله أنا أقدرها وأحبّها، المعلّمة نجيبة .

- ينقصنا بعد ألا تقدّري حضرتك جانب المعلّمة نجيبة إذ . يا حرام لن تنام الليل أنت لا تعرفين المعلّمة، تقولين، في رأسك الصغير، إنّها أخت البيك وزعيمة قاسية . غلطانة لأنك جاهلة . البيك نفسه لم يستقبله ديغول . وافق على أن يرافقه خلال زيارته البطرك في الديمان، الصيف الماضي، لكنّه كان اعتذر عن استقباله في بيروت . حين دخلت المعلّمة نجيبة إلى قصره في بيروت كان ديغول حزينا، يبقى وحيدا ويعتذر من الضيوف ولا يستقبل أحداً افهمي ما أقول لك . ديغول كان حزينا، لا يأكل ولا يشرب لأنّ الألمان وأصحابك الطليان نغصوا عليه عيشه وكاد الهَمّ يقطع نياط قلبه ويقضي عليه . من الألمان والطليان والأمم التي تحالفت على الرجل وهو صابر، يصلّي ويتعبّد للعدراء . . حتى أعانته أم يسوع

وتبدّل هواء السياسة ولفّ ودار وحطّ عنده وصار هو الغالب . لو غلب الطليان لكنّا ذهبنا معك لعندهم نحطّ الطاعة . لكنّ المهّم في ما أقول لك أنّ ديغول، حين كان مُتصوّمًا في غرفته ومهمومًا لا يستقبل أحدًا دقّ عليه حارسه الباب، فقال له ديغول ماذا؟ ماذا تريد؟ ألم أقل لك إنّني لا أستقبل أحدًا؟ أجاب الحارس . يا معلّمي لا تؤاخذني لكنّ في الباب المعلّمة نجبية . ديغول الذي كان سمع بالمعلّمة وأفضالها على الخليقة قال لزلّمته المعلّمة نجبية نفسها؟! أدخلها، أدخلها بسرعة، ولا تدعها تنتظر يا عيب الشوم . وكان يجب أن تكوني في الديمان يا ستّ سلمى لتري كيف كان ديغول ومعه جنرالاته يتوجّه بالكلام الفرنسي إلى المعلّمة وهي تجيبه على المستوى . حتى البطرك نفسه صار يسكت حين تتكلّم المعلّمة نجبية ويهزّ برأسه .

أيش رأيك يا ستّ سلمى، يا معلّمة سلمى؟ يا جنرال سلمى؟ أنا أقتل نفسي لأعلي كلمة هذه العائلة، وأجعل لها شأنًا وعزًّا وجاهًا وبنات أخي - أخي - لا تحترم كلمتي . لمن أنا أقتل نفسي، وأتكلّف وأقيم الولائم وأدعو الناس وأساير الزعماء؟ لنفسى؟ أنا غداً أموت يا سلمى، من يبقى لكم؟ أنا خاطي وخطيئتي عظيمة . شوفي البغل عمّك فريد والبغل الأصغر عمّك رزق . وهذا الأخير لا ألومه إذ لم يرزقه الله صبيًا وكلّ أولاده بنات . لكنّ الصهر عزوة وسند ضهر وهو لا يعي ما أقول . والآخر فريد أعطاه الله ثلاثة صبيان، أخرى من البنات . غير نافعين في أيّ شيء لماذا يغضب عليّ الربّ؟ ماذا فعلت له؟ ابن فريد الكبير، هذا خليل، لا نوى منه بالمرّة . أخوت، وكلّما قرّبته مني

جرّصني بين الناس . ماذا فعلت أنا للعذراء، أي ذنب ارتكبتُ لبيتليني الربّ بكم .

راح عمّي يقول خابطًا بكفّيه على رأسه، ثم خرج ووراءه كلبه سابا يردّد. حنّا، حنّا ابن عمّي حنّا سيرفع رأسنا جميعًا، حنّا تاج رأسنا، وغدًا، غدًا تطلع سلمى لعند المعلّمة نجية . لكنّ سابا قال كلّ هذا دون أن يلتفت ناحيتي ليري أنّي كنت أعصّ بقوة على سبّاتي، من غضبي الذي سأسكبه على رأسه ضربًا حتى يُغمى عليه حالما أراه ثانيةً .

ثم أقفلت الباب والشبابيك حتى لا يسمعي أحد ورحت أبكي بالعالي من غيظي، وأدعو الربّ أن يضرب عمّي بصاعقة من السماء . يا حرامي يا نصاب يا عكروت الله يحاسبك، الله يأخذك كما أخذت أرضنا يا جبان . لو كان أبي حيًّا لما تجرّأت علينا الله يضربك بحنّا الخرى الذي تريد أن تعمله زعيمًا، وربّما يومًا ما، تُرّشحه في الانتخابات . يا ربّ تضربه في وحيدته حنّا، المنافق الحرامي مثله، والذي يتحركش بالصبيان، وقد رأوه الناس في حارة الفوقا يفرجي قمبروته للصبيان وضربوه . الله يقطع قمبرورة وحيدك الزعيم حنّا يا عمّي ويبيكك عليه بالدموع المرّة .

أما أنت يا خي سابا فدبّارك عندي . أنا سأدبّرك يا خيال النبي آدميين المهمّ ألا يعرف طنّوس بشيء

ثم تذكّرتُ أنّ عمّي لم يأتِ على سيرة طنّوس، ولم يلفظ اسمه، فهدأ غضبي ورحتُ أتساءل عن السبب لماذا أتى على ذكر أولاد عمّي الذكور ولم يذكر طنّوس . ربّما لأنّه يعرف كم

أحبّه ولا يريدني أن أغضب، أو أن أقول كلامًا بذئيًّا فأقلل من احترامه ولا أعود أطيعه بالمرّة أو أنّه يعتبر أنّ طنّوس في صفه ورهن طاعته مثل أخيه الكبير سابا لكن لا، غير معقول. عمّي يعرف أنّ طنّوس غير سابا طنّوس لا يسير وراءه ولا وراء حنّا حتى إنّ قلّمًا يراه في بيتهم و. غريب.

ثم صرت أبكي حزنًا لم يكن عمّي هكذا أبدًا كان حنونًا مثل أبي الذي كان يحبّه كثيرًا ولا يسمعه سوى الكلام الجميل كان عمّي يسترضي أبي إن زعل من شيء. يضع يده على كتف أبي ويقرب رأسه ويروح يتكلّم إليه بصوت منخفض حتى يبتسم أبي. يُعطي أمّي كيس اللحم ويقول لها بلطف: يا أمّ سابا الكبة النية التي تخرج من جرنك أطيب كبة في الحارة وأمّي كانت تحبّه كثيرًا تقرب الصحون ناحيته على الطاولة كلّما كان يبكي حين يوجد أبي بالغناء الحنون. ثم تسكب له كأسًا جديدة ونظيفة وتقول، كاسك يا سلفي، يلعن بيّ البكي، نحن فرحون طالما نحن مع بعضنا

ثم كانت أمّي ترفع كأسها وتقول يلاً كاس الجميع. خلينا يا هلا وتقترب من أبي وتقول كاسك يا بو سابا يلاً يا هلا بالأهل وتبدأ هكذا ترندح حبيّ علينا بس حبيّ مثلنا، تريد أن يغيّر أبي غناءه الحزين، كي يترطب الجوّ بالغزل، فالغزل يفرح قلب الجميع ويضحك الرجال.

هكذا كان عمّي

ربّما . . لو لم يمت أبي وبقي بيننا

نسينا الحرب .

خرج الرجال من الحبس وعادوا إلى بيوتهم ، ومدّ لهم أهلهم طاولات اللوائم حيث أنشد الشعراء وصدح المغنون وجلجل الخطباء ومضت شهور عديدة قبل أن يتجوّل العسكر في الطرقات يشربون القهوة أو النيذ في البيوت ، يسألون عن أسماء بعض الناس بكلّ مودّة ولطف ، يبتسمون قانعين حين لا يردّ أحدهم على أسئلتهم إلّا بالمقلوب . من نوع هل تعرف من قوّص فلاناً الفلاني؟ فيجيبه الواحد منّا ليش فلان الفلاني تقوّص؟ الله يشرك بالخير! تمامًا كما فعل ربعنا في المحكمة حتى غشي على القاضي من الضحك . ويقولون إنه شخّ في ثيابه من ظرف أهل ضيعتنا فصار يقول: ما بقى فيّي ما بقى فيّي ، خدوهم من وجهي إلى الحبس . هكذا وهذه الأخبار يعرفها بالتأكيد العسكر الذي يزور البيوت ويسأل الناس ، وإن هم نسوها نذكّرهم بها ، بشكل أو بآخر ، ليضحكوا قليلاً ، إذ هم لا ذنب لهم . العسكر عبيد مأمورون ، وغرباء أيضًا . ونضحك أكثر حين يعودون بصفحات

محاضرهم بيضاء، ويلحق بهم العسكري الفرنسي الذي يرافقهم، هكذا شكليات، وهو غير فاهم كوعه من بوعه وكيف أنّ الناس تضحك في تحقيق راح فيه قتلى إثر حرب طاحنة.

قالت لي مرتا يا حرام هالفرنساوية لا يفهمون شيئاً يا حرام. سمعت عند المعلمة نجبية حين زارها واحد من جنرالاتهم، أخبروني أنّه قال لها إنّ رأسه ضاع، وإنّ الاستقلال نفسه لن ينفع معنا، أعني نحن والزرغرتاوية، إذ بعدما صالحونا، أعني تصالح الزعماء فيما بينهم، عادوا وانقسموا حزبين، نحن في حزب وهم في حزب، ولا نتفق على شيء لا ليس جنرالاً، اسمه مستشار، المستشار لوبرجوا أنت لا تخرجين من البيت. أنا أذهب مع أخي حنّا إلى الأرز، دائماً، وحضرتُ قدّاساً لراحة نفس بحّارة طولون. لبسنا ثياباً بيضاء وحملنا زنابق بيضاء وأعلام فرنسا وسمعنا خطباً عظيمة عن بطولة وتفاني وشجاعة بحّارة طولون الفرنسيّة. وكان هناك ضباط إنكليز لم يعجبهم كلام المونسنيور كثيراً لكنّهم لم يفتحوا فمهم. وهذا المستشار لوبرجوا طلب أن يمنحه لقب مواطن من قاديشا لشدة ما أحبّنا، أيدي على سيّدة النور

- كنتم مع المعلمة نجبية؟ سألتها

- مع المعلمة نجبية وجميع الزعماء من عندنا، وأغرب لا أدري من أين. كلّ يوم هناك قدّاس رسمي أو حفلة في الأرز، ثم ينامون في أوتيل مون روبو ومن كام يوم رأينا الجنرال كاترو قدّموا له قصيدة محفورة كلماتها على خشب الأرز كلّ من يزور

بلاد الشرق بوسعها يريد أن يطلع إلينا ويتكرّم عندنا أقوام أقوام
يا سلمى. ماذا أقول وماذا أخبّر وأنا أملي في الحياة أن أتزوِّج
ضابطًا فرنسائيًا تقع عليّ عينه وينغم ويكلّم أبي. وأعمل عرسًا
فرنسائيًا، في الأرز لا في الضيعة، وأنام في أوتيل مون روبو يا
سلمى لماذا لا تأتين معنا؟ لو بتشوفي جمالهم. وعيونهم
الزرقاء. يا عذرا دخل إجريك. وعلى رأس الواحد كيسي،
ويلبسون كفوًّا بيضاء يا سلمى لماذا لا تأتين معنا إلى الأرز؟

سأتي سأتي، قلت لمرتا الثرثرة جدًّا والتي صارت صبيّة مثل
القمر ولا أدري لماذا لم تتزوِّج بعد. أم إنّ عمّي يطمع دائمًا
بأحسن ممّن يتقدّم لها؟

الآن، بعد أن وضعت نبيهة ابنها البكر، صرت أفكّر كثيرًا
بهيتّي. أقول لنفسي ليس أني غير جميلة، بل على الأرجح أني
بشعة. لا بدّ أني بشعة أنا لا أشبه لا أبي ولا أمي وبالتأكيد لا
أشبه لا طنّوس ولا نبيهة، ربّما أشبه سابا قليلاً لكن حتى سابا
أجمل مني، يدور مع البنات ويغمّز بعينه وأنا مع أنّ بالي
مشغول وتفكيره بعيد عن الشباب لكن هم لا يقتربون مني حتى
أصدّهم لهذا ربّما يبالغ نجيب ويصرّ على أخذي للسهر عندهم
حين يكون عنده أصحاب شباب، عليّ أعجب أحدًا منهم. أقول
له: خذ البنتين أنا لا روح لي على السهر، فيقول: لا، أنتِ سلمى
أنتِ. البتان لا بأس عليهما، يلا، قومي تعالي اسهري عندنا

العمى!

غالبًا ما أبقى وحدي في البيت. أفكّر أني بشعة جدًّا، لا بدّ.

وحتى الآن لم يلفِ عليّ أحد، ولا تكلم أحد عني لأخويّ. ربّما
لن أتزوِّج في حياتي. ربّما سأعنس من بشاعتي وأبقى في البيت
وحيدة بعد أن يتزوِّج الجميع، الصبيان والبتتان. وإذ ذاك سيستبدّ
بي عمّي أكثر فأكثر تفو على عيشتي

ليس فقط أنّي بشعة بل أكاد أنسى أحياناً أن أمسّط شعري.
ليس عندي إصبع حمرة ولا علبة بودرة واحدة.

العمى!

لو لم تزل صابات وإميلين عازبتين لذهبت إلى الدير وعملت
راهبة.

لم يعد ينفعنا ما نحن فيه . وهذا سابا أخي لا أمل يُرجى

منه

راح طنّوس يفكّر في كيفيّة الخروج من هذا الوضع الصعب إذا
لم ينفذ ما برأسه

سلمى قبلت وفرحت بتزويج نبيهة قبلها، لكنّ وضعها بات
الآن دقيقًا، ولا أحد يأتينا أو يتكلّم معي عنها والبتتان صارتا
صبيّتين، وحين تمرّان في الساحة أرى حركات مريبة، من بعيد،
وأروح أراقب إن كان أحد سيتبعهما ثم . إن زارنا شابّ أو لفي
على إحداهما معجب كيف سيكون وضع سلمى هذه المرّة. هذه
صابات جميلة، بان عليها جمال أكيد وهي تشبه أمّي أكثر فأكثر،
رحمها الله . خاصّةً في منطقة الخصر والساقين، فيما سلمى
ضعيفة وضيقة الأرداف وهذا لا يعجب الشباب . وقلم الحمرة
الذي أعطيته لنبيهة لتعطيها إياه لم تستعمله يومًا، حتى ولا يوم
الأحد . وأنا لا أجرؤ على الكلام معها عن موضوع التزوّق لأنّها
ستزعل وحين أغني لها عن الحبّ والغرام تروح تحدّثني عن ابنة

عَمِّي حلا ثم صارت سلمى تكثر من دعوة حلا إلى البيت وأنا كلِّما دخلت ورأيتها عندنا يطير قلبي من الفرح وأحتر في ما أعمله في الدار، فأخرج إلى السطحة ناسياً ما كنت بصدده وأنا نازل إلى البيت. هكذا حين أرى حلا يصبح رأسي فارغاً كأن بداخله هواء فلا يبقى أمامي سوى الخروج لا أريد لسلمى أن تلاحظ شيئاً لكنّها ذكيّة جداً، أختي سلمى لا أريد أن أتزوج الآن، قبلها سلمى تفهم وتقول إنّ البيت كبير وإنّ البنتين لن تمكثا طويلاً وإنّها تحبّ حلا وتهنأ بصحبتهما وحين أتأفّف إذ لا أعرف كيف أجيبها، تروح تهدّني بأنّ للصبر حدوداً وأنّ حلا الحلوة سيخطفها من هو أحلى وأغنى مني إن أنا تأخّرت.

وهذه أيضاً مشكلة. فحلا الهنيّة الآن كما تقول سلمى ربّما لن تظلّ هنيّة مهذبة إن هي أقامت مع أخواتي وربّما سيخطر لحلا، حين تصبح امرأتي، أن تعتبر أنّها صاحبة البيت وتتكّد عيش سلمى البنّتان صارتا في عمر الزواج لكنّ أحداً لم يتكلّم معي. هذا غير طبيعي. وأنا أعتقد أنّ أخي سابا يخفي عني أشياء لا بدّ أنّ شبّاناً تكلموا معه، من الحارة مثلاً، ورفضهم وعنفهم لأنّهم دون مستوى زعامته، كما كاد يفعل مع نجيب الحاوي، وأيّ شابّ يفكر بواحدة من البنّتين سيخاف البهدة ولن يتكلّم مثلما فعل نجيب الشجاع والقبضاي ولأنّ نبيهة كانت تحبّه والآن، كبر رأس سابا أكثر بكثير من السابق. ثم هو لا يشتغل في الأرض ولا في غيرها، ولا يحمل إلى البيت فلساً واحداً ومع هذا

يمشي طنوس في الصيران والجلالي رواحاً ومجيئاً لن أتزوج

حلا لكنت تزوجتها لو أنني أكملت بناء البيت التحتاني وفتحت حائط القبو على الإسطبل. لكان بيتًا حقيقيًا، واسعًا ومطلًا، فيه مطبخ مُعتبر وبيت خلاء، على الطراز الحديث. لكن. ليس معي مصاري تكفي.

كنّا نأكل ونعيش مرتاحين من جنى الأرض. لست مقتنعًا بما فعلته سلمى لكني لا أقول شيئًا وليس لي قدرة على الذهاب إلى عمي الكبير، هكذا لوحدي. سألت أولاد عمي خليل وفنيانوس ونديم عن رأيهم، أن نذهب إليه مجتمعين، فقالوا انس الموضوع فكّرت بالكلام إلى الداهية الأستاذ المحامي وضحكت من نفسي إذ هو من يرتب لعمي كل شيء. حتى إنني فكّرت باسترداد أرض عيناتا لكني، هكذا لوحدي، بلا عزوة أو ربع إلى جانبي، سيطر دونني من هناك وتلحق بي الكلاب.

في رأسي هموم كثيرة، لا أجد لها حلًا سوى ما قاله لي هذا العسكري الفرنسي. لا أجد. وسأكلّم سلمى، لن أفعل شيئًا دون سلمى

نزل طنّوس من الحقلّة مباشرةً إلى البيت. وجد سلمى على السطيحة تفرك الكشك في الشمس. وكانت وحيدة.

رفعت كفها تتقي الشمس إذ كان طنّوس واقفًا أيش في؟ سألته. لماذا عدت هكذا باكرًا من الحقلّة؟ ثم راحت تنفض اللبن المتبيّس على يديها، بانتظار أن يتكلّم. أيش في يا حبّ؟ أين البنّتين؟ سألهما طنّوس. قالت تعال ندخل، البنّتان عند نبيهة، أيش في يا خو؟ قال طنّوس: يجب أن نزوّجهما سنزوّجهما طبعًا،

قالت سلمى وهي تلحق بأخيها

في الداخل أدركت سلمى أنّ الأمر جدّي، وأنّ هناك همًّا على قلب أخيها

أسكب لك لتأكل؟

لا لست جوعان. ليكي يا سلمى كم أنا وحيد في هذه الدنيا، وليس لي غيرك.

- لا تبك، أيش في؟

ولمّا بقي صامتًا قالت له: الدنيا بألف خير نحن بألف خير، أيش بنا؟ بألف خير هل ينقصنا شيء؟

- إيش في يا خا؟

تعرّفت إلى عسكري فرنساوي على طريق الحقله. كان معه عسكريان من السنغالية، لونهما أسود. كان الدخان يطلع كثيرًا من مقدّمة شاحنتهم. أو، أو، دولو، صار يقول لي فهمت أنّه يريد ماءً كي لا تحترق الشاحنة، فحملت إليه ماءً في غالونه الفارغ من الساقية القريبة وهو لا يراها فرح كثيرًا وصار يقول مرسي مرسي. المهمّ، عزمته إلى بيت الحقله وأكل عندنا هو ورفيقاه وكان مبسوطًا إذ وجدني أفهم لغته وأتكلم بعض كلماتها المهمّ. صار ينظر إلى بيتنا في بُنحلي من كلّ الجهات ويهز رأسه. أفهمته أنّه بيت حقله وأنّ بيتنا الحقيقي في الضيعة لكنّه المهمّ.

هذا الفرنسي قال لي إنّ الحرب انتهت وإنّهم ربّحوها وإنّ

سعر الكاوتشوك غالٍ جدًا لأنّ الكاوتشوك قليل ، استُهلك في الحرب والكلّ يحتاجه ثم قال إنّه وكيل - أو ما أشبهه - على ديبو الدواليب في كمب فرنساويّة وله كلمة على مخزن دواليب معسكر الإنكليز أيضًا، إذ عنده رفيق إنكليزي . ثم صار يقول لي إنّ الدواليب ستأتينا بأرباح كثيرة وأموال . وهو لا يريد مني سوى أن أودعها في الحقلّة عندنا إذ بيتنا مخفي ، ثم يأتي في الليل من يحملها وأنا أساعده في تحميلها وأستفيد كثيرًا لكنّه طلب مني أن آتي برفيق شابّ قبضاي معي إذ لا ينفع أن أكون لوحدي .

هذا حرامي يسرق جيشه ، قالت سلمى

كلّ الناس تسرق في الحرب يا سلمى أنتِ لا تعرفين . كلّ الناس . كلّهم . ثم الحرب انتهت ولن تفيد الدواليب أحدًا ونحن لن نبقى هكذا شوفي عمّك . كلّ يوم عنده فرنساويّة في بيته ويكدّس الذهب تكديسًا ، برحمة بيّ ، يعزّمهم على الغداء والعشاء ويظلّ برفقتهم في الأرز ، لماذا يفعل عمّك يوسف الذي تعرفينه جيّدًا كلّ هذا؟

ولمّا سكت طنّوس وراح ينفخ مهمومًا ، قالت له سلمى : أريد أن أرى هذا فرنساوي . أريد أن أراه .

يا سلمى أنا لا أفعل شيئًا دون موافقتك . ترينه ساعة تشائين . أنا أعرف كيف أجده ، لكنّه يريد شابًا قويًا زكرتيًا معي يساعدي لا امرأة .

قالت له سلمى مفهوم . أنا أريد أن أراه فقط . هكذا لكن أين نجد رفيقًا يساعذك . هذه مشكلة . سبابا سيركض إلينا إن

سمع بالمصري لكنه لا يستطيع أن يرفع دولابًا واحدًا، أنا أقوى منه. ثم هو لا يؤتمن على سر وسيتفاخر ويخبر حنا بكل شيء.

لماذا لا تكلم خالك. خالي قوي، قالت سلمى.

خالك قوي يا سلمى لكنه بلا رأس. وهو مكسر العظام، نائم في سريره منذ مساء أمس. كان هناك حفلة في أوتيل عيسى وسكرت الناس. قام مهندس ألماني يعمل في منجم الفحم في أول الضيعة، قام وبدأ يشتم الفرنسيين ويلعن أباهم. صبروا عليه لأنه الألماني الوحيد. لكنه بدل أن يهدأ صار يصرخ واقفًا هايل هتلر، هايل هتلر وهتلر سيكسر رؤوس الفرنسيين ويدعسهم بالجزمة، يعني أشياء من هذا القبيل. ولما هجموا عليه بالضرب، انبرى خالك يدافع عنه لأنه، قال، وحيد وغريب وعيب أن يستفرده الفرنسيين، فكسروا عظام خالك وها هو مرمي في بيته.

ضحكت سلمى وقالت لطنوس إنس الموضوع ما عندنا أحد نتكل عليه. لكن، ما رأيك بخليل ابن عمك فريد؟ خليل يحبك ولن يفشي سرّك. لكن خليل أخوت. لا أدري، ما رأيك بخليل. خليل أخوت بالخالص، قال طنوس أعني في يوم يكون عاقلاً نبيها وفي اليوم التالي لا أحد يدري ما الذي يلبثه في رأسه، يسكر من كأس عرق ويطرشق بالحكي طالع نازل ويفضح أسرار الناس ويسب العذراء مريم هكذا لا تفهمين السبب.

أنا أعرف بمن تفكر يا طنوس، قالت سلمى. لكن أنا لا أوافق. أخرجه من رأسك.

ليس لنا غيره، صدّقيني يا سلمى. أنا فكرت كثيرًا.

لا قالت سلمى لا ولا ثم لا ولا تَعُدُّ إلى سيرته. ثم
خرجت إلى السطيحة تفرك الكشك قبل أن تذهب حماوة الشمس
ولمّا بقي طنّوس في الداخل عادت إليه سلمى وقالت: على شرط
أرى الفرنساوي وبعد ذلك نكلّم نجيب. أنا أكلّمه لكن بعد أن أرى
الفرنساوي. كلّمه، قلّ له أختي الكبيرة تريد أن تراك.

في ليل أيلول يملأ الضباب الأرض حتى ولو كان القمر بدرًا
لا يرى المرء إصبعه إن مدّ يده على طولها وإن أضاء قنديلًا
سيصبح كالأعمى تمامًا إذ لا يُنير القنديل سوى نفسه جاعلاً كلّ ما
يُحيط به أبيض لزجًا وسميكا كاللبن

في ليل أيلول يبدأ أهل تلك المرتفعات تمارينهم الشتائية .
فبعد عيد الصليب يحمل كلّ يوم علامات الأشهر المقبلة بالتتالي ،
فيكون النصف الثاني من أيلول خريفًا هو أقرب إلى الشتاء منه إلى
الصيف ، الصيف الذي يسلم محاصيله كاملةً ولا يبقى منه سوى
بعض التفاصيل الصغيرة الأقرب إلى الانتفاضات الأخيرة للأرض ،
والتي يسمونها الرجعيّات . بعض حبّات البندورة أو اللوبياء التي
تطلع على شتلات ميّنة .

وحين يكثر نزول الضباب على ليالي أيلول الأخيرة ، ويطرافق
ذلك مع اشتداد عواء الواوّة والشعالب في الوادي ، يُعيد الناس
النظر في مخزون الحطب إذ في ذلك علامة على ثلج كثير مقبل ،

من ذلك الذي يقعد لنا شهورًا عديدة وطويلة ونسمّيه الدوّم، كونه يدوم طويلًا ويتحجّر كالصخر ولا يدوب..

في ليالي الضباب الكثيف هذه لا يسير الناس بعيدًا عن مسالك يعرفونها ويألفون مطباتها يقتصر خروجهم على بيوت الحارة الواحدة، ليس فقط لصعوبة المشي كالعميان ولكن - أيضًا - لأنّ عمليّات التشليح وسرقة الجيوب بالقوّة تتضاعف كثيرًا إذ لا يتعرّف أحد على أحد. زد على ذلك ما يبثّه الضباب من خشية في القلوب حتى لمن كان آمنًا يسهر في بيته فالسماء حين ترسل ضبابها النازل هكذا حتى الأرض تبدو غير راضية، وتوقظ أصواتًا تثير التوجّس والريبة، رغم معرفة مصادرها معرفة قديمة راسخة، فتشعر القلوب بوخزٍ عميق وبوحشةٍ تعتصرها وتكثر صلوات الرجاء وتساغيّات الشفعاء الرحومين.

لكنّ طنّوس وجد في هذا الضباب مباركةً من الربّ. قال لسلمي وشوشة: شفتِ الغطيّطة؟ هذه علامة على رضا يسوع إذ أرسلها لنا غطاءً، رداءً من عنده وستراً، ليساعدنا نحن لا نقوم بما لا يرضيه. التفتت سلمى وخبطت باطن كفّها بكامله على فمها، فسكت نهائيًا

طنّوس وسلمي ونجيب ليسوا في حاجة إلى شحيح ضوء إذ يستطيعون السير معصوبي الأعين تمامًا إلى حقلة بنحلي فذاكرتهم تحتفظ بكلّ منعرجاتها، نزولاً من البيت في الصيران والحفافي ثم صعودًا على طريق البغال ومن دون المرور بفسحة المقابر المكشوفة والتي تطلّ على الطريق العامّ

في البيت الصغير قعد الثلاثة في الظلمة ينصتون السمع لا أصوات في الجوار ولا أحد ينام في حقله. لكنّ الفرنسي تأخر كثيرًا قالت سلمى، هيدا ضاع. لن يجد طريقه إلينا اقترح نجيب أن ينزل من البيت حتى الجوزة أو مكسر الساقية ينتظره هناك. قالت سلمى لا ينزل طّوس.

عاد طّوس بعد دقائق ومعه الفرنسي مصطحبًا عسكريًا سنغاليًا، لكنهما كانا في لباس مدنيّ قال الفرنسي: هذا رفيقي يجب أن تتعرّفوا عليه إذ هو من سيساعدنا، ولا أحد سواه انتظروا حتى ألقوا العتمة كي يروا وجهه الأسود جدًّا ثم صار الفرنسي يشدّ بقوة على يد نجيب، ونجيب يشدّ أيضًا فضحك الفرنسي مبسوطًا إذ وجد نجيب أقوى منه كاد طّوس أن يعرّف الفرنسي على نجيب بالاسم، لكنّ سلمى سارعت إلى القول: أمي، أمي، هذا صديقنا، مذكرةً طّوس بأن لا أسماء نعطيها للفرنساوي.

كان نجيب أكثر معرفةً بالفرنسيّة من سلمى وطّوس، فراق ذلك للرجل الذي طلب أن يشرب العرق، حاثًا الآخرين على الاحتفال بالصدّاقة والصفقات المقبلة. كان الفرنسي مرتاحًا بشوشًا فخفف ذلك من التوتر ومن قلق سلمى، فملأت بعض صحون الألمينيوم بجبن الماعز والخيار المكبوس، وهو القسم الذي تتركه من مؤونتها في بيت الحقلة لبرودته

سافا بيان؟ يسأل نجيب الفرنسي.

أوووه، يقول الرجل بلادكم أجمل بلاد رأيته في حياتي. بيت شوروي، يقول نجيب، يعني البيت الأوّل. هنا كان بيت

الإنسان الأوّل، ثم هنا صار بيت الموارنة الأوّل. المسيحيّة
مثلكم.

اصبر عليه بالعرق يا خو، صارت سلمى تقول لطنّوس، لكنّ
الفرنساوي راح يسكب الكؤوس لنفسه، ويجانبه السنغالي يكرع
كرعًا

قال الفرنسيّ أن نو في صحّتنا، سنجمع أموالاً لا بأس
بها لكن يجب أن نسرّع لأنني لن أبقى كثيرًا في بلدكم.
للأسف. للأسف. سينقلونني من هنا إلى بلد فرنساوي حقيقي،
اسمه الجزائر أنتم بلادكم ليست فرنسا وسنغادرها قريبًا أنا أقول
لكم سنغادرها قريبًا أنا أفضل البقاء هنا، لكن ماذا بيدي. في
الجزائر حرّ ونكد، وفيها مسلمون لا يحبّون المسيحيين لكنّي
جندي، وأنا حين تناديني بلادي لا أتأخّر أنتم، لقد اتّفق الجميع
على أن تصبحوا أحرارًا الاستقلال.

نحن أحرار من أصلنا يتّفق الناس أو لا يتّفقون. لير، نو،
من الله من فوق. دولة ما دولة استقلال ما استقلال، لا يهّمنا
نحن جبلنا لا علاقة له بما يحصل تحت. نحن لم يحكمنا أحد
حتى نستقلّ عنه. نحن في العالي ندافع عن نفسنا بنفسنا لا هم
يحتاجوننا ولا نحن نحتاج أحدًا صار الفرنسيّ يضحك من كلام
نجيب بما يشبه الاستهزاء. المهمّ، قال طنّوس خلّونا في
موضوعنا ثم خرجت سلمى بعد أن أشارت لنجيب فتبعها إلى
الخارج. قالت له لا نتكلّم في شيء غير الدواليب. آ؟ وأنا
سأسحب ألفيّة العرق وأخفيها في الصار فلا تعترض. يكفي شربًا.

الاثنان غير بعيدين عن السكر ويجب أن يعودا سيرًا آ؟ فهمت عليّ؟

ثم عاد الاثنان إلى الداخل وعاد طنوس يقول. إي نعم. المهمّ. قال الفرنسيون لنجيب: يجب أن يكون الإنسان واقعيًا ويجب أن نثق بعضنا ببعض فلم يفهم طنوس ما يقصد الرجل. وقال نجيب: هو يعني أنّه لا يثق بي ثم سأله ما الأمر؟ كيس كيل يا؟

قال الفرنسيون: أنتم تفشّطون كثيرًا تبالغون كثيرًا في الكلام عن قوتكم وتباهون بأكثر ممّا فيكم بكثير هذا ليس جيّدًا تعيشون في حماسة خياليّة وهذا لن ينفعكم. قالت سلمى لا أحد يردّ عليه. هذا سكران ولسانه يلكّ ويزلق. فسكت الرجلان لكنّ السنغالي راح يضحك بالصوت العالي، فأشار نجيب للفرنساوي أن يسكته بسرعة. ثم قالت سلمى سي فيني، وحملت ألفيّة العرق فأمسكها الفرنسيون من يدها بقوة وقال نو نو نحن لم ننته من العرق بعد. نحن لسنا سكارى. اتركي العرق. وقف طنوس وقال له: اترك يدها فورًا فيت. وقف السنغالي قبالة نجيب فدفعه نجيب بقوة وقال للفرنساوي فيت، وكان ما زال ممسكًا بذراع سلمى فيت. ليس لا جو كاس لا تيت. ترك الفرنسيون يد سلمى ووضع يده على خصره. صرخت سلمى: معه فرد. خطف نجيب ألفيّة العرق من يد سلمى وضرب بها رأس الفرنسيون بأسرع من البرق، فوقف نصف وقفّة وخرّ على الأرض. نظر الرجلان إلى السنغالي فوجداه جامدًا ظهره إلى الحائط ثم ما لبث أن رفع ذراعيه وصار يقول نو نو

قال طنوس هيدا مات. مات لا يتنفس. رأسه مفتوح شبرًا مكسور. ثم قال: مكسور ونخاعه خرج من أذنه. ركع السنغالي الذي بدا جليًا أنه فهم ما جرى وصار يضرب بكفّه على رأسه. ماذا فعل به؟ هذا رأى كلّ شيء ويعرف البيت. قالت سلمى اتركه يذهب. لا أحد يدري بمجيئهما إلينا وهو لن يجرؤ على الكلام إذ ما الذي أتى به إلينا، سرًّا؟ ثم أشارت للسنغالي بالخروج، فخرج مواربًا وغاب في الضباب.

خرج الثلاثة من البيت الصغير وجلسوا واجمين، ناظرين في لبّ البخار الليلي السميك. ثم قال نجيب، معه فرد، كان سيسحبه ويقتلنا قال طنوس: إي، معه فرد أنا رأيته في حزامه. ثم عادوا إلى السكوت.

قالت سلمى كان سكران وكان سيقوّصنا هذه هي ساعة التخلي

قال طنوس: لا ذنب لنا إمّا هو وإمّا نحن. فهز نجيب رأسه قائلاً إي. ما كان بإمكانني أن أتركه يفعل رأيته ويده على حزامه. هل شفت الفرد يا طنوس؟ قال طنوس، شفته، أدخل ستراه مكشوفًا

ثم قالت سلمى هكذا أراد الربّ. إنها إرادته.

الآن يجب أن نقبره.

طنوس، أحمل الرفش من وراء البيت وانزل إلى جلّ الذرة. أنا ونجيب سنجرّه. لقد حصل ما حصل الآن يجب أن نسرع.

قال طنّوس سنصلّي عليه. قالت سلمى: طبعًا وسنطلب لنفسه الرحمة.

في طريق عودتهم لم يفتح أحد فمه بكلمة. وحين وصلوا إلى البيت ذهبت سلمى رأسًا إلى زيت العذراء وأضاءت الفتيل فرسموا إشارة الصليب مطأطي الرؤوس.

قالت سلمى هذا عمره، خلص زيتته. كتب له الربّ هذه الميته، بعيدًا عن بيته وأهله، لكنّه هو من جنى على نفسه، الله يرحمه.

كان شابًا ما يزال، قال طنّوس، فرفعت سلمى صوتها، تريد أن تبكي عليه يا طنّوس؟ تريد أن تبكي عليه؟ إبك. هذا أفضل من بكائي أنا عليك أو عليكما كان يريد أن يقوّصنا وكان طنّوس يرتجف بقوّة فألقت سلمى شالها على كتفيه.

قال نجيب: أنا بالي مشغول من هذا السنغالي ربّما ضربوه وأجبروه على الكلام.

قالت سلمى وهل كنّا سنقتله؟ لو فرضًا هل كنّا سنقتل الرجل؟ قال طنّوس ماذا نفعل الآن، ربّما تكلم. وساقهم إلينا

قال نجيب: هو لا يعرف أحدًا منّا، لا أسماءنا ولا بيوتنا لكنّه يعرف بيت الحفلة. ويتعرّف إلى وجوهنا إن رأنا

قالت سلمى، بيت الحفلة لن يطلع إليه أحد. حتى الربيع على الأقلّ. قال طنّوس أنا رأني مرّتين أو ثلاثة. لن أبقى في

الضيعة. إن داروا به يفتشون بين البشر سوف يتعرّف عليّ. يجب أن أهرب. يجب أن أطير في الجرد.

ثم سكت الجميع، إلى أن قالت سلمى. ستموت دنقًا في الجرد. إمّا أن تذهب إلى عيناتا وهناك يحمونك، وإمّا أن أطلع الآن إلى عمي يوسف كي يرسلك بمعرفته إلى حوران.

قال طنّوس وهو يكاد يبكي، لم يعد لنا أحد نحتمي به في عيناتا

الفصل الثاني

يا ملاك النسيان الأجل بين الملائكة .

يا ملاك النسيان ذا جناحي الرأفة والرحمة، أفردهما على
الخطأة .

يا ملاك الشفقة الأقرب إلى قلوب البشر أقم بيننا ولا تنسنا
انزل في جفوننا وأغمضها عمّا رأّت وشاهدت، واطوِ صفحات
المرارة، واغسل أفواهنا وحلقنا من طعمها ومن أشواكها وإبرها
العالقة .

هدرتُ وسالت مياه كثيرة في النهر، ذابت ثلوج وتوالت
مواسمُ وفصول . سار ركب الحياة، تغيّرت أشياء كثيرة وظلّت
أشياء على حالها

لكن . لم ينس أحدٌ مقتل الفرنساوي إذ لم يأت أحد على
ذكره مرّة واحدة . ذلك أنّ سؤالاً وحيداً عالقاً ظلّ يدور في
الرؤوس ولم يخرج إلى الأفواه : ماذا لو كان الفرنساوي يريد
إخافتنا، تهديدنا فقط بمسدّسه . ماذا لو كان يريد فقط الإشارة إليه

على خصره لترك له العرق على الطاولة . ذلك ما لن يعرفه أحد إذ بقي المسدّس في جيبه الجلدي ودُفن معه .

لم يطلع أحد إلى حقلة بُنحلي . تُركت بوراً حتى أكلها الهشير كثيرون أتوا يريدون شراءها يصطحبهم سابا قالت سلمى لا نريد بيعها ، حين يعود طنّوس من غربته سنعمّر فيها بيتاً فهي واطئة وتصلح للعمار

كانت سلمى أفهمت الجميع أنّ غربة طنّوس تعني أستراليا ذهب إليها إذ بعث إليه أولاد الدبّاك يريدونه على عجل . على عجل ، في ليلة واحدة ، كانت تقول لمن جاء يلومها وهو يريد إرسال أغراض ورسائل معه إلى هناك . حتى نحن لم نودّعهُ ، كانت سلمى تقول متأقفة من ملامة الناس وحين كانوا يسألون أين هو في أستراليا ، في ملبورن إن شاء الله حيث أولادنا ، يتعاونون في الغربية ، أو تجيب سلمى أيش عرفني ، حيث هم أولاد الدبّاك . الله يهوّن غربته ويردّه إلينا ، فيجيب السائلون : أمين ، ثم يسكتون إذ لا يجدون صرفة أو تدبيراً لشكوكهم الكثيرة .

لن تقول سلمى إنّ طنّوس في سوريا ، إذ سيعرف الجميع أنّه طيّار ، وهارب من فعلة ، كمثل هؤلاء الذين يأتون إلينا طيّارين فارّين من هناك . طمأنها عمّها يوسف مراراً عن أخيها قال لها ، إنّ طنّوس صار بطلاً هناك إذ فهم من حماه من السوريين الحوارنة أنّه طيّار الفرنساويّة .

لكن ، مضى زمن على ذهاب الفرنساويّة من عندنا ، سنوات ، ولم يرجع طنّوس . ولأنّ سلمى تحمل دين عمّها على كتفيها فهي

لا تصرّ عليه بالسؤال عن مكان أخيها ولماذا لا يرجع حتى بدا لها أنّ عمّها يوسف لا يعرف هو نفسه شيئاً عن طنّوس .

والحياة . ترسل ألعاباً للناس ، تلهيهم وتسليهم وتعينهم على احتمال ما يُتعبهم ويُسقيهم . ترسل ما يغيّر أفكارهم ويخفي ، في مكان ما ، الأسئلة التي تحيرهم ولا يجدون جواباً لها

تسلينا كثيراً بالاستقلال الذي حمل إلينا شعوباً وأناساً من آخر الدنيا ، خاصّة في الأرز فتحت الناس مصالِح واشتغل أهل الضيعة أشغلاً كثيرة لم تكن تخطر في البال . أمّا فيما بيننا فلو لم تكن الأرزة - أرزة الربّ ، أرزتنا ، في وسط العلم لما رفعه أحد أو اهتّم أحد بهذا الاستقلال ، خاصّة لمن بقي في الضيعة لم يتغيّر عليه الكثير إذ لم يجد شغلاً في الأرز لكن مفخرة حصولنا على البطريكية عزّز ، وإلى أبعد حدّ ، شموخ قريتنا التي صرنا نسمّيها بلدة . وخالي يقول بلداً وأمةً وناموساً

وخالي الذي وظّفه نائب عائلته في البلدية كان يضع راتبه في جيبه ويكزدر ويتسلّى بالمشي وراء البنات ويصرف في الحفلات . ورغم أنّ نصف شعره صار أبيض إلا أنّ حماسته التي يلهبها أيّ شيء ظلّت ترميه في مشاكل تنتهي غالباً بضربه ، ولا يتعظ . صار يفاخر بقاموس جديد يحبّ ألا يفهمه خصمه فيقول في الساحة ، بلا داع ، هكذا هذا يعتقد نفسه ابن همرشولد وهو لا يفهم شيئاً في الناموس . ويروح خالي يضحك مشيراً بسبّابته إلى من قرّر السخرية منه والمرجلة عليه إذ يجده فاغراً فاه لا يفهم القصد من هذه التعابير . الغربية . ومرة حبسه الدرك إذ سمع في الضيعة أنّ

أجانب يصوّرون فيلمًا في الأرز فاستأجر عربيّة من الساحة وطلع رأسًا إلى الغابة وصار يسأل الأجانب عمّا يفعلونه على أرضنا، قائلاً إنّه موظّف في البلديّة يريد أن يعرف ما الذي يُحاك عنى أرضه الطاهرة. وحين شرح له واحد من الجماعة التي تصوّر أنّ الفيلم يحكي قصّة جميلة التي ذبحها أخوها تحت شلوح الأرز، لأنّها أحبّت مسلمًا متواليًا من بلاد بعلبك وهربت معه، طار عقل خالي، وجنّ جنونه أكثر حين تعرّف إلى بنات من الضيعة ألبسهن فريق الأجانب هذا لباسًا بدويًا لماعًا وعلى رؤوسهن طراطير، فأخذ يقفز في الهواء ويصرخ ما لهؤلاء العكاريت وبناتنا؟ لماذا أتوا من آخر الدنيا ليحكوا عن جميلة؟ أليس في بلادهم بنات يروون حكاياتهنّ؟ نحن بناتنا عرضنا، وناموسنا لا يقبل بذلك، لا أحد يتكلّم عن بناتنا لا أحد يتكلّم عن بناتنا نذبحهن أو لا نذبحهنّ نحن أحرار في أرضنا والغريب لا يتدخّل ويسائلنا ويبحبش في أسرارنا ثم اقترب منه واحد وبيده ورقة وقال له: يا شبّ القبضاي نحن معنا تصرّيح، الآن أتركنا نشتغل. هذا التحقير سمعته بنات الضيعة اللابسات بدويّات بالطراطير، وكلّ الناس الذين تجمّعوا على صوت صراخه. راح خالي يقول: أنا الورقة ومن يعطي الورقة. هذه لا تنفع، يلا انقبرو من هون أحسن ما أكسر رأس أكبر واحد فيكم. حتى حملة الدرك إلى مخفر الأرز. وكان رئيس المخفر رجلاً غريبًا عن ناحيتنا كلّما سأل خالي سؤالاً يجيب خالي أنّ هنا ناموسًا وهذا لا يصحّ ثم يقول هنا الناموس، بلد الناموس، ورئيس المخفر لا يفهم، إذ إنّ الناموس عنده، في بلده، تعني البرغش والبعوض والذباب العقّاص، حتى

اعتقد أنّ خالي مجنون فقال لعسكره هذا أخوت ارموه في النظارة
وابعثوا خبرًا إلى أهله ليشيلوه عنّا

ثم صار خالي لا يتكلم إلّا في موضوع السينما التي يريد أن
يفتحها في الضيعة ولا يجد شريكًا يقتنع بالتمويل ويدفع له المبلغ
الذي ينقصه، والمبلغ الذي ينقصه هو في الحقيقة كامل رأس
المال، إذ لا تهدأ الليرة في جيبه مهما حاول واتخذ من قرارات.
فخالي وحيد أخواته البنات، لذلك لا تخلو جيوبه حتى يعرف ما
معه وما عليه. ولأنّه يعرف أنّ أخواته سيتنازلن له عن كلّ الأملاك
إذ لا يجوز لأيّ واحدة مهما كانت فقيرة أن تأخذ شيئًا من تركة
أهلها لأخيها الوحيد فيتوزّع الإرث على الغرباء، عائلات
الأزواج، فهو يشعر أنّه غنيّ حتى حين لا يكون في جيبه فلس
واحد. هكذا لا يفهم خالي لماذا لا يجد شريكًا يقنعه بمشروع
السينما، متوجّسًا من أنّ أحد هؤلاء الذين يتكلم معهم في
الموضوع سيسبقه حتمًا ويسرق فكرته فيفتح سينما ويلعب بالذهب
لعبًا

وستمرّ الأيام وتتعاقب الشهور قبل أن يقلع خالي عن مشروع
السينما في الضيعة.

لكنّه، بالحجج والبراهين نفسها، وبالسعي الدؤوب إياه، راح
يلاحق الناس بفكرة مشروع أوتيل في الأرز لمّا رأى أنّ الأوتيلات
كثرت وأنّ أيًا كان تقريبًا يستطيع أن يعمر أوتيلًا أو ما شابه. وهذه
المرّة اعتقد خالي أنّ مشروعه سيكون أكثر إقناعًا إذ هو سيقدم
الأرض للشريك. لكنّ أرضه هذه كانت عالية في الجرد، بعيدة عن

منطقة الأوتيلات بجانب الأرزات أو معسكر فرنساويّة. فسخر منه الناس وراحوا يقولون له إنّ مواسم الحمّص تدرّ هي أيضًا أرباحًا معقولة .

بعد ذلك، وحين رأى الخال - إذ هكذا صار يدعوهُ الجميع - كيف تتعاطم أعداد المتزلّجين على الثلج، راح يهدّد ببناء مصعد آلي خاصّ به على أرضه، وظلّ يقول، لفترة طويلة إنّه يدرس مشروعه المستقلّ مع مهندس طلياني كبير، وإنّ كراسي مصعده، كما الآلات ستأتي من بلاد الطليان وستكون من نوع حديث جدًّا، لم يره أحد في بلادنا

لكنّ السينما عادت إلى خالي من حيث لم يتوقّع، بالمرّة.

كان عرس مريانا ابنة عمّي أجمل من أعراس بنات البكوات
والمشايخ الكبار هكذا راحت الناس تقول، إذ دام عرس مريانا
ثلاثة أيّام لكن، ليس في الضيعة فحسب بل وفي الأرز أيضا

في الأرز، قالت أختها مرتا، كان العرس مختلفاً شيك،
في الأوتيل والمعازيم أغراب وأجانب ومن كلّ الدنيا التي خلقها
ربّنا لا طبل ولا زمر ولا خلاقين طبيخ في الساحة، وأبو الزلف
وعتابا، وسيف وترس وفوضى، وناس نعرفهم وناس لا نعرفهم.
فوق، الأمور مرتبة. شيك أكثر يا سلمى لماذا لا تطلعين إلى
عرس الأرز؟ لماذا أنت دائماً هكذا؟ قالت لها سلمى إنّها لم تكن
تستطيع أن تحضر في المكانين معاً وإنّ منظر خزّون على فرسها
كان لوحده متعةً للنظر، رغم أنّ خزّون ختيرت وشاخت وما عادت
أبدًا كالسابق، لكنّها من أجل عيني عمّي ألهمت رؤوس الخليقة.
حتى الخوارنة دبكوا ورقصوا حولها وقوّصوا في الهواء يعني،
تقريباً وحياة العذرا مريم بعض الخوارنة أخذوا بواريد من أيدي

الشباب وصاروا يطلقون النار في الهواء. أنتم لم تشاهدوا كل شيء جرى هنا، قالت سلمى.

ثم قالت سلمى لمرتا تعرفين أنّ كلّ عرس له قرص الناس يتساءلون لماذا مر البيك مرور الكرام، أعني بيك العائلة، ولم يقعد طويلاً في بيتكم. يقولون إنّ أباك والبيك ليسا على وئام كامل، لأنّ عمّي استبقى ابن فخر وهو فرخ زعيم. وابن فخر راح يقول أمام البيك، متحدّياً لا أحد يقبل يد أحد، لا أريد، أنا لست المطران، حتى المطران نقبل خاتمه لا لحم يده، يجب الخضوع للربّ وحده. حتى صار الناس في الضيعة يقولون إنّ فخر بروتستانت، ولا يفهمون لماذا يريد أبوك أن يعمل منه زعيماً ويعادي البيك والانتخابات قريّة.

قالت مرتا إنّ البيك يستبدّ بالناس كأننا في أيام العثملي هكذا يقول أبي، ثم هو قلل من احترامنا ولم يعين أخي حتّى في الوظيفة التي طلبها له أبي، رغم كلّ الهدايا التي حملناها إليه. لماذا؟ لا أحد يفهم. قال البيك إنّ حتّى لا ينفع في الوظيفة التي تكلم عنها أبي، وإنّه سيجد له أفضل وأحسن منها زعل أبي ومعه حقّ، إن كان البيك يريد أن يختار بنفسه وظيفة لحنا فهذا لا يعني أنّه يخدمنا أبي، سوف ترين، سيجعل من فخر زعيماً حقيقياً، وهو - يقول أبي - حتى لو لم يربح الانتخابات أمام البيك فسوف يضعفه ويأخذ منه أصواتاً ويقهر قلبه. وحين سألتها سلمى لماذا يصرف كلّ هذه المصارفي على فخر ولا يحمل حتّى نفسه، ابنه، إلى الزعامة، قالت مرتا لأنّ حتّى حمار ولا يحسن الكلام أو الخطابة مع الشعب مثل فخر لكن سوف ترين.

ظلت مرتا لطيفة وطيبة، تحبّ الجميع وتزورهم. تعطينا من فساتينها وأحذيتها الكثيرة، خاصة للبنتين صابات وإميلين تقول بنات عمّي وأحبكّن ولا أنساكنّ، فقط لا تقلن لأحد، حتى أمّي لا تقلن لها نأخذ منها كلّ ما تأتينا به، وحين أسألها لماذا لا تتزوّجين يا مرتا، سبقتك أختك وسوف تعنسين مثلي، تجيب: يا سلمى حظيها في رأسك أنا لن أتزوّج سوى أجنبي. حتى أبي لا أردّ عليه وأقول له: بدل الصراخ على رأسي دبّر لي عريسًا من الأجانب الذين تصاحبهم.

تتهيأ مرتا التي نحبّها بكلّ جوارحها للعريس الأجنبي. فبعد موت المعلّمة نجيبة وتجدد طاقم الراهبات الطليانيّات صارت مرتا تذهب إلى دير الكرمليات، وتصاحبت مع الراهبات الجديّدات، تساعدهنّ في كلّ شيء وتتعلمّ الفرنسي والطلّياني منهنّ وصارت تصطحب البنّتين صابات وإميلين معها وبتنا نسمع البنّتين ترطنان مثلها بالفرنسي والطلّياني، ومن يراهن معًا، في ثيابهنّ الشيك، كما صرن يردّدن، يعتقدنّهنّ أخوات، وبنات عائلة من عائلات الزعامة، هنّ الثلاث. وصار سابا يقول غاضبًا البنّتان تعتقدان أنّهما من بيت خرّم بيك. هذه مرتا تلبسهما ثيابها وتأخذهما حيث تشاء وسوف تعنسان مثلها مرتا خوتة وأختاك سينتهي بهما الأمر مثلها، لكن هي - مرتا - أبوها يلعب بالمصاري وبالذهب وهنا الفرق. ألا كلمة لك يا سلمى على أختيك؟ ها أنا أحذركم جميعًا

حين أتحيّن فرصة أن يكون سابا هادئًا - ونحن بتنا قلّمنا نراه في البيت - فأسأله عن مصدر ثراء عمّي البائن، يجيبني بسرعة:

عمّك ذكي، ألا ترين بعينك كم هو ذكي، فأحاول مجدّداً أن أفهم شيئاً فأسأله: طيّب يا سابا أنت الذي يحبّك عمّي كابنه حتّى لماذا يعادي البيك الآن بعدما حملنا جميعاً إلى بيته لنقبّل يده ونشهر الطاعة؟ هل من الذكاء أن يحطّ عمّي نقره من نقر زعيم العيلة ويفرق بين شبابها على أبواب الانتخابات؟ ينرفز سابا، كعادته، ويقول قبل أن يخرج هذا الذكاء من عند الربّ، هكذا، أسألي الربّ، يجب أن يكون رأسك ذكياً مثل رأس عمّك حتى تفهمي. الفهم ذكاء أيضاً لا تغيري الموضوع شوفي أختيك وتكلّمي إليهما وإلا

وطبعاً خسر فخر الانتخابات. ومع أنّه كان يتوقّع الخسارة، راح يخطب في الناس كأنّه ربحها يجمع له عمّي الناس فيروح فخر يشربّ ويهدّد ويتكلّم بالمنطقة والوطن والحزب، ثم بالشرف والإباء والعنفوان، كأنّ خصومه، الذين يسميهم «حزب هؤلاء»، لا يتسمون بأيّ من هذه الخصال. وحين يستغرق فخر في سبّ وشتّم أهل كسروان، أو بالأحرى زعماء كسروان وعموم الإقطاعيين، يتساءل الناس عن علاقتنا نحن بكلّ هذا، ولماذا لا يفصح فخر عن المعاني التي يظنّ يدور حولها ولا يشرحها مباشرة. لكنّ الناس، كعادتهم حين لا يفهمون، يعتقدون أنّ عدم فهمهم دليل على عبقرية الخطيب، وأنّ الذكيّ منهم قد فهم لا بدّ، وأنّ عليهم إذن أن يهزّوا رؤوسهم علامة على أنّهم يفهمون.

وحين يخطب فخر يكون واقفاً وعمّي جالسا بقربه يتكئ على عصاه، عابسا ومُطرقاً في الأرض للأهميّة. فيما حتّى وسابا وراء فخر، واحد عن يمينه وواحد عن يساره. يراقبان الجمهور كأنّهما

يتحسبان لوقوع مشكل . أما نحن، أنا وطنوس والبنتان فنروح نتفرج وقد أجبرنا عمي على السير وراء فخر وعلى إطلاق الزغاريد كلّما مر في الحارة ولولا المعارك الخفيفة التي جرت مع العائلات من الحارة الفوقا، ثم مع بعض قرى الجوار، لكان شباب العائلة، بين زعامة البيك وزعامة فخر، قتلوا بعضهم بعضاً ووصل الدم للركب . لكنّ العذراء مريم أرسلت لنا حرباً مع أعداء خارجيين فهداّ العداة قليلاً فيما بيننا بحسب ما اقتضته تحالفات اللوائح .

وطبعاً بعد أن ربح البيك راح رجاله يزركون لنا، خاصّة في الحارة وخاصّة نساء الحارة، ونحن لا نردّ، في ما عدا سابا طبعاً الذي خرج من المعركة برصاصة في فخذه ألزمته البيت وألزمته الهدوء أيضاً، إذ قال عمي بأنّ هناك مساعي جادة للصلحة، فلننتظر إن كان الفريق الآخر سيلتزم بشروطه . أم لا

أرسلتُ نبيهة لعند مارغو قلت لها يا نبيهة هذه مشكلجية وفردها مجهّز في عبّها، رصاصه في بوزه، وكلامها فالت من الزنار ونازل، ولا أحد يقوى عليها صوتها جعاري ويودّي وجرّصتني في الحارة . كلّما مددت رأسي خارج باب البيت تكفر لي بالربّ، وأولادها من ورائها فريق كامل ويقذفون الحجارة على البيت . اذهبي إليها، قولي لها يا مارغو سلمى تحبّك وتحترم البيك وتريد أن تشرب عندك فنجان قهوة وأنت بيتك مفتوح أنت يا نبيهة ستسمع كلامك لأنّ نجيب بقي على الحياد ويحاول الجمع بين البينين، ومارغو تعتقد أنّي مثل أخي سابا أفهميها كيف يجبرنا عمي ولا نستطيع أن نكسر كلمته . قولي لها أريد أن أشرب عندها

فنجان قهوة، وأقبل سالفها، في بيتها أو في دكانها، حيثما تريد. اذهبي إليها يا نبيهة، مارغو ستشعل الحارة من جديد.

وقد تضربني، ماذا يردها اذهبي إليها يا خا، إن كان الرب يريد لنا السترة سوف تستمع إلى كلامك. سارعي إليها قبل أن تتوق بي وتمسكني، هذه لا يهتمها أحد، وستفعل بي ما فعلته بالمجلخ الطرابلسي من يومين في الساحة. ظلّت تضربه حتى بعد أن أغمي عليه لأنه ناقشها بالسعر ولم يرض بما دفعته. الناس تحاول تكتيفها وردّها عنه قبل أن يموت وهي تقول: دعوني على ابن الشرموطة هذا أريد أن أسن سكاكيني على عظامه طرابلسي عكروت، لا يكفي ما يفعله الإسلام بنا في الساحل والجرد، وهو يريد أن يفرض قوانينه هنا، سأ يك أبو طرابلس الفيحاء ومن فيها وزوجها نعمة يقول من بعيد معها حق، رأسها لا يتحمل الزاحلة والاعوجاج وهي تفلت من أيدي الرجال وتقول سأقطع ز ره المطهر وأدفنه تحت عتبة مار سابا

روحي إليها يا نبيهة، هذه مارغو شرّانية، ولن تراعيني أكثر من ذلك، ولن ينفع سكوتي أو قعودي في البيت، دخل إجريك يا خا

هدأت زيارة نبيهة - التي يحبها جميع أهل الحارة - من غضب مارغو قليلاً، لكن المشكلة لم تحلّ تمامًا - أقله مرحلياً - إلا عندما حملوا إلى مارغو ابنها جوزيف ميّتا بعد أن سقط في الوادي. كان الفتى بسيط الروح والعقل، ولأنه طويل كأبيه كان الأولاد يحمّسونه على قطف ثمار التين الناضجة، البعيدة في الأغصان الذاهبة عرضاً فوق هوة الوادي. لمّوه من تحت، جثّة

هامدةً شبه مقطّعة الأوصال وغارقة في الدم.

لَمَّا سمعت سلمى بالخبر حزنت كثيرًا على المعترّ، وقالت في نفسها قبل أن تعرف مارغو ابن من أغرى ابنها بقطف الثّين ويعلق المشكل وتضيع الطاسة، سأراضيها بالبرهان.

راحت سلمى تصرخ وتولول بأعلى من أصوات النساء مجتمعات. يا ويلي ي ي ي ي. تنتف شعرها وتصرخ يا ويلييييي، يا ضيعان الشباب وخسارة الأوادم. يا ويليييييي الله يشحّر قلب أهلك يا ويليييييي. الله ياخذك يا مارغو ويريحك من هالمصيبة. يا ويلييييييي لشو عيشتك بعدو يا أمّو يا ويليييييي قالت نبيهة الله يصبرها ويخلي لها إخوته فلم تردّ سلمى حتى صارت تقول يا ابن العذرا، يا طاهر يا مفخرة أهلك وعيلتك، يا قبضاي، يا زكرت، يا راعي النشامي، فانحنت نبيهة بسرعة ورفعت سلمى عن الأرض وشدّتها إليها وقالت في أذنها راعي النشامي، جوزيف الأبله المعترّ؟ ستعتقد مارغو أنك تسخرين من ابنها، فصرخت سلمى، يا عزيز على أهلك مهما كنت، فجرّتها نبيهة من ذراعها وهي تقول. يكفي، الله يآجرك، ثم في أذنها سكّري بوزك عسى ألا تكون سمعتك

لم تتوقّف سلمى طيلة أيّام العزاء عن حمل صواني القهوة والأكل إلى بيت مارغو، تستقبل إلى جانبها المعزّين كأنها من أهل البيت، وقبل أن تسرّب في الليل تجلي الفناجين والصحون وهي تصلّي بالصوت المسموع. وليلة نزل البيك يعزّي بجوزيف، ظلّت سلمى عندهم ونامت على الكرسي، في بيت مارغو.

تزوَّج حنّا بنتًا من زحلة. قالوا إنها غنيّة جدًا وعرسه دام سبعة أيّام لا ثلاثة.

العمى، تقول سلمى مهما كانت الزحلاوية غنيّة، سبعة أيّام؟! تسأل سابا، أهل العروس دفعوا المصاريف؟ فيجيبها سابا مفاخرًا وهل يرضى عمّك يوسف؟ لو سمعك عمّك د.

قالت مرتا، وحيّة سانت ريتا - إذ هي ما عادت تحلف بالعدرا - وحيّة سانت ريتا، التي لم أنته من تساعيّتها بعد، هذه الضيعة ستخرب يومًا ما على رأس أهلها يقولون إنّ العروس من الكاثوليك وكأنّ الكاثوليك إسلام أو يهود. حتى الخوري لم يصدّقه بأنّ الكاثوليك مثل الموارنة تمامًا وصاروا يسألونه لماذا إذن اسمهم غير شكل؟ وقدّاسهم غير قدّاسنا؟ ولماذا لوائحهم غير لوائح الموارنة في الانتخابات؟ ألا يعجبهم الموارنة حتى يستعملوا اسمًا أجنبيًا؟ ولماذا يصلّبون بثلاثة أصابع وليس بالخمسة مثل الناس؟

حتى إشارة الصليب عملوا منها قصّة. يتكلّمون من جهلهم. يعتقدون أنّ الكاثوليك مثل البروتستانت. وهم يقولون بروتستانت

أو بَسْتَرْتِ وَيَلْفُظُونَ خَطَأً لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُتَعَلِّمِينَ . طَيِّبِ هَلْ رَاهِبَاتٍ
وَرَهْبَانَ الطَّلِيَانَ مُوَارِنَةَ أَمْ كَاثُولِيكَ؟ أَلَيْسُوا مُسِيحِيِّينَ؟ حِينَ تَقُولِينَ
لَهُمْ ذَلِكَ يَجِيبُونَ: لَا تَوَاخِذِينَا يَا مَرْتَا هُوَلاءِ أَجَانِبٍ، طَّلِيَانَ، هُنَاكَ
فَرَقٌ . وَسَلْمَى تَفَكَّرَ فِي تَصْحِيحِ لَفْظِهَا هِيَ أَيْضًا لِكَلِمَةِ بَرُوسْتَانَتِ .

تَكَادِ مَرْتَا تَبْكِي حَنَقًا يَا سَلْمَى وَحَيَاةَ سَانَتِ رَيْتَا، حَلْفَتِكَ
بِشُوكَتِهَا الْمُقَدَّسَةِ - وَلَمْ تَكُنْ سَلْمَى تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ هَذِهِ الشُّوَكَةِ -
فَقَاطَعْتَهَا سَائِلَةً عَنِ الشُّوَكَةِ الْمُقَدَّسَةِ فَأَعْطَتْهَا مَرْتَا كِتَابًا صَغِيرًا وَقَالَتْ
لَهَا هَذِهِ صُورَتُهَا وَقَصَّتْهَا وَتَسَاعَيْتُهَا، خَذِي وَصَلِّي لِأَنَّهَا عَجَائِبِيَّةٌ
كَسَيِّدَةِ بِشَوَاتٍ أَوْ حَتَّى أَكْثَرَ فَقَالَتْ سَلْمَى مُسْتَنْكَرَةً: سَيِّدَةُ بِشَوَاتٍ
هِيَ الْعِذْرَاءُ، وَهَذِهِ سَانَتِ رَيْتَا قَدَيْسَةٌ، لَا تَغْلُطِي يَا مَرْتَا فَقَالَتْ
مَرْتَا فَقَطْ مِنْ حَيْثُ الْعَجَائِبِ، إِذْ عَجَائِبُ سَانَتِ رَيْتَا مَعْرُوفَةٌ لَيْسَ
عِنْدَنَا فَقَطْ، بَلْ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ . ثُمَّ عَادَتْ مَرْتَا إِلَى
مَوْضُوعِهَا الْمُهَمِّمِ يَا سَلْمَى . أَنْتِ رَأَيْتِ الْعُرُوسَ، هَلْ هِيَ بِشَعَةٌ
كَمَا يَقُولُونَ؟ قَالَتْ سَلْمَى لَا، لَيْسَتْ بِشَعَةٌ أَبَدًا لَكِنَّهَا لَيْسَتْ جَمِيلَةٌ،
فَقَالَتْ مَرْتَا وَهَلْ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْجَمَالِ؟ هُوَلاءِ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ
أَنْفُسَهُمْ خَيْرَةَ الْمَوَارِنَةِ هَلْ قَالَ لَهُمُ الْإِنْجِيلُ، إِنَّ الْجَمَالَ أَهَمُّ شَيْءٍ؟
هَلْ يَقُولُ الْإِيمَانُ الْمَسِيحِيَّ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ لَهَا سَلْمَى: إِنَّ النَّاسَ
يَقُولُونَ إِنَّ حَنَا تَزَوَّجَهَا مِنْ أَجْلِ مِصْرِي أَبِيهَا وَلَيْسَ لِأَنَّهَا جَمِيلَةٌ أَوْ
لِأَنَّهَا أُغْرِمَ بِهَا وَيَقُولُونَ إِنَّ أَبَاهَا تَاجِرُ سِلَاحٍ وَلَيْسَ مَلَأَكًا كَمَا
تَقُولُونَ . لَكِنْ لَعَلَّ هَذِهِ الْخَبَرِيَّاتُ مِنْ حَسَدِ النَّاسِ مِنْكُمْ . تَعْرِفِينَ
الْحَسَدَ، عَيْنَ الْحَاسِدِ تَقْتُلُ، مِثْلُهَا مِثْلُ الرِّصَاصَةِ . فَقَالَتْ مَرْتَا تَنْهِي
الْمَوْضُوعَ، إِذَنْ فَلْيَقْتُلْهُمُ الْحَسَدَ، وَسَحَبْتَ الْبَنْتِينَ وَرَاءَهَا وَهِيَ
تَرَدَّدُ: أُمِّي تَرْقِينَا كُلَّ مَسَاءٍ وَتَرْقِي الْبَيْتَ وَلَا نَخَافُ أَحَدًا .

لكنّ الناس قالت أكثر من ذلك بكثير، ولم تشأ سلمى أن تقهر قلب مرتا تريزيا ولبيبة وألماظة بنات عمّها رزق وخليل ونديم وفتيانوس أولاد عمّها فريد حلفوا جميعاً على الإنجيل المقدّس بأنّ ما يُقال حقيقي، وأنّ ابن عيد نفسه اعترف للدرك والجنדרمة وهو من أخبر الناس ليدافع عن نفسه. جميعهم رووا الحكاية نفسها

حين قرّر رئيس الجمهوريّة زيارة الأرز والصلاة في كنيسة بمناسبة عيد الربّ دعاه البطرك إلى مأدبة غداء عامرة في الدير، وكان البطرك طلب من جميع النوّاب والزعماء والمشايخ والبكوات أن يحشدوا الناس، كلّ منهم يحضر ربه ورجاله، بالسلاح والأعلام. وقال البطرك إنّ الوضع حسّاس ونريد أن نملأ عين رئيس الجمهوريّة، فيرى بنفسه ما لنا من وزن وهيبة وقوّة، مكرّراً على الجميع أنّ الوضع حسّاس ومهمّ. وقال البطرك إنّها فرصة عظيمة، فلتبيّضوا وجهي يا ظهر الموارنة وفوارسها الأشاوس

ويوم عيد الربّ طلعت الخليقة منذ الفجر وغطّوا الطرقات من أول جبّة الحدث إلى آخر طريق كفرصغاب مع أنّه - أي رئيس الجمهوريّة - سيسلك صعوداً إلى الأرز من مفرق الحرّيم بعد دير الراهبات. أصغر جبّ في أصغر فخذ في أصغر عائلة برهن عن وجوده هذا عدا من مثل ربه في ساحة الدير، رايات العشرات الكبيرة تخفق وبجانبتها علم الأرز في ساحة الدير، كما على الطرقات، البشر كانوا كتراب الأرض.

ناس وخلايق الله، ما عدا أهل حارة التحتا جميعهم. لم يحضر أو ير الحفل ابن مرا منهم. لم ينتبه بكواتهم وزعمائهم

إلى غيابهم إلا حوالى الظهر، وعمي بينهم. فبعثوا إليهم من وجدوه بقربهم من العالم والناس فوجدوهم نائمين على سطوحات وسطوح بيوتهم. الجميع نيام حتى الأولاد. عن بكرة أبيهم ولما راح الرسل يحاولون إيقاظهم ظانين أنهم أموات قد تسمموا، كان الواحد منهم يرفع رأسه قليلاً ويعود فيخبطه في فراشه. ثم عُرف السبب وبطل العجب.

كان ابن عيد قد فرش الحشيشة على كامل أرضه وأرض أولاد عمه يشمسها ولشدة الحر في آب اللهب نام الناس في العراء، على السطوحات والسطوح وفي كل الأماكن المكشوفة طلباً للبرودة، فحششوا في نومهم دون أن يتحسبوا لذلك إذ كانت زراعة الحشيش في أول مواسمها ما زالت.

لم يصدّق البطرك حكاية الحشيش، رغم أنّ المعنيين ذهبوا إليه على ركبهم، يحلفون له بكلّ المقدّسات، وهو طار صوابه غضباً، لا بسبب الحشيش الذي لا يهمّ لا السياسيّين ولا رجال الكنيسة، بل لأنّه اعتقد أنّ تلك العائلات منشقة عن سلطته وتريد المعاندة والتمرد. فصار البطرك يصرخ من الדיمان ثم من بكركي بأنّ شعبه لا يصلح لهذه الأمة، وأنّ زعماء المواردنة خوّانون، ومنشقون فيما بينهم كعادتهم عبر التاريخ، تقتلهم الحزازات والنكيات وحبّ المال. بل وصار البطرك يقول إنّ بلاد المواردنة سيحكمها الإسلام يوماً ما، بل الأكراد والفلسطينية! حتى حين حملوا إليه ابن عيد وأولاد أعمامه طردهم ولم يستقبلهم. وجاء الدرك يهين ابن عيد ويجرّه على الأرض أمام الجميع في الحارة وخارج الحارة ثم ضربوه في الساحة فصار يقول إنّ البيك، ورجل

البيك عمّي يوسف، أجبراه على زراعة الحشيش مقابل إخراج أخيه من حبس بعلبك، إذ كان تجّار الحشيش في عيناتا وكامل بلاد بعلبك يستبدّون بالأسعار، لأنّهم لا يجدون من ينافسهم، وزعماء الضيعة عندنا قرّروا كسر الاحتكار. لكنّ الناس لم تصدّق ابن عيد تماماً حين صار يبكي ويقسم بقدميّ مار سابا، إذ الكلّ يعرف مقدار العداوة التي بين البيك وعمّي يوسف، فكيف يكونان شريكين في تجارة الحشيش وفخر، فرخ الزعيم، ما زال يخطب في الجماهير ويقول عن جماعة البيك «حزب هؤلاء»

لكن. لكن عرس حنّا وثناء العروس الزحلاويّة أعادا الحكاية إلى الأذهان، فصار الناس يقولون ربّما ربّما لم يكذب ابن عيد في كلّ ما قال. ربّما الله وحده يعلم. لكنّ هذا البذخ وهذا الفحش الذي لم يعرفه بيت المزوّق قبل يوسف. ثم راحوا يقولون إنّ والد العروس ليس تاجر سلاح بل هو تاجر حشيش، وإنّ أناساً من زحلة معروفين أكّدوا لهم أنّ الرجل مشهور في بلاد بعلبك، وهذه شغلته. وهذا لا يُعيب الرجال على كلّ حال، لكنّه هو تاجر عكروت وغير شريف ونصاب.

ثم. حين بدأ حنّا يعمرّ أوتيلاً في الأرز، وتنزل عروسه إلى الضيعة بمعطف من الفرو لتتسوّق أو تعزّي بالأموات صار الناس يقولون لسلمي، زوجة ابن عمّك حنّا تلبس الفرو في الصيف. انتبهوا لها سوف تختنق ذات يوم من الحرّ يا حيّف. لكنّ سلمى لم تكن تقول كلّ ما تسمعه لمرتا فما دخل مرتا؟ ولماذا قد تقهر قلبها؟

ابتسمت الحياة لسلمى ملء الفم، حتى بانت أسنان هذه الحياة وأضراسها، حين عاد بطريسة من طرابلس.

كادت تنسى انتظارها لأخيها طنّوس الذي طال غيابه كثيراً، رغم أنها اطمأنت مراراً على حاله واستلمت منه رسالة بخط يده يعدها فيها بأنه سيرجع قريباً وبأنه بألف خير ولا داعي أن تسافر هي إليه في سوريا، إذ ستجده في البيت بين ليلة وضحاها

ملاً بطريسة البيت وحياة سلمى كان وسيماً جداً ومهذباً جداً وتحمرّ وجنتاه كالبنات. حين ترافقه في الحارة تشبك يدها بذراعه وتروح فرحانة تتلقّت في كلّ اتجاه، فخورة به يناديها «يا عمّتي» وهي تحترق في ما تناديه به. فبطريسة اسم يليق بالأولاد، وبطرس يشعرها بأنّها تنادي غريباً لذا راحت تدعوه بـ يا ميمي أو يا بيتي أو يا رزقي. وهذه الأخيرة - وهي التي تفضلها سلمى - تقرّبه أكثر من اسم جبّ المزوّقيّة ويروق لها ذلك إذ ينسيها أنّ له أهلاً أقرب إليه منها قد يعودون يوماً من أستراليا رغم انقطاع أخبارهم حتى عند العائدين أو الزائرين بلادهم الأصليّة ممّن صرنا نسّمّهم

الكاونترى . فهؤلاء ، حالما يصلون الجبل يروحون في بكاء صريح مردّدين الكاونترى . الكاونترى وكأنّ هذه الكلمة تختصر أحزانهم الكثيرة التي لا يحسنون البوح بها ، وأيضاً أشواقهم لهذه الأرض الحبيبة ، وهي أشواق تستعصي من شدّة زخمها على الشرح ورغم محبّتنا لهؤلاء نبدأ مباشرة بعد الدعوات على الأكل والطاولات التي يمدّها أهلهم حفاوةً بهم ، نبدأ بالسخرية منهم ولا نصدّق اعوجاج ألسنتهم أو نسيانهم هكذا للغتنا ولهجتنا ويظهرون لنا إمّا كذّابين قليلاً إذ لماذا لم يداوموا على الكلام بالعربي في بيوتهم ، إن كانوا مجبرين على التعاطي بالإنكليزي في أمكنة العمل ، وإمّا ساذجين إلى حدّ البلاءة ، لا نعرف لماذا وفي كلّ الأحوال سرعان ما تتمحور الأسئلة حول ما في جيوبهم ، والأموال التي جمعوها هناك . شو؟ كيف حال الكاونترى اليوم؟ يسألهم الشباب ممازحين وساخرين؟ أمّا من تبين أنّه بقي فقيراً هناك كما كان هنا ، فالسخرية تتضاعف مرّات وتكاد تتحوّل احتقاراً صريحاً - أو حتى عدائيّة لمن أمل من أقربائهم الإفادة من أموال مُفترضة .

ي بهالكاونترى ، يقول واحدهم ، مثل ما راح مثل ما رجع إيد من ورا وإيد من قدام ، هيدا لأيتا بلي؟

لكنّ بطريسة لم يعد إلى البيت كهؤلاء صار مهندساً في طرابلس ويحمل شهادة . توظّف في معمل قاديشا للكهرباء ، وكان يخجل ويقول : لا ، لا يا عمّتي ، حين تروح سلمى تبالغ وتقول إنّهُ مدير قاديشا ولا يحصل في المعمل شيء من دون أمره . يقول يا عمّتي هذا غير صحيح سيضحك علينا الناس .

وكان افتخار سلمى بالوظيفة مضاعفًا، إذ لم تكن عن طريق
وساطة عمّها أو البيك، فقد أوصى بطريسة مهندس طرابلسي كان
معلمه حكى لجماعة قاديشا عن شطارته وتهذيبه. وتفكّر سلمى
أنّه لو وجد عمّها يوسف أحدًا ينافس به بطريسة لفعل وأزاحه عن
المعمل. هكذا، نكايةً فقط، ولأنّ الوظيفة لم تأتِ عن طريقه

من المعاش الذي كان يقبضه بطريسة كلّ شهر لم يكن يصرف
فلسًا واحدًا على نفسه جدّد أغراض البيت كلّها تقريبًا وجملته من
الخارج والداخل جعل للسطيحة سقالة كبيرة كالسقف ومدّ عليها
عريشة عنب أسود راحب تنمو بسرعة. وملأت سلمى أرضها
بأصص الزهور والورود. والبيت التحتاني نفذه بيديه، عمّر جدرانها
من الداخل ودهنها بالطلاء الأبيض الفرنجي لا بالكلس وبيت
الخلاء سوّاه في الداخل والمطبخ أيضا ومدّ القساطل في الأرض
إلى الساقية في الجللّ القريب. تنزل سلمى حاملةً إليه الأكل
وتقول. دخل العيوق، تعبت يا سندي، يكفي اليوم، لكنّه يتابع إذ
هو لا يستطيع أن يطلع من المعمل في الوادي إلا أيام عطلته

صار بيتنا بطابقين حقيقيين، تقول سلمى. بطريسة يصرف كلّ
معاشه على البيت، فوق وتحت. وهي تفكّر أنّه حالما ينتهي ستقول
له إنّ البيت التحتاني له وستزوّجه فيه لكنّ نبيهة قالت لها بأنّ
بطريسة صارحها بخصوص البيت التحتاني وقال إنّ البيت لطنّوس،
وحين يرجع من غربته سيجمده مكتملاً ومفروشًا والطبخة على النار.
وإنّه هو بطريسة، ينام في غرفة جميلة ومرتبّة جدًّا تحت في
المعمل. وحين غضبت سلمى وقالت إنّ هذا حرام، وأقسمت أنّها

لن ترضى، قالت نبيهة: معك حقّ لكن بطريسة مجبر على النوم في أوضة المعمل إذ إنّ هذا جزء من الوظيفة. في حال احتاجوه أو خربت ماكينة ما

يعود بطريسة من الساحة محملاً بالأغراض من كلّ نوع بدأت سلمى تغضب من كرمه هذا، إذ تتوجّس من أن يكون ردّاً لجميلهم في إيوائه بيتيماً حتى قالت له يوماً تعال هنا، اجلس بجانبى، لي حديث معك. كم ليرة معاشك وكم ليرة في جيبيك؟ فرحت بك وساعدتني في أمور كثيرة والآن ها أنا أقول لك كفى. أنا معي مصاري وأنت الأصغر وسابا نفسه لا يصرف على البيت مثلك مع أنّه يشتغل، لماذا تصرف أكثر من أخيك؟ توقّفت تنظر إليه بثبات وتحدّ حين قالت «أخيك» فلم يعلّق وهزّ رأسه طائعا

لكن بطريسة طلب بعد مدّة موافقة سلمى والسماح له بتشجير الأرض المتبقية. يا عمّتي، قال لها، لم تعد محاصيل الأرض تكفي أحداً تعب كثير وغلّة قليلة. شوفي الناس جميعاً يزرعون شجر تفّاح كلّ الناس لا يحتاج التفّاح لأن يشتغل الواحد له كثيرًا وأرضنا مناسبة له جدًّا وهناك نوعان: ستاركن أحمر وغولدن أبيض. ننقيّه في المواسم ونرشه مرّة واحدة ولا ننتظر كثيرًا حتى تبلغ الشجرة. نقطفه آخر الصيف ونبيعه للتجار. التفّاح الذي تحمله الأشجار هنا هو غير تفّاح العالم ويرغبه التاجر لأنّ لبه قاسٍ ويحتمل السفر إلى البعيد. سألته سلمى ونقطع أشجار الخوخ والرمان والخرمى و فقال لها نقطع ما تريدين ونترك ما تريدين. قالت سلمى لم يتبقّ الكثير من الأرض. كان ذلك علامة

على اقتناعها هناك ما يكفي لموسم محترم، قال بطريسة وحين أتى على ذكر أرض بُنحلي سارعت سلمى إلى اختصار الموضوع بمشروع بناء بيت على هذه الأرض لأنها واطئة وماؤها متوقر والناس تعمّر الآن وتبني بكثرة أحلى البيوت في بُنحلي. ثم وافقت على تشجيرها ما عدا الصيران والجلالي المحيطة ببيت الحفلة. هذه لا أحد يدعس فيها

امتأأت أراضى الضىعة بالكامل بنصوب التفأح وبأشجاره فى الصىران الواطئة والحقالى العالىة؁ لا شىء سوى التفأح فرح الناس كثرآ بما تدره المواسم وصار التجار يشترون والشعراء ينظمون القصائد بتفأحنا الجمىل الذى تذكر رائحته بتلك التى تحدت عنها مزامىر داوود.

لكن أهدا لم يحسب حساب سم الدىمول. دخل الدىمول مع التفأح الجمىل فى الوقت نفسه ولم ىجد المال نفعآ صارت الناس تتسمم وتموت كالذباب. يقولون شربوهم حلبآ غير مغلى أو ماء مملأا بقوة حتى ىفرغوا ما فى بطونهم؁ لكن الدىمول كان أقوى وأسرع؁ وقتل أعدادا فاقت ما قتلته الأسلحة النارىة فى المشاكل الفردىة.

جاء الدىمول مع التفأح كتوأم له. ولأن أقرب مستشفى للضىعة ىقع على مسافة ممىة؁ ولأن الطىب سلم بأن الدىمول غلبه؁ صار الخورى ىوصى فى القداس بكفىة مقاومة هذا السم الشىطانى وتجنب أخطاره؁ مؤكدا أن للتطور سلبىات أىضا؁ ومن رأسك

تعرف خلاصك . ضعوا لثامًا على وجوهكم حتى لا تتنفسوا السمّ واغسلوا أيديكم جيّدًا قبل الأكل . واذهبوا يا إخوتي بسلام . وحده بطريسة كان يقول، حين يتسمّم أحدهم: يجب أن نفتح مستوصفًا أو مستشفى في الضيعة فيوافقه الجميع بهز الرؤوس ولكن حين يأتي على ذكر النّوَاب والزعماء ووجوب الحديث معهم في هذا الأمر يقول بعضهم يائسًا ليش؟ ألا يعرفون بما يجري؟ في بساتينهم أيضًا تموت الشّعيلة والناس . وينصرف البعض الآخر صامتًا ويبقى بطريسة في العزاء مكلّمًا نفسه . طيّب لو دفع كلّ منّا في الموسم الشيء القليل لنبي مستشفى صغيرًا، أقله مستوصف طوارئ .

لكنّ الديمول غير على نحو خاصّ لغة العشاق وبدل فيها بل إنّه أثر في أساليب الغرام تأثيرًا قويًا، إذ صار التهديد بالانتحار والانتحار الفعلي شائعين وكثيري الحدوث . سأشرب ديمول، يقول العاشق للمعشوق الذي يعذّبه أو يتردّد في الوصل . طيّب عالديمول، يقول طالب القُرب من أهل العروس حين يرفضون تزويجه بها، كمحاولة إقناع أخيرة . ستشربه الديمول يقول الناس واصفين عذاب عاشق متيمّ تقهره حبيبته أو تتطلّب الكثير لتوافق على الزواج . حتى إنّ الديمول دخل قصائد الشعراء لوصف قوّة وفعل جمال الحسناء أو الحبيبة، الذي بات يقضي سريعًا على القلوب ولا دواء له، بعد أن كان ذلك الجمال يرمي سهامًا علّتها طويلة الأمد وموتها بطيء .

وذات يوم حمل بطريسة معه إلى البيت راديو كبيرًا قال

لسلمى يا عمّتي إيدي على العذرا مريم لم يعد الراديو غالي الثمن
كلّ الناس عندهم راديو حتى المعّازة في الجرد. فرحت سلمى
كثيرًا بالراديو ولم تعترض. قالت فقط يجب أن ننتبه من صوته حين
يكون في الحارة ميّت أو مريض على فراش الموت. لا يجوز

حفر بطريسة في الحائط المقابل لمذبح العذراء ودقّ إسفينين
معدنيّين غليظين جعل رقًا فوقهما ثم حمل الراديو وسوّاه جيّدًا على
الرفّ حتى لا يميل وزنه الثقيل إلى إحدى الجهتين. وحين أداره
راح يزيح إبرته الخضراء على عرض الزجاج المرّم حتى استقرّ
أزيزه على صوت امرأة تغني قال بطريسة سأتركه على الإذاعة
فقالت سلمى لكن أخفض الصوت. صوته عالٍ.

ثم جاءت بمفرش أبيض مخرّم مشغول بالصنارة أيام الراهبات
وغطت الراديو به. قالت لبطريسة: أطفئه الآن حتى لا يحمى، ثم
غمرت وجهه بالقبلات الكثيرة وهي تضحك.

لم يطل الوقت حتى صار البيت يمتلئ بالسّميعة وسلمى فرحة
بالسّهيرة ولا تتأفّف. تعدّ صواني الضيافة عند المغيب وتروح تنتظر
بداية السهرة مردّدة بصوت مسموع أهلاً بالجميع الذي لا يحبّنا
لا يأتي لعندنا

ولمّا تكرّرت سهرات خليل كثيرًا جدًّا، وهو لم يكن يزورنا
بهذه الوتيرة، رحت أفكّر أنّ خليل لا يأتي فقط من أجل سهرات
الراديو، وأراقب على أيّ البنّتين يهدّف. حتى تأكّدت أنّ عين
خليل على إميلين الصغيرة. التي ما عادت صغيرة بالمرّة.
فاتحتها بالأمر .. قلت لها شو يا بنت؟ هيئة ابن عمك خليل

مغروم، فاستنكرت وراحت تلبط في الأرض وتقول: كلما دخل الدار سأذهب لعند نبيهة.

صحيح أنّ خليل ابن عمّي فريد أخوت قليلاً، وهو عادي الشكل والطول ولا ينضح وجهه جمالاً، وهو أيضاً ليس غنياً كما قد تفضّل إميلين، إلاّ أنّه ما زال يافعاً ومستقبله أمامه. وخليل طيّب القلب إلى أبعد حدود، ونحبّه كثيراً لأنّه صاحب نكتة وموهوب في إضحاك الجميع حتى أولئك الذين لا يضحكون للرجيف السخن. وبذلك يبدو خليل على شيء من الذكاء إذ إنّ الأهل تضحك عليه الناس، ولا تضحك له ثم إنّ خليل الذي يسكر بسرعة إذ لا يتحمّل رأسه العرق، صار حين يأتي لعندنا يرفض الكأس الثانية ويجلس رائقاً ضامّاً ركبتيه. يأكل قليلاً ويشكر كثيراً كالأغراب. صار قلبي يشفق على خليل حتى إنّني نهرت إميلين بقوة ذات مرّة حين وقفت تسوّي ثيابها لتذهب لعند نبيهة. قلت لها لا، اليوم نسهر معاً أختك مشغولة وعندها زوّار

وحين خلا البيت وظلّت هي ملتصقة بصابات وبارمة بوزها قلت لها شوفي ليكي يا إميلين، هذه قلّة حياء ووقاحة لم يفرض عليك أحد أن تسايري خليل أو تلاطفيه أو تتزوّجيه حتى هو فهم ذلك لكنّ كلامي معك خارج هذا الموضوع وأريدك أن تدخله جيّداً في رأسك. إذا كنت يا إميلين تتشاوفين وتتعالين على الناس بكلامك الفرنسيّ وثياب بنت عمّك مرتا وتعتقدين أنّ خليل وهو ابن عمّك خيّي بيّك ليس من قيمتك فأنا سأفهمك يا حمارة ما هي قيمتك بهذه الصرماية...

صارت إميلين تبرطم. لا، لا وحياة سانت ريتا أنا فقط
 لا أحبّه، أقصد أحبّه كأخي، ثم أنا لا أريد الزواج، اسألني
 صابات. قالت سلمى أنا أسأل نفسي. لم يقل لك أحد أحبّي
 خليل أو تزوّجي خليل، لكنك تهينينه في بيتك، لا، في بيتي،
 وتهينيني أنا لا، لا، عادت إميلين تقول، لماذا؟ ماذا فعلت.
 فنترت سلمى مشايتها من رجلها وهجمت على إميلين تضربها بها
 على رأسها، وتضرب أيضًا رأس صابات لما أرادت الأخيرة حماية
 أختها الأصغر صارت سلمى تقفز في الهواء وتنهال على الاثنتين
 بالضرب مرّدة: إن كان لا رجال وراء بنات هذا البيت فهذا لا
 يعني أن ليس هناك من يربّيكما والآن لتجرؤ الشاطرة القويّة
 وتخرج من هذه الدار، وتتخطى عتبة البيت. ومن الآن فصاعدًا
 لا مرتا ولا ساحة ولا أرز. سأربّي القمل في رأسكما وسنرى.
 لا تريدان الزواج، إميلين؟ حسنًا اقعدي في البيت. أنت، من يريد
 الزواج منك أصلًا؟ هل رأيت العرسان يتقاتلون عليك، وكم واحد
 قبرنا من شرب الديمول غرامًا بعينيك؟ يا خرية. يا بكرة
 تيس. الحقّ ليس عليكما بل على رأسي أنا التي أرخيت لكما
 حبال الرسن.

خافت البنتان على سلمى لما صارت تبكي وتجعر بالعالي.
 اصفرّ وجهها وازرقت شفتاها صارتا تقولان: خلص. خلص يا
 خا بأمرك خلص لن نخرج ولن نخطو العتبة. برحمة بيك لا
 تفعلي هذا بنفسك. خلص.

ثم عادت أمور السهرات إلى سابق عهدها. خليل الذي فهم

الموضوع ولم يلخّ، صار يأتي أقل من السابق، وخالي الذي انقلبت أحواله يأتي كل مساء ويظلّ ساهياً شاردًا ينتهّد. وفجأة يروح يضرب رأسه بقبضة يده ويعضّ سبّابته حتى يدميها ثم يميل برأسه يمينًا ويسارًا، داعيًا الجميع إلى السكوت والإنصات برفعه ذراعيه عاليًا حتى تتبيّن اندماجه الشديد بأغنية الغرام الطالعة من الراديو خاصّة أغاني عبد الوهاب التي تفعل فيه تقريبًا ما يفعله الديمول إذ تتشجّ عضلاته، وتجمد عيناه في محجريهما، ويروح يُنزل رأسه إلى صدره ثم يرفعه بقوة.

نقول له يا خال من يراك يعتقد أن ليس في بيتكم راديو فيقول إنّ السماع يتطلّب الجماعة.

نقول: يا خال أنت مغروم متيمّ، من هي هذه التي تذهب إليها حين تختفي عن لبالينا؟

فيهز رأسه بمرارة ولا يجيب، مؤكّدًا التهمة بشكل غير مباشر، ودالاً بصمته على خطورة الوضع الغرامي وما يستدعيه من السريّة والتكتم ومن الضن بالشكوى عن اللوعة الجارفة.

ثم رحنا نخمّن أنّ الحبيبة السريّة ربّما تكون متزوجة لكنّها قطعًا بيروتية، أو من الساحل عمومًا، إذ صار الخال يتأبّط مجلّات لا تصل إلى القرية، مليئة بصور المغنيات والراقصات وممثّلات السينما ولأنّه لم يكن يُخفيها، شعرنا جميعًا بقرب اعترافاته الغرامية ورحنا ننتظرها بشوق كبير إذ من يُظهر على الأقرباء مجلّات كهذه لن يطيل التكتم على أسراره الشخصية...

تزوج سابا

لم نرَ العروس إلا في العرس . لم نذهب حتى لطلب يدها من أهلها عتبنا قليلاً في البداية ثم نسينا الموضوع، إذ تكفل عمي يوسف بكلّ شيء. فالعروس من زحلة أو من جوارها، على ما فهمنا وافترضنا جميعاً أنّها قريبة زوجة حتّى، وربّما هي غنيّة مثلها، ولا يريد سابا أن يعرفها إلا على الأغنياء في عائلته. وحين رأيناها في العرس قلنا لا بدّ أنّها غنيّة جدّاً إذ لم يكن فيها شيء جميل بالمرّة، رغم ما دفعوه عليها لتجميلها كعروس. يا لطيف، قلنا أنا ونبيهة. كان فمها كبيراً جدّاً وشفثاتها غليظتين نافرتين من وجهها فيما عيناها صغيرتان غائرتان كزرّين صغيرين وشعرنا أن المهنتين يبالغون في عبارات التبريك ما يعني أنّ سابا وُفق بعروس غنيّة جدّاً، لا بدّ.

ولأنّ سابا لم يسكن في الحارة كانت زيارته لنا قليلة حتى نسينا اسم زوجته، ولا أدري كيف ظللنا نسمّيها العروس، قاصدين شيئاً من السخرية. . حتى قلنا في ما بيننا إنّ سابا لا بدّ يخجل من

رفقتها وإنما تكتفي بصحبة زوجة حنّا التي هي من بلدها، أو قريبتها فلا تأتي إلينا ثم افترضنا أنّ سابا سيجبرها على زيارتنا حين يخلّفان أولادًا

لكنّ الحياة أنستنا عتبنا على سابا وزوجته العروس. اطمأنّا عليه لأنّ عمّي يتكفّله ويضمن له مستقبله إذ صار في منزلة ابنه الوحيد، ويشتغل مع حنّا في الأوتيل الذي بنوه في الأرز وكان سابا يزورنا فقط في الأعياد، وحيدًا بدون العروس، وفقط لكي يتكلّم في بيع قطعة أرض لا نفهم ما حاجته إليها، هو الذي لا يسأل عمّا ولا يهتمّ أن يعرف كيف حسّنا البيت واشترينا أغراضا جديدة وأعدنا بناء البيت التحتاني بالكامل. وسابا لا يسأل حتى عن أخبار أخيه طنّوس، حتى قالت نبيهة يومًا إنّ سابا يفترض ربّما أنّ طنّوس قد مات في غربته.

وانشغلنا أيضًا بالبحث عن عروس لبطريسة الذي ظلّ يتحايل علينا ليصرف جزءًا كبيرًا من معاشه على البيت، رغم اعتراضاتنا المتواصلة والعنيفة. وكان، كلّما حدّثناه عن محاسن بنتٍ ما، كان يسارع إلى القول إنّّه لا يريد أن يتزوّج، دون أن يسأل حتى من تكون. نقول له أنا ونبيهة: اذهب إذن وترهب. لكن حتى في الدير ما عادوا يقبلون الفقراء. تزوّج من تريد، حين تريد، لكن ادّخر قليلاً حتى تقبل الزواج منك الفتاة التي تختارها وهو لا يردّ.

أمّا لهونا الحقيقي فكان يوسف وفارس ولدي نبيهة اللذين كانا كالتوأمين إذ حملت بالثاني قبل أن تُنهي أربعين الأوّل البكر. وحين حملت بالبنت كان فارس ما يزال على بز أمّه لم يكمل شهره

السادس . فرحت أغني لنبيهة يا غرام يا غرام يا غرام كما تقول
الأغنية . وهي تستحي وتقول هذه إرادة ربنا

لكنّ هذه البنت، حين حملتها للمرّة الأولى انشلع قلبي .

حالما نزلت من بطن أمّها فتحت عينيها ونظرت إليّ . صرت
أقول إنّها تنظر وترى، وهي تحدّق في عينيّ ببؤبؤيها الأسودين
الكبيرين .

مع هذه البنت اختلطت عليّ أمور كثيرة . أشعر حين تجوع
أنّ سائلاً ساخناً يطلع في ثديي . وحين أشمّها في رقبتها تنفتح
رئتي حتى أسفل بطني لا أجرؤ على التصديق مذّ ولدت بأنّ
ردفيّ امتلاً قليلاً، وربلتيّ ساقّي أيضاً، وبأنّ جلدي لان كأنّ بزيت
يُطريه ويفرزه من نفسه .

أسمعها قبل أن تبكي وحين أحملها تسكت . تكوّر فمها
الورددي وتدور به في كلّ اتجاه . تشكو لي جوعها كأنّها تعرفني، بل
هي تعرفني من رائحتي - فأعطيها لثدي أمّها وأنا أشعر بوخز خفيف
في حلمتيّ .

يا بنت، يا بنتي، يا ميمي، أناديها مشاركة أمّها فرحاً بها لا
حدود له . إنّهُ فرح خاصّ بنا نحن الاثنتين، عميق وبعيد، ولا يشبه
فرحنا بالصبيّين، إذ كان ذلك الفرح عمومياً، لنا، ولكن أيضاً
للعائلة كلّها وللحارة والجيران حتى البعيدين منهم .

فرحنا نحن الاثنتين بالبنت، كان يشبه اتّفاقاً سرّياً أو تواطؤاً
إضافياً غريباً لا نفهمه حتى إن حاولنا حين ننزع ثيابها لنحمّمها

ننظر مندهشين إلى عضوها الزهري الصغير كبرعم وردة، نضحك حتى تظفر الدموع من أعيننا، نروح نضحك بلا سبب ونستغرق في البحث عمّا نسّمى به طزطوزها الغالي إذ نريد له لقبًا فريدًا لا يستعمله أحد غيرنا

كلّ مرّة تمدّ نبيهة ذراعها إليّ بالبنت تقدّم لي هديّة غالية، رغم ادّعائها بأنّها إنّما تطلب مساعدتي كي يتسنى لها الاهتمام بالصبيّين. يا أختي، الله يخلّيك، أعرف أنّي أطلب الكثير منك لكن. تقول نبيهة، كأنّها ترفع عني إحساسًا بمشاركتها بنتها وبتقاسم أمومتها بمبالغاتي الكثيرة. وحين يضيف نجيب: ماذا كنّا سنفعل لو لم تكن سلمى موجودة وقريبة، أرتاح وأطمئنّ وأفتنع بضرورتي، ذلك أنّ نجيب كان قلّمًا ينام في البيت بعد أن اشتغل مع حنا وسابا في الفندق الجديد.

ذلك أنّ حنا حمل ليرة ذهبيةّ وجاء يهنئ بولادة فارس آنذاك، وكان سابا فخورًا بهذه الهديةّ كأنّه دفع نصف ثمنها عرفنا أنّ حنا يريد شيئًا لأنّه لم يحمل ليرة ذهبيةّ عند ولادة الذكر البكر يوسف. وسرعان ما تبيّنا السبب.

قال حنا إنّ الأوتيل بدأ يرفض استقبال العديد من الرّكّاب لكثرتهم. وكنا نسمع بكلمة الرّكّاب للمرّة الأولى إذ كنا نعتقد أنّ اسمهم زبائن، ثم قال حنا إنّ مستوى الرّكّاب لم يعد يسمح بتشغيل عمّال غير لائقين بالوظيفة ولا يتقنون لغاتٍ أجنبية، خصوصًا الفرنسيّة. ثم قال لنجيب: يا نجيب يلزمني ميطر، مدير عليه القيمة وليس أجدر منك بهذه الوظيفة المهمّة، وأنت قريب فلماذا أذهب

إلى إفادة الغرباء الذين يسرقون مالي؟ قالت نبيهة إن نجيب لا يتقن الفرنسية كما يفترض بالمدراء، لكنّ حنّا أقنع الجميع بأنّ الوظيفة لا تتطلّب سوى كلمات قليلة وعبارات بسيطة جدًّا لا تتغيّر. ثم راح حنّا يشرح كم أنّ الأرباح كثيرة في فندقه، وأنّه مهما كان المعاش الثابت قليلاً فإنّ أضعاف أضعافه تأتي عن طريق البخشيش. ويستفيض سابا في شرح مبدأ البخشيش سائلاً ومجيباً نفسه كأنّه خبير دولي، ومستشهداً بحنّا، ثم واضعاً يده على صورة العذراء، إذ يعرف سابا أنّنا نشكّ عميقاً بكلام حنّا الذي طالما نصحناه بعدم الاطمئنان له لأنّه نصّاب.

جرّب، جرّب، يا نجيب، وإن لم تعجبك الوظيفة عُدْ إلى بيتك، ولا أحد يزعل منك. فقال نجيب: نجرّب، وصار يشتغل في الأرز مِتر

حتى صابات وإميلين نسيتهما حين ينام نجيب في الضيعة وأعود للمبيت في البيت أفاجأ قليلاً حين أرى البنتين لكنني أقول لهما لا تعتقدا أنّي لا أعرف بكلّ خطوة وبكلّ حركة تقومان بها. أعرف عدد شعر رأس كلّ واحدة منكما، أعرف الطلعات إلى الأرز والرحلات مع مرتا إلى بيروت. إن كنتما لا تريدان الزواج فهذا شأن لا أجادل فيه لأنّي - أنا - هكذا قرّرت. فكّرا جيّدًا بأنّ القائدة مرتا قد عنّست. أقول عنّست لأنّها هي تريد أن تتزوّج عريسًا أجنبيًّا. تصطفل، تفعل ما تريد، حرّة. وإن كنتما تريدان. ثم أشعر بسرعة بالضجر فأتوقّف عن سيل الكلام مصطنعةً أمام البنتين يأسًا منهما وأروح أفكّر بالصغيرة واعدةً

نفسى بقرب التصاقى السعيد بها قبل أن أغمض عينيّ.

هند. هند. هند، يصرخ خالي. بإصرار عجيب. كلما لفظنا اسمًا نسّمى به البنت كثر خالي كأنّ به ألمًا هند، يقول، أجمل اسم في الدنيا لماذا تبحثون، أقول لكم هند. وحين أذكر خالي بأنّه قريب بعيد ولا يحقّ له فرض اسم كأنّه أبو البنت، أو كأنّ هند اسم قديسة تفرض نفسها أو نخاف منها، يروح الخال يتشنج ويغضب كأنّ ما يقوله غير مفهوم، وهو، عدا عصبية حركاته، لا يقول شيئًا نافعًا أورتانسيا؟ أورتانسيا، تريدون تسمية البنت على اسم جدّتها؟ أو ربّما المأظة على اسم أمّ جدّتها؟ تقول نبيهة. المأظة لِمَ لا؟ نسّمّيها ديامون، هكذا يصبح اسمًا حديثًا، ولا ينتبه خالي إلى أنّ نبيهة تمزح لتداعبه وتخفف من عناده وإصراره. حتى تقول، طيّب هند، لِمَ لا؟ سنسأل نجيب إن أحبّ الاسم نسّمّيها هند، وسّميناها هند.

هنودة هنودة الحاوي أقول لها وأنا أدلّلها، مضيفةً بأنّها ليست من المزوّقة، وهي لا تقربني، ذلك قبل أن أقلّبها بين يدي لأقبل إليّتها اللتين لهما رائحة الياسمين وطعم ماء الورد مخلوطًا بالقطر والعسل. عسل عسل يا عالم، أقول وأنا أمجّ القبلات التي تفرقع على فخذها المظلمتين المكتنزتين. بقلّوة، بقلّوة يا عالم، أقول، لا معمول، معمول هيدا بجوز وهيدا بفستق حلبي، أروح أغني وأنا أقبل كعبي قدميها المكورتين الصغيرتين.

ولكي تعطيني إيّاها أمّها في فراشي صرت أقول لها إنّ الصبيّ الصغير أصفر الوجه لأنّه يغار من أخته فتأخذه نبيهة إلى فراشها،

وتنام هند في حضني . فأقضي ليلتي لا أتحرك . فقط لذتي بدفء جسمها الذي أتكورّ حوله تجعلني أصحو مرارًا لأفرح بها مرارًا ، ولأعود وأحضنها بكلّ الهناء الذي قد يمنحه القديسون والآلهة للأبرياء ، ولطاهري النفوس والأيدي والسرائر

وصار خالي ، الذي بات يتردد كثيرًا على بيت نبيهة ، يحمل الهدايا لهند ويُعيد تهنئتنا باعتماد الاسم ، فخورًا بإصراره ومرددًا رأيتم كم يليق بها؟ هل كان من الممكن أن تحمل اسمًا غير هند؟ وحين ندللها بهنادي أو هتودة يغضب خالي ويقول هند، لا تفسدوا عليها اسمها ، حرام .

حتى صرنا نشفق قليلًا على الخال لما نرى من تعلقه بهند شوقًا لأن يكون له طفل ، هو الذي ابيضّ سالفاه . لكنّ ذلك لم يزده إلا وسامة ولو لم يزده وقارًا نقول له لن تبقى وسيما تلاحقك البنات لوقت طويل يا خال ، لماذا لا تتزوج؟ من هي التي تذهب إليها حين تختفي؟ هل هي غريبة؟ بيروتيّة؟ لماذا لا تطلبها من أهلها؟ لماذا لا تتزوج؟

حتى بقّ الخال بحصة غرامه ولوعته - ذات ليلة وقد نام الأولاد . قال : سأتزوّج سأتزوّج لكنّ المسألة ليست سهلة . ثم روى لنا الحكاية من بدايتها

قال بأنّه رآها في الأرز ، من بعيد ، في بقعة شمس تُضيء كأنّ عليها لوحدها ، ذلك أنّ شعرها الطويل كان أصفر كالذهب . وكانت مُحاطة بجمهور غفير ، ومن بعيد تجمّع الناس يشيرون إليها بالأصابع . وتذرّع خالي بوظيفته في البلدية حتى توقّف الناس عن

دفعه إلى الوراء فاقترب من الدائرة المحيطة بها وعرف أنهم يصوّرون فيلمًا مصريًا، وأنّ هذه الإلهة - إلهة يقول خالي - ممثلة واسمها هند رستم. وبعد أن جعلنا أنا ونبهة نضع أيدينا على الإنجيل ونقسم بعدم البوح بالسر قبل أن يحين الوقت لذلك - وهو سيقول لنا متى يحين ذلك الوقت - أخبرنا عن سبب اختفائه وهو ذاهب إلى بيروت لمشاهدة أفلامها حين تنبئه المجلات بذلك، وبأخبارها التي تحمل صورها أيضًا وأنه يبقى في السينما لا يخرج إلاّ لدفع ثمن بطاقة جديدة وذلك كامل أيام أسبوع عرض الفيلم، وإن مددوا العرض، مدد هو الإقامة.

وراح خالي يحذرنا من اعتباره مجنونًا حين رأى كيف ننظر إليه أنا ونبهة. قال إنه تعرّف عليها شخصيًا في الأرز وتكلّم معها، ودعاها ومن يشتغلون معها في الفيلم إلى العشاء في الأرز ودفع أموالاً لشباب من الضيعة ليردّوا عنها الناس الذين تجمّعوا خارج المطعم يريدون الدخول والتفرّج على جمالها وصار خالي يعدّد البراهين التي تدلّ على أنّها استلطفته كثيرًا، مكرّرًا أنّه رجل وليس ولدًا ليتعلّق بالأوهام. يا سلام، ألف ألف أهلاً ببيك، دا انت تشرف مصر وأهلها، يا سلام؟ قال خالي بلهجة مصرية كتلك التي نسمعها في الأغاني، مؤكّدًا أنّها ستستقبله في مصر لو هو سافر إليها، بل وستعمل من قيمته ستكرّمه كما عمل هو من قيمتها في الأرز

كان واضحًا لي ولنبيهة أنّ خالي لن يسمعنا وهو في حاله هذه لو نحن قلنا إنّ هذا الكلام هو من قبيل التهذيب وليس دعوة صريحة ولا هو دليل استلطاف قد. قد يتطور ليصبح غرامًا.

وحين سألته نبيهة هل تكلم معها على انفراد أو شيء من هذا القبيل، زعل خالي من نبيهة ولامها لومًا شديدًا على أفكارها إذ كيف تفترض أن يقوم خالي بما له من رجولة وشهامة بعرض أمر كهذا على بنت محترمة، فيشوّه سمعتها وتلوك الألسن سيرة أميرة كهند. ويضيف خالي بشيء من الخجل: يا نبيهة المسألة في النظرات. لا أستطيع أن أشرح كثيرًا حتى بين مئة بشري، يعرف الرجل كيف يفسّر نظرات المرأة فطأطأت نبيهة رأسها ثم قالت له وآخر الحكاية؟ قال خالي كآخر كلّ الحكايات الشريفة. ولما كان استمرار تمثيلنا عليه مستحيلًا قرّرتنا السكوت أنا ونبيهة، وفي نيّتنا أن نرجئ الموضوع إلى سهرةٍ أخرى يكون فيها الخال أقلّ اضطرابًا عاطفيًا لكنّه لم يطق سكوتنا فراح يقول إنّه ربّما ليس أكيدًا مئة في المئة من عواطفها نحوه لكن السبيل إلى ذلك معروف. قاطعته نبيهة صارخةً: تريد أن تذهب إلى مصر يا خالي؟ هل جرى أمر لعقلك؟ فصار يهز رأسه أسفًا ومرارة. وبعد سكوت ووجوم قال لنبيهة: نعم يا نبيهة سأذهب إلى مصر، لا بدّ لي من معرفة خبايا نفسها وإن كانت تريدني فعلاً زوجًا وحصنًا منيعًا لها ثم أراد أن يخفف من وطأة جدّية بوحه فقال: ثم خالكما شبوبيّة، وقد أمثل في السينما وأنا أجمل من الممثلين الذين أراهم معها في الأفلام. وفي محاولة يائسة أخيرة قالت نبيهة: المصريون إسلام، تتزوّج واحدة مسلمة يا خالي؟ فأجابها بضربة قاضية: إن قبلت الزواج منّي أعمل مسلمًا

وفي المرّة الأخيرة التي زارنا فيها الخال قبل سفره إلى مصر لم يفصح لنا عن مشاريعه. جاء حاملًا الكثير من الهدايا لهند.

وكان مزاجه رائقًا رغم الأخبار المقلقة جدًا التي هبطت على الضيقة. وحين أمطرناه بالأسئلة راح يجيب بسرعة واختصار وبشيء من الضيق.

القصة فيها سياسة أكثر مما فيها دين، قال خالي مختصرًا الأحداث التي وصل لهيبتها الكبير والشامل إلى ضيقتنا وعن قرع الأجراس المستمر في الساحتين الفوقا والتحتا، قال إن ابنة البيك الزغرتاوي أتت تصرخ وتولول في الساحة التحتا هجموا علينا إسلام طرابلس يريدون إبادتنا، دخلوا بيوتنا يريدون استباحة عرضنا يا رجال المسيحية والنصارى الحقونا، يا أهل الشيم نحن في ضيم. هجموا علينا بالسكاكين والسواطير، يا نبع الرجولة ومفخرة المواردنة. ثم يلّي له بيضات منكم يحمل سلاحه ويلحق بي، صارت تجعّر وتقول حين رأت الناس غير متحمسين كثيرًا هذا فحش، عيب، وتتلّفظ بكلام بذيء لتستهض همم الرجال كأنّها تعنفنا كالكلاب. نحن لا أحد يقول لنا ماذا نفعل وماذا لا نفعل. دقّوا لها الأجراس، وذهب معها كام شاب، هكذا مسايرة، سيتركونها على الطريق قبل إهدن ويعودون. لا تخافوا هذه هي كلّ القصة. حين نريد نحن أن ندافع عن النصارى في هذا البلد سنهجم على الإسلام على جبهة نحن نختارها وتكون جبهتنا، لا جبهتهم كلّ حياتهم يفاخرون بقوتهم، فلماذا يحتاجوننا اليوم وقد قتلوا منّا أكثر ممّا قتلوا من الطرابلسية الإسلام بمئة مرّة؟ وحين سألناه عمّا يروى عن حروب وضحايا تسقط من جهة النصارى قال خالي حتى ولو فينا من يحارب تحت لكن لتحارب هي على جبهتها. لمن تقول يا نبع

الرجولة وضهر الموارنة؟ من يصدّقها؟ نصير كذلك حين تحتاجنا؟
ألم نكن في الأمس القريب بناديق الإسلام وبني عثملي وبني
حمادة؟!

ثم اختفى خالي .

و حين سحبتنا الحروب إليها وكثرت أعداد الجثث التي عادت
في نعوشها إلى ساحتي الضيعة كان خالي أصبح بعيداً حتى لم يعد
لنا بدّ من القول إنه . في مصر

بحرقة وبكلّ خشوع تكشف النساء عن صدورهن ويحسر الرجال عن رؤوسهم نردّد للربّ اعترافنا الدائم بأننا خطأة وبأنّ ذنوبنا عظيمة، نعرف القليل ممّا ارتكبت أيدينا، ونجهل الكثير الكثير ممّا يغضبه ووقعنا فيه، طالبين الشفقة لا الغفران.

والربّ الذي يُنزل القصاص ساعة يشاء، ويرفعه ساعة يشاء، له حكمة في ذلك لا نفهمها فحسابه يفوق قدرتنا على التوقّع، ولذا يكون درسه عظيمًا لمن أخذتهم الكبرياء، وأغلقت جفونهم الغفلة فراحوا في نوم الطمأنينة الآثم

رغم معرفتنا هذه نروح في النسيان. نستغفر الربّ ونطلب الرحمة إن نحن ضحكنا يوم الجمعة ألاّ يُبيكينا يوم الأحد. رغم ذلك ننسى أنّ جبل القصاص طويل، لكنّه دوما معلق برقابنا، هذا ما لا نتذكّره. فالشيطان قويّ، ويسوع نفسه عرق من بأس غوايته على الجبل. فكيف بنا نحن الضعفاء النفوس، القليلي الإيمان.

رفع الربّ قصاصه عن قمم جبالنا فرحنا نرتع في نعمة لا
نستحقّها

لكنّ حكمته، المنغلقة دوماً دون عقولنا، قضت علينا
بالنسيان. نسينا أن نسأل السماء لماذا أغدقت علينا كلّ هذه النعم.
هل نستحقّها فعلاً أم هي غواية الشيطان التي أطالت الجبل فلم تعد
رقابنا تشعر بأليافه الجارحة وقد خدّرها رغد العيش. ؟

ظلّ طنّوس يبكي تأثراً، وأيضاً فرحاً طيلة الطريق. كلّ ما رآه وشاهده، من سوريا وصولاً إلى الضيعة، كان جميلاً حدّ البكاء كان كلّ ما يكتشفه جديداً وباهراً ليس فقط بسبب أنّ طريق عودته التي يسلكها للمرّة الأولى كانت تختلف كثيراً عن تلك الوعرة التي سار فيها ليلاً وبمشقّة كبيرة، خائفاً ومرتاباً من كلّ شيء، بل لأنّ خياله الذي كان جمّل له الأمور كلّها لم يُدانِ ما يراه الآن من الجمال وال عمران.

تجمّع أهل الحارة كبارهم وصغارهم، نساؤهم وأطفالهم، من يعرف طنّوس ومن لم يسمع به من قبل كان الواقفون عند الباب يتدافعون لحشر رؤوسهم بعد أن يثسوا من دخول الدار حتى الذين قرّبوا رؤوسهم من رأسه لم يستطيعوا سماعه يردّ على أسئلتهم الكثيرة، فراح بعضهم يصرخ ملء رئتيه طلباً للهدوء ولو قليلاً، أو أقلّه إخراج الأولاد. يا جماعة يا هووووووو. حسنة من العذرا سمّعونا ولمّا راحت بعض النسوة يفككن علناً رباطات البقج والصرر الكثيرة الملفوفة بأوراق غريبة ليرين ما بداخلها، أخذ

بطريسة يحمل الأغراض إلى المطبخ، يُخرج منه الناس، وكلّما عاد بحمولة جديدة وجدهم صاروا أكثر عددًا في المطبخ، لا ينفع معهم إغلاق بابه ولا حتى القول الجارح حتى اضطرّ في النهاية إلى البقاء في المطبخ وهو لم يعانق طنّوس بعد.

سلمى، التي وقفت بين الناس كالمسطولة، قرّرت أن تكفّ عن الترحيب وعن عبارات المجاملة. كانت تريد أن يفرح الناس معها بعودة طنّوس، لكنّ الرؤوس التي تراها الآن في دار البيت، تشربّ على الرقاب بعيون زجاجيّة خارجة من محاجرها، صارت رؤوسًا غريبة تمامًا، بعضها لم تره سلمى في حياتها حتى صارت تتساءل: من هم هؤلاء ومن أين جاؤوا؟ ثم سألت أحد الفتيان، وكان الأكثر عنفًا في دفع الآخرين عمّا جاء يفعله، فقال لها بنبرة غاضبة: أبعرف. مُشتمكيًا من أنّ الناس لا يسمحون له بالتقدّم لمعرفة ما في الداخل

جلست سلمى على حافة السطّيحة تنتظر، فهي لم تره فعلاً بعد، ولا هي عانقته بقدر ما تريد. لم تعتد عيناها هيئته الجديدة التي راحت تسترجعها بجهد حقيقي بعد لمحات سريعة وقليلة فسلمى وصلت إلى البيت بعد وصول طنّوس بقليل لتجد الدار مليئة بالناس، وهم ربّما أفسحوا لها قليلاً بدافع الشفقة، أو الفرجة، إذ علت بعض الأصوات تقول: هذه أخته، هذه أخته، دعوها تدخل

كانت سلمى في الأرز، فاستقبلته نبيهة وأرسلت من يخبرها ويخبر نجيب بعودة طنّوس لم يستطع نجيب أن يترك الشغل لكنّه أمّن لها سيّارة تحملها إلى الضيعة، مؤكّدًا أنّه سيكون في البيت قبل

منتصف الليل . وخلال هذا الوقت الطويل كانت سلمى تحاول أن تصدق . وكان لها متسع في سياراة الأجانب لأن تكرر في رأسها أن نبيهة قالت عاد طنوس إلى البيت وهذا يعني أنه عاد . وإلا لِمَ قد ترسل نبيهة من يقول إنه عاد؟

قبل انتصاف الليل ، وصل نجيب وكان البيت خلا لأصحابه . مع دخول نجيب عاد الجميع إلى البكاء . عاد البكاء يقطع الكلام المرتبك والقليل الذي بدا وكأنّ أوان تماسكه لم يحن بعد . فالمعاني مؤجلة وما يريدونه من تلك الليلة هو امتلاء العين أن يدبّ بؤبؤها ويشرب من كامل وجهه وجسمه ويعود متيقناً أنه بخير ، وبأنه فعلاً موجود هنا وبأنه تغير قليلاً أو ربّما كثيراً و . بأنّه بخير وبأنه هنا ها هو طنوس .

يضحكون ويكفون قليلاً ثم يُعيدون السؤال . هل أنت بخير؟ تعبين قليلاً من فرحهم ، يتنهّدون ويُطلقون الزفرات الطويلة . ومرةً أخرى يتعازمون على الأكل ، يمدّون الأيدي إلى الصحون ولا يأكلون

طنوس ، قالت سلمى ، هذه هند وهي تنظر إلى حضنها حيث غفت الصغيرة ، فضحك طنوس قبل أن يعود إلى البكاء ، ومعه الجميع ، ناظرين هم أيضاً إلى حضن سلمى .
وأنا أسميها هتودة ، أضافت سلمى وهي تتمخط .

في غيابي تغيّرت أمور كثيرة .

ورغم ما رووه لي، أحيانًا باختصار وأحيانًا أخرى باستفاضة لا لزوم لها، ربّما من أجل مساعدتي على العودة إلى المكان، إلّا أنّي ظللت أشعر بنقصانٍ لا أعرف له اسمًا، يُبعدني عنهم .

حين أرى في الحارة ولدًا يركض وأحاول من هيئته أن أعرف ابن من هو ولا أنجح، يُصيّبي حزن صغير أكِلُ نهايتهُ إلى الوقت أقول لنفسي: أنا أيضًا هيئتي تغيّرت، ويتوقّف الناس، يبخلقون في وجهي قليلاً قبل أن يتعرّفوا عليّ .

لكنّ الوقت لم يملأ الحفرة التي كان فراغها يعذب قلبي حتى حين أكون في البيت وحيدًا أظّل بعيدًا عن لمس الأشياء الجديدة، ولا أتحرّك في الدار أو أرجاء البيت الأخرى كما كنت أتحرّك في السابق، قبل غيابي . كأنّه بيتي وليس بيتي، وأغراضه الجديدة والجميلة لم تألفني، كأنّها لا تعرف من أنا

لا أفتح الراديو لكنّي أفرح كثيرًا حين تتركه سلمى مضاءً،

حتى، ولو كانت الموسيقى أو الأغاني ليست من النوع الذي أحبّ
لا أطفئه. وأتردد في الدخول إلى المطبخ وإعداد الأكل إن لم تقل
سلمى إن فيه ما أعدته لي، ثم ألوم نفسي

أحياناً أروي أصص الزهور على السطّيحة حين أراها
عطشى. لكنني أحرص على إخبار سلمى بذلك ساعة تعود من
الأرز وبطريسة كفت عن دعوتي للسكن في البيت التحتاني الذي
أعدّه لعودتي، فبقي فارغاً؛ إذ هو أيضاً لا يريد حتى المبيت فيه
حين يطلع من الوادي.

أبقى كثيراً لوحدي في البيت فقد أصبح اجتماعنا كلّنا قليلاً
ونجهد له، خاصة سلمى فالبتان غائبتان باستمرار، صابات تعلّم
في مدرسة الراهبات وتبيت في الدير إذ أوكلن إليها بنات القسم
الداخلي اللواتي سافر أهلهن إلى أستراليا أو غيرها، وأرادوا
لهنّ التعلّم والزواج في البلد. ذلك أنّ العلم في مدارسنا أفضل.
وحين يكون للمهاجر من أبقاه في الضيعة فإنّ عودته إليها تصبح
أكيدة. أو هكذا يُهيأ لمن يترك خلفه ولدًا كرهينة سوف يجبر نفسه
على استردادها، يوماً ما وهناك أيضاً البنات اليتيمات اللواتي
التزم الدير بتربيتهن

وإميلين تقضي أيام الأسبوع في بيروت، تتعلّم الطباعة على
الآلة الكاتبة وإتقان الفرنسيّة، ولا تأتي إلّا في نهاية الأسبوع.
نجيب قال إن مسيو دوفور، وهو كاتب وفيلسوف فرنسي يحبّ
بلادنا كثيراً، وجد في إميلين ذكاءً يجدر بنا ألاّ نهمله، وهو من دلّنا
على المدرسة وساعدنا في إدخال إميلين إليها. الآن، قال نجيب،

الأيام للعلم وكلّ البنات صرن يعملن، بشرفهنّ. الأيام تغيّرت كثيراً وإميلين تنام عند أختها سليمة في الدورة، وهي معرّزة مكرّمة وسليمة قاسية في التربية.

سلمى ونبهة صارتا موظفتين محترمتين - يقول نجيب - في الأزج، في أوتيل حنا ابن عمّي يوسف إذا أردت تتوقّفان غداً صباحاً عن الشغل، أقصد نبهة أيضاً لكنني أعرف أنّ نجيب لا ولن يرتضي لبيتنا ما يهين سلمى أو نبهة زوجته. ثم، كما يقول، إن وجوده الدائم في الأوتيل يعني رقابةً، وضمناً أكيداً لكرامة البنتين.

لكنني كنت أفكّر، وحيداً في البيت، أنّي إن كنت أريد أن تبقى سلمى في البيت - أقلّه سلمى - فينبغي أن أشتغل وأجني مالاً كافياً نستعويض به عن معاش سلمى، الآن وقد أصبحت الأشياء غالية الثمن بشكل مذهل

نجيب يقول إنه يُشرف بنفسه على كلّ ما يجري في الأوتيل لأنه يعرف كم أثق به، لكنّه لا يأتي على ذكر سابا وحين سألت سلمى ماذا يفعل سابا في الأوتيل قالت إنه لا يبقى كثيراً، فهو يرافق حنا باستمرار، ويظّلان في السيّارة لا أحد يعرف أين يذهبان، هكذا، يدخلان ويخرجان ولا أحد يسألهما حتى عمّي الذي يقعد في الأوتيل أكثر منهما لكن سلمى قالت لي لا تسأل سابا عن زوجته لأنك لن تراها هربت. تركته وهربت ولا أحد يعرف أين أراضيها ربّما عادت إلى أهلها في زحلة لأنّهما لم يُنجبا أطفالاً، وهي تعتقد أنّ سابا هو السبب. هكذا قال الناس

عنها وأخوك يشتعل رأسه غضبًا إن أتى أحد على ذكرها، من قريب أو بعيد.

خالي، لم أصدّق حكايته. لكنّي تأكّدت من الناس أنّه بالفعل باع كلّ شيء يملكه بأبخس الأثمان، حتى البيت، بيت جدّي، من أجل اللّحاق بممثّلة مصريّة اسمها هند رستم. وقال الناس إنّ المصوّر الأرمني هارمنديان شاهد خالي يمثّل في فيلم مصري، في إحدى سينمات طرابلس، ولم أشأ أن أسأل ذلك المصوّر الذي صحيح أنّه استوطن عندنا من زمان لكنّه يبقى غريبًا، أقلّه عن شؤون العائلة لكن حين بدأ ندره حليحل بيني سينما في وسط الساحة ركبني همّ أن ترى الضيعة خالي في فيلم ما، ولا يكون تمثيله محترمًا، وإذ ذاك سنصبح مدعاة سخريّة لا تنتهي.

تتناوب سلمى ونبهة على الشغل في الأوتيل لذا قلّمَا رأيتهما معًا واحدة تكون في الأرز والأخرى في البيت تهتمّ بالأولاد. وحين تكون سلمى في البيت لا تبدأ سهرتنا إلّا بعد أن تنام هند، هنودة التي ملأت قلبها وحياتها، وهي، أي سلمى، لن تتزوّج أيّا كان العريس إذ هي تعتقد أنّ أولاد نبيهة هم أولادها، بل وتشعر بذلك.

وأقول في نفسي إنّ ذلك أفضل، فسلمى نسيت تمامًا أنّها غير جميلة، وأنّ قلقها من العنوسة ذهب عنها، لا بدّ. ومع أنّ سنوات غيابي ابتعدت كثيرًا بملامح سلمى عن الجمال وعن الشباب إلّا أنّي لا أراها حزينة أو بائسة هل تعرف سلمى كيف أصبحت، أم أنّها ساهية عن ذلك تمامًا؟ قبل أن أهرب إلى سوريا لم أكن أرى

أَنْ سلمى . قبيحة . ربّما لشدّة ما كنت أحبّها فهل أنا الآن أحبّها أقلّ فأراها على ما هي عليه؟ أم أنّ الوقت الذي غبت فيه جعلني لا أراها تتغيّر شيئًا فشيئًا فأعود، ولأنّي في غيابي كنت دائمًا أتخيّلها كما تركتها، ولم أحتسب فعل الزمن في جسم أختي أو على هيئتها

أولاد نبيهة، ولكن شغلها في الأرز أيضًا، الذي تتكلّم عنه كثيرًا، كلّ هذا يجعلها تنسى فأقول لم لا؟ هذا أفضل بل هذا نعمة من عند الربّ، ذلك أنّي أحبّ سلمى كثيرًا، وهي ربّما لا تعرف كم أحبّها فهي حين تشتري لي أشياء وملابس توصي عليها من طرابلس وبيروت وتدفع ثمنها غالبًا من معاشها، لا أغضب أمامها، رافضًا الهدايا حتى لا تزعل، لكنّي أروح أبالغ في الإنفاق على البيت، وعلى أولاد نبيهة لأشعرها بأنّي أملك الكثير من المال، رغم أنّها لم تسأل يومًا عن مصدره، أو عمّا اشتغلت فيه وأنا في سوريا لم تسأل ولا مرّة واحدة لأنّي، أنا، لم آت على ذكر ما فعلت أو اشتغلت هناك. كنت أنتظر وقتًا أجده مناسبًا، بل كنت أنتظر انتظام حياتي هنا من جديد بدءًا بإيجاد عمل أو وظيفة كما صاروا يقولون

كلّما خبّرت سلمى عن الأرز وعن الأوتيل أريتها أنّي مسرور ومندهبس وموافق. لا أصدّق كلّ ما تقوله وأعتقد أنّها تبالغ، كما تبالغ في رواية كلّ ما يسرّني مهما كان. ربّما تخاف أختي أن أعود إلى هناك رغم كلّ جهدي في إظهار سعادتي هنا فالفترة التي قضيتها في سورية فاقت لزوم هربي بسنوات. كان بإمكانني أن أعود

إلى البيت قبلاً، لكنّ سلمى لا تسألني لماذا أطلتُ إقامتي هناك فهي تفكر أن لا داعي لسؤالي عن شيء، مهما كان، إن لم أفصح عنه من نفسي. ورغم امتناني لسلمى يُشقيني أحياناً أن تعاملني أختي كغريب قليلاً، فتراعيني مراعاة الغرباء الذين نخاف أن ينفروا إن رأوا منا وحدة حال في غير محلها

تمر سلمى سريعاً على الأخبار غير المفرحة ولا تُطيل تقول حلا تزوّجت. زوجها غريب، عال لا بأس به أختها لبيبة يا حرام مريضة جداً يجب أن نزورها، ذات يوم. خالتي فوز سكنت في بيروت، تصوّر زوجها أعطاك عمره. ارتاح كنتاها فقط تُقيمان في شهر العين. و. أرض بُنحلي على حالها أعني على حالها، و يجب أن نزوّج بطريسة قريباً تتمناه أي بنت في العالم. أمير، بطريسة أليس كذلك.

تعتقد سلمى أنها، إن هي زجّت خبر زواج حلا بين أخبار ليست مهمّة كثيراً، وسرّعت من وتيرة الأخبار المتداخلة فلن يتوقّف قلبي طويلاً في حزنه على حلا تزوّجت حلا، تقول سلمى كمن يُنهي الحكاية أروح أفكر أن أختي لم تُغرم يوماً وهي لا تعرف كيف يكون الغرام، ويحيرني ذلك. وهي لا بدّ تفترض أن البعاد أنساني حلا، وأن وجهها الذي أحببته هكذا قليلاً، ضؤل نوره وخبا مع الوقت، لا بدّ. أنا الذي كنتُ في دنيا غير الدنيا، في بحر الحياة المتلاطم الأمواج، بعيداً عن أهلي وناسي، هارباً مشرداً وغريباً، وربّما جعتُ وعطشتُ وبردت. هل كانت حلا ستتعلق طويلاً بنياط قلبي وحباله الرفيعة الضعيفة كخيوط

القطن . هكذا تفترض أختي سلمى .

هل تجهل أختي أحكام الغرام إلى هذه الدرجة؟ أم أنها تخاف عليّ منه، من أن يكون أضاف ألمًا جديدًا إلى آلام غربتي التي تتخيل أنها كانت كثيرة؟

على أيّ حال، لا تترك سلمى في روايتها فراغاتٍ كثيرة، أخمّن أنها تخاف أن أملاها بنفسها، بأصدقاء وأفكار حزينة حتى حين تكون الرواية مفرحة .

أقوام وشعوب وملل ونحل، زعماء ورؤساء وملوك وأمراء ونواب ووزراء . قبائل وطوائف، أجناب وعرب أشكال ألوان . بنايات وأوتيلات وشاليهات وبركة بيسين وتلسياج و سيارات وبوسطات ومطاعم . هكذا تبدأ سلمى دائما كلامها عن الأرز، مهما اختلفت الروايات التي تلي، والتي ترى أختي أنها تسليني كثيرا وتختصر التحوّلات التي تجري في حياتها، وفي حياة الضيعة والبلد والعالم كلّه .

وعادة ما تضيف: يا ويليببي يا خو، ما راح تصدّق ما سأرويّه لك، بادئةً إحدى حكايتها الكثيرة عمّا صارت تسمّيه: فوق .

ابن بو قبلان صار بطلاً عالمياً في التزلج وأعطوه كأساً فضّية كبيرة لأنّه غلب الأجناب

وابنة مارغو الصغيرة، كريستيان، أتتذكّر كريستيان التي كانت أسنانها الأمامية خارجة من وجهها شبراً؟ تزوّجت باروناً من النمسا . بارون يعني مثل الأمير في بلاده ويسكن قصرًا حقيقيًا .

كبير في العمر، تركه أولاده وأهملوه، تزوّج البنت وأخذها إلى النمسا إيدي على العذرا صارت هناك بارونة عندها خدم وحشم وستأخذ أختها الأكبر منها، وربما مارغو أيضًا إلى هناك. يعيشون جميعًا في القصر

وعمّك، من يومين، تصوّرَ مع إمبراطور إيران، شاه يقولون هناك. وكانت معه زوجته، اسمها ثريا، أجمل من القمر، رأيتها، لكنّ الله لا يكملها مع أحد، يقولون إنّها لا تخلف وهي يا حرام عاقر شاه إيران اسمه رضا، وكان برفقته شمعون نفسه. لم أر في حياتي رجلاً بجمال شمعون. وامراته جميلة، اسمها زلفا، لكنّها أقلّ جمالاً منه بكثير وعنده ولدان صغيران أشقران يشبهانه، ومعهما دائماً مربّية إنكليزيّة. من بقرقاشا إلى الضيعة إلى الأرز حملت الناس شمعون على الأكفّ وأحياناً حملوا سيّارته ليري الضيوف الغرباء كم نحبّه. صحيح أننا نفضل الفرنسيّة على الإنكليز، وهو يحبّ الإنكليز، لكنّ الزغرتاوي يوسف كرم الثالث أقام الدنيا وأقعدها مظاهرات إلى البرلمان في بيروت، يريد زعامة المواردة بالقوّة كما أفهمه الفرنسيّون ودكّوا رأسه دكّاً ليضعفوا شمعون الذي يكرههم. طيّب. صرنا نحن أيضاً مع الإنكليز وضدّ فرنسا والزغرتاويّة. شمعون قال خطاباً في الناس وحلف في الخطاب أنّ هذه المنطقة أنجبت رجالاً ليس هناك مثلهم في البلد، وأضاف شاه إيران: ليس مثلهم في العالم كلّ. والعرب، العرب سمّوا شمعون فتى العروبة الأغرّ، وهو صار يصرخ في أميركا ليدافع عن فلسطين.

فوق، يا طتوس، تعرف أخبار العالم كله والله أفضل من الراديو الذي صار يضجرتني وخاصة نشرات السياسة. أنا صرت أعرف أحسن من الراديو

البارحة وصل إلى فوق أطباء أشجار أجانب، قالوا إن الأرز مريض قليلاً ضحك الناس ولم يصدّقهم أحد. لكنهم صاروا يطلعون على سلالم إلى أغصان الأرزات. أرسلت الناس من يقول لأطباء الأشجار ألا يحركشوا كثيراً بأرز الرب وبأن الأرزات لا تمرض لأنها محمية من يسوع نفسه منذ الأزل. ولما عرف الناس أن الأطباء ألمان صاروا يقولون إنهم جواسيس يريدون إطلاق الإشاعات على الأرزات حتى يهدّوا صيتنا ويقلّلوا من شأن بلادنا بين البلدان.

ثم ذهب وفد إلى البطرك، من كلّ العائلات. حملوا إليه عريضة وقّعوها جميعهم. وفي العريضة فتّدوا حجج الألمان حجة حجة وطالبوا بطردهم فوراً وفي العريضة قالوا للألمان إنّ أحداً في الكون، وعبر آلاف السنين، لم يقدر حتى على عدّ الأرزات فكيف عرفوا أنّ عددها يتناقص؟ وأخبروهم في العريضة كيف أنّ داوود باشا أراد ردّ التحدي وعدّ الأرزات، وصار يرسل جيشه يقف كلّ نفر عند شجرة حتى خلصت فيالقه ولم يستطع عدّها فعاد مستسلماً خائباً هكذا، كما أقول لك. ثم حين عاند الألمان دفع الرجال سيّارة لهم وساقوها في الليل حتى شير الشفق، ورموها من فوق فظلتّ تقلب حتى الوادي وصارت كأنّ الكلب علكها نحن نستقبل كلّ خلق الله، على الرأس والعين، نفتح لهم قلوبنا

وبيوتنا ونكرمهم أحسن تكريم وأفضل ضيافة في العالم يلقونها هنا لكن، لا أحد، غريبًا كان أم قريبًا، يتدخل في شؤوننا ويفهمنا أمورنا، غير الربّ من فوق. حتى ولو كنّا جميعنا نستفيد من الأرز نقفله ساعة نريد. نقطع الطريق وانتهينا حتى معازة الجرد الذين توظفوا عن آخرهم، منهم من استلم مواقف البوسطات، ومنهم من راح ينظّم ركوب التلسياج أو يبيع السندويشات أو التذكارات المصنوعة من خشب الأرز، حتى هم قالوا شرفنا قبل كلّ أموال الكون، نقطع الطريق ونعود إلى الجرد. المهمّ أنّ الألمان هربوا في ليلة ما فيها ضوء قمر وعملنا حفلة طويلة عريضة في الأرز، في ساحة الشاليهات. اسأل نبيهة كم رقصنا ودبكنا تعرف سليمان بو شحبر، الشاعر الظريف الذي يظلّ سكران، تتذكّره طبعًا، حتى الأجنب تجمّعوا حولنا لسماعه وهم لا يفهمون شيئًا لكنهم يضحكون لضحكنا ويصفقون معنا جرّص بني الألمان لجدّ جدّهم. صوته بشع لكنّ كلامه المنظوم قوي ويُقيم الأموات من قبورهم أتعرف يا طنّوس، يقولون إن الشعر أقوى من السيف ويقطع في العالم أكثر من حدّه. تتذكّر الأستاذ فخر الذي كان عمّك يوسف يريد أن يعمل منه زعيمًا لمّا كان على خلاف مع البيك؟ هذا الأستاذ المحامي الذكي بل الداهية قضى عليه بيت شعر نهائيًا والحكاية أنّ عمّك الذي كان يُقيم له العزائم والحفلات ويدعو زعماء وشخصيات من خارج المنطقة ليُفهم البيك أنّ له علاقات قويّة حتى في مناطق بعيدة، استقبل يومًا وفدًا ملهم سفرة يرمح فيها الخيال. وكان فيهم رجل من بيت الخازن قدّم عمّك له فخر على أنّه زعيم ولا تنزل كلمته الأرض حتى قبل أن

يصبح نائباً في نهاية العزيمة نظم ابن الخازن هذا بيتاً عن فخر
وهو في طريقه عائداً إلى بلاده، لكنّ شعره شاع هنا وحفظه الجميع
وراحوا يردّدونه يقول ابن الخازن:

طريق الجبّة يا عين كلّ جورة فيها مترين
لوز ري مطرح فخري كان زفتها من سنتين

ولمّا سمع عمّك يوسف هذا الشعر طرد فخر من بيته وقال له:
لا أريد أن أراك، لا في بيتي ولا في الضيعة. اسأل سابا، سابا
كان حاضرًا اختفى فخر ولم يره أحد مذ ذاك.

لكن. لكن اسمع ما قاله سليمان للألمان، حفظته من
أجلك. صحيح أنّ صوته بشع، لكنّ هذا الشعر سيبقى خالدًا، ليس
للألمان فقط بل لكلّ غريب. اسمع. صوتي ليس جميلًا
كصوتك لكن اسمع

أوف أوف أوف.

عا رُكب الخيل والهيجا عكفنا

وبحر وبرّ قمناهم عكفنا

رجال وكلّ ما الشارب عكفنا

يرجف كلّ سبع بكلّ غاب.

اسمع اسمع أوف أوف أوف

جبلنا بقدسك الأبرار تبرك

جبل ما يوم تحت الضيم تبرك

غالي ما بيرخص سعر تَبْرُك
واسمك فوق الشمس انكتب .
أرأيت . يا الله . تنهمر الدموع من عينيّ دون أن أشعر بها
آه . لو فقط كان صوتي جميلاً لو كان لي
طنّوس ، لم أعد أسمعك تغني .
هل صرت لا تحبّ الغناء يا خو ؟

إمّا دير قزحياً وإمّا الجيش، قال لي عمّي فريد.

خليل ابني البكر وأحبّه، لكن القرار صار في يد عمّك يوسف. معه حقّ. خليل ذهب بعيداً في مبالغاته لا يردّه كلام أحد، لا عمّك ولا أنا ولا الخوري لا يعترض ولا يقول لأحد لا، لكنّه لا يفعل إلّا ما في رأسه. والمشكلة أنّ لا أحد يفهم ما في داخل رأسه. أيّ شخص يكلمه يقول معك حقّ، ويهز برأسه كأنّه مقتنع بالحكي تماماً ويعي كلّ حرف يدخل أذنيه.

عمّك يوسف يقول إنّ خليل ربّما كان ذكياً في الأساس لكنّه مجنون، وصار فضيحة متنقّلة أخواه الصغيران نديم وفنيانوس يشا منه ويخجلان من وضعه، وصارا يرفضان اللّحاق به أو حتى الكلام إليه. طيّب، ماذا أفعل أنا به؟ وافق على الانخراط في الجيش ثم هرب. يوافق خليل على كلّ شيء ثم. هذه مصيبة يا طنّوس. أنت، ما رأيك؟ أعرف أنّه يأتي إليك، وأنكما تلتقيان بين وقت وآخر وربّما تتكلّمان. وربّما يحدثك عمّا في رأسه أنت ما رأيك يا طنّوس. عمّك يوسف يقول إنّ خليل مجنون لأنّ عقله

فرط من تعاطي الحشيش . أنا لا أعتقد أنّ الحشيش يفعل كلّ هذا بعقل الإنسان . أنت يا طنّوس أقمتَ في دير مار قزحيا ، ورأيت مجانين من كلّ نوع يربطونهم في المغارة العجائبيّة ، وفي صباح اليوم التالي يجدونهم وقد استردّوا عقولهم . هل نأخذه إلى مغارة مار قزحيا؟ أنت ما رأيك يا طنّوس؟ برحمة أبيك ماذا أفعل معه؟ ابني الكبير وأحبّه لكنّي عجزت . أنت يا طنّوس أكبر منه ، كلّمه ، ربّما اعتبرك أخا كبيرا واحترم نصائحك .

يعرف عمّي فريد كم أكره عمّي يوسف ، أو هو على الأقلّ يخمّن ذلك لأنّي لا أزوره في بيته إلا نادرا ، لا هو يشير عليّ ، ولا أنا أطيعه . لذا اكتفيت بالطبّبة على عمّي فريد . قلت له لا تقلق . خليل ليس مجنوناً يا عمّي إنّهُ فقط كسلان لا يحبّ الشغل وربّما يمزح أكثر من اللازم . وهو أيضاً عنيد ولا يردّ على الناس معك حقّ لكن لا تخف عليه . نحن نلتقي كثيرا وهو يأتي ويسهر عندنا في البيت . لا أراه مجنوناً لكنني سأتكلم معه . نحن نحكي أحيانا ويتهيأ لي أنّ خليل يسمعي . لا تخف .

قلت لخليل إنّ قلبي يتقطّع على أبيه قلت له يا خليل مجيءُ أبيك إلى عندي يعني أنّه لم يعد لديه أحد يلجأ إليه . عمّي فريد لا يتوقّع مني ، أنا ، الذي لا شغل له ولا مشغلة ، أن أتدبّر لك وظيفة . أبوك يعرف أنّي قاعد في البيت بلا حيلة ولا معارف ، ومع ذلك يأتي إليّ

لا ، قال خليل ، أبي يريد منك أن تردّ لي عقلي ، فهو مقتنع بأنّي مجنون . لأنّك صاحبي يريد منك أن ترشدني . أن تقنعني ، مثلاً بدخول الجيش . اتّفقوا أنّ لا دواءً لي سوى الجيش ،

ويتخلّصون من وجودي فلا يستعرون مني . عمّك يوسف قال لأبي :
أرسله إلى الجيش وأنا أعمل له واسطة كي يغضّوا النظر عن
جنونه ، فالجيش وظيفة بلا تعب أو رأسمال ، والله خلقها لمن هم
مثلي لا يتقنون شيئاً ثم قال عمّك يوسف إنّ الجيش سيرتبي القمل
في رأسي ، ويردّ لي عقلي وأصبح رجلاً هكذا وأنا لا أريد
دخول الجيش ، تعجّبتني حياتي هنا الجيش حبس وأوامر ثم من
أين آتي بالحشيش هناك . هع هع هع .

ضحكٌ خليل ، الذي يشبه ضحك المجانين ويخرج وكأنّ من
بطنه لا من صدره ، يجعلني أضحك عاليًا ، من عمق قلبي يصيني
ضحكه بالعدوى مهما قال . لا أضحك لما يقول بل لضحكه الذي
لا أتبيّن أو أفهم دائماً سببه .

كلّ ما يرويه لي خليل يصبح مضحكًا ، حتى حين لا يكون معنا
حشيش ندخّنه . يقول لي إنّ عمّي يوسف لا يتدخّل في شؤوني في
الوقت الحاضر ، لكنّه عند أوّل إشارة لا تعجّبه مني سوف يفعل
عمّي يوسف والناس يقولون إنّ المال الذي في جيبك وتصرف منه
هو مال مسروق . يقولون إنّك ضحكت على السوريين ونصبت
عليهم نصابة عظيمة وهربت منهم إلى هنا فالسوري أهبل ، مثلما
تروي النكات عنهم . وأنت ، هناك ، اعتبروك بطلاً لجأت إليهم
هربًا من الفرنسيين إذ هم يكرهون الفرنسيين كثيرًا ولأنّ عقلهم
بسيط ، مثل الفعالة النصيريّة والحوارنة الذين يعملون عندنا ،
صدّقوك وكرّموك ووثقوا بك . بعد ذلك سرقتهم وعدت بالمال
والذهب إلى الضيعة . . يقول خليل

نضحك حتى نقلب على ظهورنا رافعين أرجلنا مثل الزيزان .
أقول له لماذا نضحك، بين نوبة قهقهة وأخرى، يجب أن نغضب
من هذا الكلام فيروح خليل يصل نهاية الضحكة بما يشبه العويل
قائلاً أوووع أنا غاضب. أوووع ونواصل ضحك
المجانين .

حين نسرح ليلاً في الصيران نزولاً تحت البيت، نحاول ألا
نطلق الأصوات عاليًا حتى لا يرانا أو يسمعنا أحد .

في الصيران، في الليل، حيث نطيل القعود والسهر نتكلم
قليلاً، أنا و خليل، ونكون أكثر جدية من البيت، سواء أدخنا
الحشيش أم لا

أسأله أحياناً لماذا تريد يا خليل أن يعتقد الناس أنك
مجنون؟ يقول: أنا لا أريد شيئاً، هم يريدون ناس ضجرون
فليتسلوا بي . وحين أسأله طيب، ما قصة النحوي . ؟ لماذا
صرت تتعمد الكلام بالنحوي؟ ومن أين دخل رأسك؟ يأخذ بتكرار
تلك الألفاظ الغريبة ويضحك دون أن يجيبني على السؤال: ازمهلت
الثلج، أقول للناس فينظرون حولهم، ثم إلى الثلج خائفين .

حين أجد أحدهم مسرعاً أقول له زَقْفِلْ زَقْفِلْ فيأخذ
بالركض . يكاد يُغشى عليّ من الضحك . وحين أكون
كالعاقل بين الناس، يقول خليل، أنظر إلى أحدهم وأشير إلى رأسه
قائلاً هكذا فجأة: زَوْقِلْ عمامتك، فيتحسس رأسه فرعاً هع هع
هع هع وحين راح الخوري يسألني، وهو يطول باله عليّ: من
أين تأتي بهذا الكلام؟ قلتُ له: إني لا اخترعه وإني تعلمته عن

فلاسفة كبار وأرواح أردّد أسماء لا أدري من أين تأتييني .
الزمخشري، أبو حنيفة الغزالي وابن قتيبة الأصفهاني و . مثلاً
صفوان بن غيلان . ثم أقول للخورى، هل قرأت في كتبهم؟ يجب
أن تقرأ ثم تعود لتحارجني ما هذا الشعب الذي لا يقرأ
فيدبّ اليأس في رأسه ويتركني بسلام . هع هع هع هع

لكنّ قصص النحوي لا تنتهي دائماً على خير فقد صادف
خليل ذات يوم رجلاً غريباً يحمل كتباً ويتمشّى قريباً من الساحة،
وينظر إلى البيوت كأنه يبحث عن بيت أو عن أحد . صار خليل
يرقبه ويتبعه من بعيد، ولمّا لم يستدلّ الرجل إلى عنوان أو يسأل
أحدًا من المارة اقترب منه خليل وحيّاه بكلّ تهذيب، وعرض عليه
خدماته كما تفترض مبادئ الضيافة وكرم النفس ولمّا أمّن الرجل
جانب خليل اللطيف أقرّ بأنّه غريب بالفعل، وأنّه قادم إلى ضيعتنا
من بلاد الكورة وله فيها شغل . سأله خليل إن كان تاجر زيت
زيتون، فقال الرجل لا لا ، مشيراً إلى الكتب التي كان
يتأبطها اقترب منه خليل في ودّ ظاهر وغمز له بعينه قائلاً
بالنحوي أنتَ إذن قوميّ . رومٌ وقوميّ عروبيّ . وإذا ليس لك
غيري في هذه الأرض . أنا ماروني صحيح، لكنّي مثلك قوميّ
الهُوى . وإن كنت تريد أن تفتح هنا حزباً فأنا معك، وأنا أدلك
على مَنْ يحمونك من الأحزاب والعائلات ويساعدونك، فهم
قريبون من أفكارك وأفكارى . عندنا بروتستانت وشيوعيون لا أحد
غيري يعرفهم لأنهم يعملون بالسر استنكر الرجلُ الكلام وقال :
لا ، لا يا أخي أنا لا شأن لي في السياسة . أنا هنا لأبشّر بكلام
الربّ، وكتابي كما ترى إنجيلي

هاااااه. قال له خليل: فهمتُ عليك لا فض فوك! أنت من شهود يهوه. فهمت قل ذلك من الأوّل يا رجل لأنّ شهود يهوه أيضًا عندنا منهم، ولكن بالسرّ طبعًا، أنت تفهم لماذا، هنا مواردنا، بعيد عنك، متعصّبون قليلًا لكن أنا لست متعصّبًا وأحبّ التنويع وأشجّع، لذا سأخذك إلى مسؤولة شهود يهوه عندنا، أسلمها إياك لأضمن سلامتك، وليكون لهدفك ثمار ومشاريع تعال معي. الربّ وضعني في طريقك.

أخذ خليل الرجل إلى دكان مارغو، وأمامه راح يكلمها بصوت منخفض. وقبل أن يتركه عندها قال لها مشيرًا إليه، وبالنعوي الصرف: يا امرأة أكرمي هذا الرجل، عبد الله، الذي هداه الله.

لولا الحرم الكنسي الذي هدّد الخوري مارغو برميها عليها، لما توقّفت عن ضرب الرجل حتى الموت. ذلك أنّها لم تكتفِ بيديها وهو يتلوّى أرضًا، بل رفعت على رأسه حجر الكيلو المعدني وهمت بتهشيم جمجمته بضربة واحدة من زندها القويّة الغليظة العضل. وحين صرخ الخوري مهدّدًا بالحرم تركت الوزن من يدها وتناولت صحن الميزان النحاسي تضربه به على فمه المدمى وهي تصرخ للخوري بأنّها إنّما تريد إخراج الشيطان من فم شهود يهوه هذا، وعلى رجل الكنيسة أن يفهم موقفها. أصرّ الخوري فرمت كفة الميزان، وأتى رجال كانوا يتفرّجون فسحبوه إلى العين قبالة الكنيسة وغسلوا وجهه وقالوا له هيا إلى الكورة. بشرّ هناك بإنجيل المسيح. نحن عندنا إنجيل نعزّه كثيرًا ولا نريد استبداله. هذه المرّة سترها الله معك.

صار خليل يضحك ويمسح دموعه مرددًا أنه هذه المرّة، والله العظيم، شعر بالندم.

يصغرني خليل بسنوات لكنّه يبدو أكثر فهمًا مني بأمر الحياة مع أنّه لم يغادر الضيعة. وهو يتعجب أحيانًا لسذاجتي حين تدهشني أخباره فيقول ما بك يا رجل؟ أين قضيت أيامك؟ هل ستتعلم مني أنا؟ أو يقول: هل صدقت فعلاً ما رويتك لك؟ يا زلمة كنت أمزح قلّ إنّي كنت أبالغ. لكنّ الواحد يستطيع أن يضحك عليك بسهولة.

وفي أمور البنات والنساء وحكايات الغرام يعرف خليل كلّ ما يجري في الحارة، وفي الضيعة وفي ضيع الجوار ويعرف أيضًا زوجة من تعشق زوج من وأين يلتقيان ومتى. وحين أسأله عن صحّة أخباره مُشكّكًا في مصادره يقول لي: أنت حرّ أنا أعرف من نفسي وأدقّق بنفسي في الإشاعات وفي كلام الناس. أنا لي أساليبي، مداخلتي ومخارجتي ومتابعاتي أنا أتعب وأجهد نفسي في تقصّي الحقائق. أنا أقوى وأشرف من الدرك لأنّي لا أفصح أحدًا ولا أخرب بيوت الناس.

حين حاولت سلوى الانتحار قال الناس إنّها شربت القليل من الديمول عن طريق الخطأ؛ إذ اعتقدت أنّ في الزجاج ماء. هل تصدّق، قال خليل، أين شكل قنينة الديمول من قناني الماء؟ ولماذا قد تضع هذه القناني بعضها قرب بعض أو في مكان واحد؟ الحقيقة هي أنّ سلوى عشقت نصيريًا من الفعالة الذين يشتغلون في أرض زوجها وأنا رأيتهما معًا، عاريين، إيدي عالعدرا، تحت مقبرة مار

مطانيوس . ظننتُ المسألة عراقًا فاقتربت متعجبًا إذ كان الوقت ليلاً لكنّ القمر كان بدرًا ورأيت كلّ شيء . كانا يقبلان في الأرض كحيوانين متوحّشين يتقاتلان . يا إلهي ، مشهد يمجد الخالق ، يرفعها هكذا على ذراعه ثم يعتليها وهو يقبلها في رقبتها وتديها وأنا ، من خوفي أن يراها أحد صرت أراقب الصيران والمقبرة ، قائلاً في نفسي إنّي سوف أنبهما إن رأيت أيّ ابن آدم يقترب . بقيت هناك متلطيًا حتى عادا إلى الضيعة ، كلٌّ من طريق . ولأنّهما خرجا في ليلةٍ مُقمرة تأكّدت من أنّ ما بينهما غرام قويّ جدًّا يا حرام . لكن يجب أن أدلّك على هذا الفاعل النصيري كي ترى بعينك كم هو جميل يا ربّيبيبي ويجب أن تصوّره في ثياب جميلة ومرتبّة وستقول إنّه أحلى من وهيب الطريا الذي يضربون بجماله المثل حتى بعد موته بسنين . يا حرام سلوى . حين مرضتُ ، أتذكّر ، وقال الناس إنّها أصيبت بالسلّ وصاروا يخافون من العدوى ويقولون لزوجها خذها إلى بحنّس ولا تتركها تموت هنا ، كان سبب مرضها أنّ عشيقها عاد إلى بلده وتركها عاد إلى حوران . فالرجل كان متزوّجًا وعنده أولاد . عاد إلى بيته . ثم من بأسها وقوّة عشقها حاولت الانتحار . يا حرام سلوى ، أترى كيف هي نحيلة كالهيكل العظمي؟

أنا أعرف كلّ ما يجري لكنّي لا أحكي أبدًا إلا لك أنت ، يقول خليل أتعرف ليلي بنت غسطين ، هذه التي صبغت شعرها أشقر ثم اختفت . أنا أقول لك أين هي . ولو أردتَ آخذك إليها ليلي هذه صار اسمها ليالي . وفتحت مطعمًا في أعالي أطراف الحدث هو في الحقيقة كباريه ككباريات بيروت . لا بل إنّه يُصبح

في آخر الليل بيت شراميط ودعارة. تدفع لها عشر ليرات وتفعل معها ما تريد. تعال نذهب ذات ليلة، أقلّها تتفرّج يا طنّوس أنت ما رأيك بالبنات، بالغرام عموماً تعال معي إلى عند ليالي، فهي ترقص وتغني، ومعها بنات أشكال ألوان. نشرب كأساً أو كأسين ثم نعود إن كنت لا تريد أكثر من ذلك. لا أحد يجبرنا البنات لطيفات ولا يجبرن أحداً وهذه ليلي تسايرونا بالسعر، ما رأيك؟ وأحياناً تهديني سيكارة الحشيش هدية، ما رأيك؟

حكايات خليل تشعرني بأنّي ولد بقربه، أو أهبل لكنّها تسلّيني كثيراً رغم ذلك أوّنبه أحياناً لأستردّ مكانتي التي ينبغي أن تكون لمن هم في عمري.

وصرتُ أرفض سيكارة الحشيش وأقول لخليل إنّه، لو استمر في سلوكه الطائش هذا فسوف نلغي جميع مشاريعنا الجادة معاً فمشاريعنا تحديداً تتطلّب اليقظة والصحو والاحتياط، وهو إن بقي هكذا سيجرّ علينا المشاكل ويفتح عيون الناس.

قلت له يا خليل إن لم تهدأ وتتصرّف كرجل لن نقوم بحركة واحدة معاً ولما هزّ رأسه بالموافقة الأكيدة وأراني وجهها عابساً بجديّة بائنة وعزيمة لا يشوبها التردد، قلت له: سأنتظر لأرى.

من هنا، تبدو آخر البيوت المطلّة على الوادي، تلك المتشبّثة بالصخور الأخيرة قبل المنحدرات الحادة، وكأنّها ألصقت هناك لصقاً في بطن المنزلقات ولا يمكن السكن فيها أنوار شبابيكها في الليل، حيث لا نرى على أيّ شيء بُنيت أساساتها، تطلُّ فوق الهوة السوداء مباشرةً فيخطر للناظر إليها أنّ أيّاً من الساكنين سيقع فوراً

في الفراغ إن هو خطأ خارج باب بيته . وهذا على طول القرى القائمة على فوهة الوادي الدائرية والتي أستطيع أن أراها من مكاني هذا، تقريبًا بالكامل

ومن هنا أيضا أستطيع أن أرقب طلوع القمر من وراء قبة الكنيسة . يبدأ قرصه الكبير - حين يكون بدرًا - بهالة ضوءٍ حمراء، ثم كلما خرج قليلاً بانت قمة الجبل العالي الذي يرسم حصتنا من سماء الجرد، وصار لونه نحاسيًا داكنًا لا يضيء إلا نفسه . وحين ينفصل عن القمة ويكون مكتملاً يبدأ بالطلوع فوق قبة فضاء الوادي وشيئًا فشيئًا يصير لونه أبيض مشعًا، وتعود النجوم التي حوله تسطع بقوة، وإذ ذاك يكشف كل شيء حتى النهر في الأسفل . ولا حاجة للضوء الذي يعكسه الثلج، في الشتاء أو في الربيع، لكي ترى ثعلبًا أو ابن آوى في الشير المقابل، يظهر ويختفي في المنحنيات الصخرية أو بين الأشجار البرية .

أبيض وفضي ضوء القمر البدر، وقرصه يبدو أكبر بكثير من قرص الشمس حين ننظر إليها من خلال الغيوم أو الضباب، ولشدة ما هو كبير وواطئ يتهيأ لنا أننا نرى، من هنا، جباله ووديانه وكل تضاريسه التي تشبه الطحين في لكن كبير وقد سكب فيه الماء قبل العجن، أو ربما أحيانًا كومة ملح كبيرة .

ضوؤه أبيض وفضي لكن أيضا ممزوج بالزيت، كأن يدًا متآنية مسحت كافة تفاصيل ما يقع عليه ضوؤه بقطنة كبيرة، وإلا فكيف تلتمع الأشياء الناشفة من نفسها؟ كيف تشرق أطرافها هكذا في العين من دون ماء أو رطوبة تغلفها وتقيم لها حدودًا في النظر

تجعلنا نستطيع رؤيتها من بعيد، من لمعانها

يكشف القمرُ البدرَ اللَّيْلَ وينزع سواده. وحين يرفع ستر العتمة لا يجرؤ أحد على اللعب في دوائر الأسرار. لا سارق ولا عاشق. يمكن للبيوت أن تُبقي نوافذها مفتوحة وأبوابها مشرعة، ويمكن للأهل أن يناموا مطمئنين؛ إذ سيثني القمرُ العشاق - عن الخروج إلى لقاءاتهم السريّة ويكتفون بالتنهد العميق على الأعتاب والسطيحات وفي الأسرة.

القمر البدر يحرك الأشواق ويزيد من وقود نارها لكنه يُبقيها تحت الأغطية و بانتظار المواعيد حين ينزل ليلٌ حقيقيّ، فترتفع قليلاً أصوات الأغاني من الراديو ومن الأفضل أن تملأ الموسيقى العاطفيّة الآذان حين يصلنا قوياً عواء الذئب ونباح الكلاب الشاردة، وحتى مواء قطط الأزقة، بصراخ لذّة التزاوج السريعة والعالية الوتيرة، والتي لا يمكن لأحد تجاهلها

هنا، في هذه الفسحة الصغيرة، المستورة بأغصان سنديانة صغيرة ووارفة الأوراق، أستند إلى جذعها فتقيني الانزلاق، أستطيع أن أكون لوحدي تماماً، لا يدري بمكاني أحد في العالم. أفكر في الأشياء وأتخيّل أموراً وأسترجع أخرى. وهنا يدهمني شعورٌ يملأ قلبي ويفيض ولا أملك له كلاماً الكلمات التي أعرفها قليلة، وتتركني جائعاً حين أحتاج لأن أسمي هذا الجمال الذي أراه. أغصّ به إذ يتهيأ لي أيّ أشربه شرباً وهو أكثر من قدرتي على العبّ والابتلاع فينقبض حلقي وتظفر الدموع من عينيّ. كأنّ العالم يهجم عليّ أحياناً ولا أملك ما أردّه به أو ما أغمره به. وكأنّما ليس

لي يدان تخففان من اندفاعاته القاسية الجارفة أو تأخذانها في
حضني وتضمّانها إلى قلبي

كذلك يكون أمري حين أفكر بحلا التي تزوّجت ورحلت بعيداً
دون أن أنجح في إخراج شيء لها من قلبي . هكذا كنت أترك البيت
هارباً حين أجدّها عندنا، ليس بسبب ظروف الصعوبة التي كانوا
يقدرّون أنّها تمنعني من مصارحتها أو التقدّم بطلبها للزواج، بل
بسبب اختناقي الكامل وغرقي في هذه الحامولة الجارفة التي كانت
تجتاحني وأستسلم لها تماماً، كأني حجر ثقيل في أسفل بئر عميقة
تصل حتى قلب الأرض، حتى جهنّم .

مذ كنت صبياً صغيراً لا أعرف سوى البكاء . والبكاء يمنع
الكلمات ويقذفها بعيداً ومن دون الكلمات يتعطل الجسم ويقف
كصخرةٍ مهما ضربتها برأسك فهي لن تتحرّك .

ربّما لأنّي لم أتعلّم في المدارس . تعلّمت القليل، أقلّ ممّا
كان يلزمني ليهداً قلبي . حين كان أبي ما يزال على قيد الحياة كان
يأخذ عني كلاماً كثيراً يسحبه في جملٍ كحبلٍ من الشوك ويخرجه
منه ومني في الوقت نفسه . كان أبي ينظر في عينيّ قبل أن أبكي
بقليل ويحكّي كلامي وكلامه معاً . وحين مات أخذ معه كلامي
الذي لا يطلع ويصير يكبر شيئاً فشيئاً كدملٍ ضخّم . ذهبتُ إلى
يسوع لعلّه يفقاه لي . صلّيت كثيراً صلّيت بما أملك . لكنّ ما
أملك، في الصلاة أيضاً، كان غير كافٍ . حزنت كثيراً جدّاً لمّا
ردّني يسوع خائباً قلت في نفسي إن كان يسوع لا يريدني، لا
يحبّني، فمن سيريدني ويحبّني . من؟

لا أعرف الكلام ولا أعرف الناس . في عمري هذا لا أتقن أية لغة حتى العربية التي وُلدت فيها لا أعرف أدواتها التي تُخرج الندم أو الحب حتى أختي سلمى، منذ عدت إلى الضيعة، لا أعرف كيف أكلّمها، ويبدو لي أنّها هي أيضا لا تعرف كيف تكلمني إذ حتى الآن لم تسألني سؤالاً واحداً ممّا يدور في رأسها وترغب بشدة أن تعرفه عني ومنّي

بعدما عدت حاولت الالتصاق قليلاً بالمال، أو بادعاء المال. قلت في نفسي إن من معه مال كثير تسمعه الناس دون أن يتكلم. أو هم على الأقل لا يطالبونه بكلام كثير ويتركونه على مزاجه وحين يسكت يحترمون سكوته إذ لا يعتبرونه علامة كسل أو فشل أو ضعف.

بما تبقى من المال الذي حملته معي من سوريا اشتريت جبلاً وخطافات معدنية ورباطات من المطاط. واشتريت أيضاً سيارة عتيقة، أميركية قوية ولها غير في مؤخرتها يجرّ جبلاً علاقة معدنية يسمونها غير

لم يكن للأوراق التي وجدتها سلمى إلى جانب البارودة العتيقة أيّ فائدة بائنة. حين رأينا أنّها ليست صكوكاً لملكيات أو أراضٍ، وأنّها مكتوبة بلغة غير واضحة ولا مفهومة قالت سلمى إنّها لا بدّ حجاب أو كتيبة تحمي البارودة حتى لا يجدها أحد. وكانت البارودة مخبأة في البيت التحتاني كما تُخبأ الكنوز، ولولا أنّ بطريسة هدّ البيت لإعادة بنائه لما وجدنا شيئاً وإذ وجدنا البارودة أعدناها نظيفة إلى لفائفها لا ندرى ماذا نفعل بها وهي قديمة هكذا،

ثم نسينا الأوراق. لكنني لم أنسها رحت أقول إنها رسالة من أبي يريد أن يقول فيها شيئاً لي. إنها أكثر من رصد سحري لإخفاء البارودة.

حين أريتُ الأوراق لخليل، الذي لم أعد أكلّم أحداً غيره، قال لي إنها خارطة لكنز وراح خليل يضرب لي الأمثلة على الكنوز التي استخرجوها من الأرض وبقيت سرّاً عند العائلات التي هي اليوم عائلات أغنياء وأكابر ونافذين قلت في نفسي إن حظي العاثر أوقعني على ابن عمّي خليل الأخوت. لكنني، في الوقت نفسه، رحت أتذكّر ما كان يُروى عن ثروة أهل المونسنيور، وصفائح الذهب التي كان يشتري بها الأراضي ويفكّ المشانق أيام العثملي. وما كان يرويه أبي عن أبيه وجدّه من أنّ أرضنا أُحرقت بالكامل من ألف سنة، ومن فرّ من سگانها دفن ذهبه وماله في الأرض. إذ كنّا نجد أحياناً عملاّت معدنيّة حين نحرت عميقاً وإن ذهبنا إلى أعماق نجد طبقة الحريق والرماد مرصوصةً في باطن الأرض.

قلت لخليل طيّب ولو فرضنا، كيف نفهم هذه الخريطة ونقرأ ألغازها؟ قال إننا لن نستطيع ذلك، لكنّ هناك شيخاً في طرابلس يقرأ الممحوّ ويفكّ الألغاز ويفتح الرصد لأنّه يستحضر الأرواح وهي تساعده، لكنّ أجرته غالية وهو لا يقبض أوراق عملة، لا يقبض إلا بالذهب.

اشترينا ذهباً وبقينا يومين وليلتين في طرابلس نبحث عن ذلك الشيخ. أنا أغضب وأكاد أياس وأعود، وخليل يقول فرحاً إن هذا

دليل على قوّة فعل الشيخ إذ هو يختفي حين يريد، وصعوبة العثور عليه إنّما تعني طول باعه في السريّة، وهذا ضمان لنا

قال الشيخ، بعد أن كنّا سنهلك من الفزع، إنّ الخارطة التي معنا تشير إلى كنزٍ بالفعل لكنّه ليس مدفوناً في الأرض بل هو مودع في مغارة صعبة المسلك. ليرات ذهبية كثيرة في جرة من الخزف مطمورة في قعر المغارة. ثم أخذ الشيخ مزيداً من الذهب ليعطينا الكتابة التي يجب أن نقرأها لنستطيع كسر رصد الجرة وإلا، حتى لو وجدناها وفتحناها فسيكون بداخلها وحلٌّ وتراب ورماد لا تبر وحتى لو وجدنا بداخلها تبر الذهب فهو سيظير منها في لحظة إن لم نكسر رصدها بحسب التلاوة الموجودة على الورقة. أعطانا الورقة وقال: إياكما أن تعودا إليّ فإن أنتما رأيتما وجهي ثانية تحوّل ذهبكما إلى عقارب لا ترياق لسمّها

انتظرنا ليلةً بلا قمر ثم انتظرنا ليالي عديدة بلا قمر كنّا نوقف السيّارة في أقصى ما نستطيع نزولاً دون أن تلفت النظر، نخرج من صندوقها الحبال والربّاطات والخطافات المعدنيّة، وبعض الشمع ننزل متدلّين بالحبال إلى المغارة التي نكون قرّنا البحث فيها بحسب ما يتهيأ لنا على الخارطة. كلّ مرّة ينزل واحد ومعه الشمع والكبريت وورقة كتّيبة فكّ الرصد، ويبقى الثاني ليسحبه بالحبل المربوط إلى غير السيّارة الخلفي بسوقها إلى الأمام ببطء شديد.

وجدنا الكثير من زبل الطيور الجارحة وقد استحال غباراً لقدمه. ووجدنا الكثير أيضاً من عظام طرائد الكواسر ووجدنا مرّة

في مغارة كبيرة هيكليين عظيمين رحنا نخمّن، لصغر حجمهما،
 أنّهما لولدين مغامرين وصلا إلى المغارة قبلنا لكنّ خليل قال إن
 العظام قديمة جدًّا، وارتأى أنّها لأجدادنا القدماء الذين عاشوا في
 المغاور والكهوف، ولما سألته لماذا يختار أجدادنا مغاور بهذا
 القدر من وعورة المسالك إذ لم تكن لهم أجنحة يطرون بها، راح
 يقنعني بأنّ الوادي لم يكن بهذا العمق وأنّ المغارة كانت على
 الأرجح أعلى بقليل من مستوى الأرض التي كانوا يمشون عليها
 ولما سكرنا بعد عودتنا صار خليل يضحك من أجدادنا قائلاً إنّ ما
 روي عن أنّهم كانوا عمالقة وجبابرة ومردة كان كذبًا وتفنيصًا
 جراجمة ومردة؟ كانوا أصغر قداً من شليطا شليطا وحده هو
 الابن الأصيل لأجدادنا السكّان الأوائل. هع هع هع فقط
 شليطا القزم.

نضحك كثيرًا حتى لا نياس تمامًا من البحث بعد أن دفعنا كلّ
 هذه الأموال. وبعد أن كدنا نُقتل ذات ليلة، أنا مدلّي بالحبل ينزل
 بي بدل أن يطلع، وخليل في السيّارة تنزلق على دفعات نحو الوادي
 وهو لا يستطيع إيقافها لا بالكوابح ولا بسوقها طلوغًا إذ مات
 محرّكها فجأة، أقسمنا معًا، أيدينا باتّجاه مار قزحيا أن تكون هذه
 النزلة هي الأخيرة. وهكذا كان.

وعدنا نضحك. وأكثر من قبل وندخّن الحشيش ونسكر،
 لننسى المال الذي ضاع هباءً إذ حتى السيّارة لم أستطع بيعها
 بمحرّك ميت.

أستطيع رؤية هيكلها الأسود من هنا

لكن رغم كون هذه السيارة دليلاً ماثلاً ببقعة كبيرة معلقة في عرض الصيران ويشير صراحةً إلى فشلي فأنا لا أشعر بمرارة.

أحزن لأنني لم أعد أرى خليل، صديقي الوحيد. صار أخواه نديم وفينيانوس يمنعانه بالقوة من المجيء إليّ، بل حتى من الخروج من البيت أحياناً. لم يعرف أحد شيئاً عن مغامراتنا الليلية في البحث عن الكنوز، لكنّ عمّي رزق صار يقلق لغيابه الطويل والمتكرّر في الليالي. وحين يرتبك خليل ولا يجيب عمّا عسانا نفعله هو وأنا طوال الليل، لا يرانا أحد نسهر في مكان طبيعي، منعه عمّي وقالوا، لا بدّ، ما أخرى منك إلا ابن عمك طنّوس.

حتى لو أراد خليل الهرب للقائي فهو هنا لن يصل إليّ لأنّه لا يعرف مكاني. وأنا لا أريد أن أراه حتى لا أزيد في همّه وفي التعجيل بحمله إلى الجيش أو إلى مغارة المجانين في دير مار قزحياً

أنظر طويلاً إلى الدير من هنا أصلي أحياناً لمار قزحياً ربّما يغفر لي فراري هكذا من داره.

أتذكّر كثيراً حيّ لآبا الحصريّ. أكثر ممّا أتذكّر الآخرين وأشتاق كثيراً إليه ويعنّ لي أن أذهب لرؤيته وقد شاخ الآن، على الأرجح لكثي لا أجرؤ. لا أجرؤ على ذلك

أنا لا أجرؤ على شيء. ليس لي أحد ولا أصدقاء الآن.

ليس لي سوى صوتي حين أغني بصوت منخفض حتى لا يسمعي أحد. لكنّ الصوت ليس إنساناً تتكلّم إليه، مع ذلك فهو صديقي

والصوت ليس عكازًا تسير عليه، ومع ذلك يحملني صوتي
أحيانًا فأسير به راكبًا كأني على ظهره أو متكئًا قليلاً عليه

لكنّ صوتي لا يتكلّم، وحين يقول شيئًا فهو يقوله لي وحدي
ويُرجعه إلى داخلي فيما من يحبّني ينتظرني. ينتظر أن
يسمعني

أشعر أحيانًا أنّ سلمى التي تحبّني تنتظرني، كأنّ في الخارج
على الباب. وصار ينبغي، ربّما، أن أحكي لها أن أقول لها شيئًا
مما تنتظر لتدخل إليّ. أن أفتح لها باب الحياة التي لا تعرفها
عني، إذ يكفي أن نبقى الكلام مُوصدًا على غربةٍ واحدة. تلك
التي دفناها معًا في تراب بُنحلي بجانب بيت الحقلة، هناك

أنظر في الليل باتجاه بيت الحقلة في بُنحلي لا يظهر حتى
موقعه من هنا لا بدّ أنّ أعشاب الهشير التي غطّته صارت الآن
أشجارًا

لا أنسى ذلك الرجل أبدًا لا أنساه في قبره، ولن أنساه لأنّي
لم أنجح يومًا في الكلام عنه، لا مع سلمى ولا مع نجيب. لا
نتكلّم عنه أبدًا لذلك لن ننساه ولن نتدبّر همّه الكبير

قصاصنا سينزل ذات يوم عظيمًا لو أراد لنا الربّ الندم من
أجل الغفران لمنحنا نعمة كلام الندم، لأعطى لعذابنا صوتًا يصل
إلى أذن رحمة ما، إلى كرسي اعتراف ما

أفكر بالقصاص وأنتظره. وأفكر كثيرًا بأهله، ذلك المسكين.

أفكر بأهله كثيرًا إذ أعتقد أنّ أحدًا لم يأت منهم للبحث عنه.

بقوا هناك في بلادهم، وحيدين لا يعرفون له مكاناً يكون فيه عليه .
لا بدّ أنّهم فقراء مثلنا وإلا لكانوا أتوا
فقراء مثلنا لا يملكون مالاً للمجيء . ولا يملكون صوتاً
للكوى والمطالبة بآبئهم .
ثم أفكر بمرارة أنّ موتى الحروب، وخاصّة الفقراء منهم، هم
أولاد لا أحد .

الفصل الثالث

وإن كان قصاص الربّ الأخير سينزل فينا حتمًا يوم القيامة، فهذا لا يعني أنّ يسوع سيعذبنا ويعاقبنا في كلّ أوقاتنا وحتى يعود ويبعث فينا الحياة بعد الموت. بل هو ستركنا لحيواتنا ثم ستركنا نموت ونقضي زمنًا يطول كثيرًا في القبور قبل أن يستدعينا للحساب الأخير، تنفخ الملائكة بأبواقها فنسمعها، وتنهض عظامنا وهي رميم وتمشي إلى قضاء الربّ.

وإذا لنا متّسع من الوقت يرفع فيه الربّ قصاصه، ينسأه، ويعطينا نحن الخطأة أيضًا نعمة أن ننسى، بل وأن نفرح بالحياة. لنا كلّ الوقت الذي نعرفه. أمّا ذلك الذاهب حتى يوم القيامة فالربّ يعلم أنّ عقولنا، المحكومة بقلة القدرة، لا تستطيع احتسابه أو حتى تخيّل عديد سنواته. وهو لو أراد أن نعرف لقال لنا وهو إذا يتركنا نلعب، في فسحة الوقت هذه، لعبًا جميلًا، ويكون فرح كلّ يوم بإرادة منه، لا مجرد فرح يدفعنا إليه لتطول لائحة خطايانا.

لا تقول أناجيل الكنيسة كيف كان يسوع يفرح إن كان يضحك أو يمزح مع رفاقه وتلامذته. في الأناجيل يبدو يسوع دائماً حزيناً متألماً، وغضباً وعاتباً على الدنيا حتى حين ينجح في معجزاته فيجعل الأعمى يفتح عينيه، والمخلّع يحمل سريره ويمشي، لا تقول لنا أناجيل الكنيسة كيف كان يحتفل. لكن هناك أناجيل لا نعرفها خبّرت لا بدّ عن ذلك، وكيف كان يفرح في الولائم والأعراس، وفي أسفاره ولقاءاته بالناس، وفي كلّ تفاصيل أيامه التي سبقت عذابه وصلبه على الجلجلة، لا بدّ، إذ كانت له طبيعة بشرية أيضاً

الأناجيل تفضّل الخوف. يوم القيامة سيجيء حتماً، لكنّ الربّ لم يرد لنا أن نعرف متى. لذا لم يقل شيئاً، وهو كان باستطاعته أن يفعل يسوع يفضّل النسيان. هو من يريد أن نلهو قليلاً قبل مجيء الساعة، قبل أن يحين وقت ملكوت الربّ، أبيه.

ولو كانت خطايانا دُيّننا لا مهرب منه، فنحن لن نعلم إلى تعليق مشانقنا لأنفسنا منذ الآن، لنهرب من الدائنين كما يفعل البلهاء هؤلاء الذين يعتقدون أنّهم، إن قضاوا حياتهم ينظرون إلى المشانق حتى إذا دقّ الدائن الباب وتعلّقوا بها، يكونون بذلك قد محوا دُيّنهم بمحوهم حيواتهم.

لن يكون هكذا يوم القيامة، ولن يكون هكذا شكل الحساب. ذلك أنّ يسوع نفسه قد فرح في حياته كثيراً ضحك ولعب

وتسلّى وأحبّ ومزح وسكر، وغنى . ربّما غنى يسوع في الأناجيل
التي لم تصل إلينا ربّما كان صوته جميلاً في طبيعته البشريّة . تلك
التي لم نخبرنا عنها أناجيل الكنيسة الشيء الكثير

وإلا فكيف يكون يسوع اشترى خطايانا، وهو في النهاية
تعذب في جسده، ومات من أجلنا؟!!

كانت حياتنا سلسلة من الأفراح حتى بتنا نتساءل عن كيفية تدبرنا لهذا المدّ الجارف من الحظوظ والأقدار السعيدة حتى لا يفوتنا شيء منها غادرنا شعورنا بالذنب وقرب الحساب وتوقع الأسوأ كلما كنا نفرح أو نضحك أو نسعد. ذلك كله أصبح من الماضي. ونسيناه.

حتى الثلج

الثلج الذي كنا، إذا قسا الشتاء، نعتبره قصاصًا من السماء، وديةً ندفعها عن ذنوب اقترفتها أيدينا، بمعرفة منا أو بغير معرفة، انقلب نعمةً. فهو فتح لنا جميع الطرقات واسعةً، وصارت شعوب الأرض تأتينا من الأفاصي، فجرت الأموال بين أيدينا بسهولةٍ ووفرةٍ سرعان ما اعتدناهما، نحن الذين قضينا قرونًا طويلةً من الفقر والجوع، وفي تواضع حين نفكر به اليوم نراه أقرب إلى الخنوع، ونعجب لخضوعنا كما افترضنا أنها الأقدار دون تفحص أو مواجهة.

ورغد العيش هذا ردّ إلينا بعض من كانوا هاجروا بعيداً من فقرهم، فعادوا إلى الضيعة أغنياء، بنوا قصوراً وأغدقوا على الناس أموالاً، وصاروا زعماء ونواباً وبيكاوات ومشايخ ويُقال إنّ ماستين أو ثلاث ماسات من تلك التي عادوا بها من مجاهل أفريقيا، حيث الناس لا يفهمون بالماس ولا تعوزهم أحجاره، تشتري الضيعة كاملةً ببيوتها وأراضيها، وربّما كامل القضاء. ماستان أو ثلاث فقط، وهم يملكون صناديق ملأى.

ثم إنّ الحشيش أدخل الخير إلى البيوت، وهو بدوره وسّع الطرقات وعبّدها في الأماكن التي لم يكن يهتمّ لها متمولون آخرون. وحين كان الأغنياء يتعاونون ويفتحون مصالح وخدمات للناس، كان الازدهار ينزل كالقدر السعيد لا يستطيع أحد تجنبه حتى ولو أراد. فالماس والحشيش، عدا التفّاح والأوتيلات والمطاعم والسياحة، جعل البيكاوات القدماء وأولاد العائلات يعيدون حساباتهم بتواضع كبير، خاصّةً حين وجدوا المطارنة والخوارنة على رأس طاولة الولائم التي كانت موائدها وذبائحها المعلّقة تصل من بيت الزعيم الجديد إلى آخر الطريق الرئيسيّة، كأنّ كلّ يوم عيد ومناسبة سعيدة. وحين وصلت الأمور إلى حدّ وجد فيه هؤلاء القدماء أن الخُلص من أزلامهم ورجالهم ومرافقيهم باتوا يتكلّمون صراحةً عن معاشاتٍ شهريّة وأسلحةٍ جديدةٍ جميلة عند أزلام ورجال ومرافقي الطاقم الجديد، هم الذين لم تخطر لهم المطالبة بشيء يوماً، لا يحدوهم سوى الحبّ والولاء أباً عن جدّ، تسارعت اجتماعات التنسيق والتعاون وبوس اللّحي، ومن تأخّر عن

ذلك كثيراً قعد في بيته يبكي زماناً مضى، ويحكي بلغة لم تعد تُشير حتى الشفقة. فقط بعض الأصيلين من أزلهم السابقين كانوا يرسلون سرّاً من وقت لآخر بعض المساعدات على شكل هدايا لمن صار فقره ظاهراً ومعيباً من الزعماء القدامى.

حتى أيام الجمعة صارت الذبائح تُعلّق في الساحة. وحين يقف الخوري بجانب العنزة أو عجل البقر ليرى من سيأكل الزفر ويعصي كلام الكنيسة من جيل الرعونة والكفر، كان اللّحّام يستعيد بالشیطان إذ سيخجل بعض الزبائن من الاقتراب من دكانه لشراء اللحم والخوري يبهدل الناس هكذا وحتى يُسكت اللّحّام الخوري ويبعده عن الدكان حيث كان الأخير يختبئ أحياناً في الداخل مُحكماً فخه للانقضاض على الزبون، كان اللّحّام يقول للخوري إنّ الذبائح تذهب حال سلخها إلى الأوتيلات، في الأرز خاصّة، حيث هناك أجانب وسيّاح، بعضهم لا يعرف قوانين الكنيسة الخاصّة بيوم الجمعة، وبعضهم الآخر ليس مسيحياً بالأصل

وكرر تعليق الذبائح أمام الدكاكين العادية. فتلك التي كانت مجرد دكاكين سمانة علّقت الخطاطيف على أبوابها رغم امتعاض اللّحّامين أصحاب الاختصاص الذين راحوا يشكّون، إمّا بجودة اللّحم وإمّا بطريقة الذبح التي تجعل اللّقمة زفرة. إذ يقول اللّحّامون إن انتقاء الذبيحة الجيدة من ضمن قطع بالمشات يتطلّب نظرة ومِراساً لا ينفع معهما غشّ أو خداع، ولو كان هذا القطيع بلدياً مئة بالمئة. ثم هناك طريقة الذبح، يقول اللّحّام الأصيل، وخروج الدم من جسم الذبيحة، والدليل يقعد في الكبد التي تؤكل نيئة زكيّة

سكّريّة، أو تُرمى في الزباله متخثّرة بدم فاسد. لكن كلّ هذا لم ينفع إذ كان الخير الكثير يجعل كلّ الذبائح نافذة قبل المساء، واللحم تقريبًا في كلّ بيت. فقد انقرضت عادات المؤونة في تقديد اللحوم وطمرها في ثلج الحقالي أو في صنع القاورما أو نقع الشرائح في خوابي النبيذ. هذا حتى قبل أن تفخر ربّات البيوت بعرض صفوف العلب المعدنيّة الملوّنة بجميع أنواع الكونسروة على الرفوف البائنة، حتى غرفة الاستقبال حيث يربض البرّاد الضخم بثلاجه الملاّنة بحصاد الموسم. إذ صار من علامات البحبوحة إخراج اللوبياء مثلّجة من البرّاد ولو كانت اللوبياء في عز موسم قطافها، وطازجة تملأ صناديق الدكاكين.

ذلك أنّ الدكاكين الجديدة صارت تباع ما لم يكن يخطر لأحد بيعه في الماضي. والسبب ليس التقنيّات الحديثة فقط بل وجود أغراب صاروا يقيمون في الضيعة ونسمّيه المصطافين نسمّيه المصطافين صيفًا إذ يستأجرون بيوتًا عندنا هربًا من حرّ الساحل، وشتاءً أيضًا بقينا نسمّيه المصطافين حين نؤجّره في مواسم التزلّج بكلفة أقلّ من كلفة الأوتيلات والفنادق والشاليهات. هم أيضًا غيروا في هيئة الساحة؛ إذ فُتحت من أجلهم دكاكين لبيع أو تأجير ثياب وأدوات التزلّج، وأيضًا كراجات لتصليح السيّارات والبوسطات التي تتعطل على الطريق، أو أكشاك وزوايا لبيع السندويشات، أو صناعات يدويّة من خشب الأرز للتذكارات أو. أو. فسرعان ما عرف الأغراب بأنّ أسعارنا ولو كانت غالية فهي تبقى أقلّ بكثير ممّا سيدفعون فوق في الأرز.

لم تكن كلّ هذه التغييرات من أجل المصلحة المادّية فقط، كانت أيضًا تجميلاً ورفعاً للمكانة. فتمّ اقتلاع الأشجار المحيطة بعين الماء أمام واجهة الكنيسة كي تتوقّف فيها السيّارات وبخاصّة العموميّة التي نشطت في كلّ الاتجاهات، ولأنّ الخصوصيّة صار من الصعب ركنها في الأحياء الضيّقة والشديدة الانحدار وفي الطلعة القاسية إلى ساحة مار يوحنا، تمّ بناء درج ارتفعت على طرفه واجهات المحالّ، لافتاتها مكتوبة بالفرنسيّة، وفيها الخبّاز والكوافور وبائع الصيني ومحطّة بنزين وتشحيم وتلحيم دواليب. واجهته دكّان بشارة نفسها تغيّرت. صارت زجاجيّة بالكامل وأمامها ارتفعت تلال الأواني البلاستيكيّة الملوّنة، وفي طرفها طلمبتان واحدة للبنزين وواحدة للمازوت. وفوقهما كتب ابنه إعلانًا على خشبة كبيرة يقول: نؤجّر ونبيع كلّ شيء، بالخطّ العريض، ويخطّ أصغر بيوت وفرش وأدوات تزلج وصوبيات وسماد زراعي إلخ، إلخ وعندنا تلفون. دارا السينما أضافتا أنوارًا وألوانًا جديدة بواجهتيهما اللتين كانتا تطلّان على الطريق العامّ، واحدة في أوّل الساحة ملتصقة بمحلّ بيع الفرائج الحديث، والثانية في الطرف الآخر، تمامًا قبل مفرق الأرز الأولى صغيرة اسمها ريفولي لكنّ الجميع يسمّيها سينما ندرّة وتحفظ في واجهتها الكبيرة نسبيًا بملصقات الأفلام القويّة التي أحبّها الناس، خصوصًا أفلام البطولات العضليّة، والثانية كبيرة وأكثر جدّة اسمها لاكوريدا ويسمّيها الناس سينما الشدياق باسم عائلة صاحبها المتمول المهاجر الإفريقي، وميزتها أفلام الحروب والأفلام الهنديّة.

والأفلام فيها تتجدد كل أسبوع أو أسبوعين وبإمكان قاعتها أن تتحوّل إلى مسرح إذ في مقدّمها ستارة تبعد أمتارًا عن الشاشة، وهي من طابقين، وعلى الداخل أن يدفع ثمن البطاقة على الصندوق وليس مباشرةً بيد المالك كما في ريفولي حيث تسهل المساومة خاصّةً إن كان الفيلم قد بدأ عرضه. ولأنّ إيجار البيوت الأقرب إلى الساحة كان الأعلى ثمناً ارتفع بناء الطوابق الباطونيّة التي حلّت مكان القرميد الذي يحدّ من سقف البناء، وازدانت السقوف العالية بأضواء البلاكين، ولكن أيضا بأضواء بعض السطوح الشرحة التي تحوّلت إلى مقاهٍ ومطاعم جميلة وتبثّ الموسيقى بالصوت العالي دعوةً للزبائن الذين لا يرفعون الأعين من تلقاء أنفسهم.

ياه. كلّ هذه النعم كلّ هذا الخير كلّ هذا الهناء. !

كيف كان لأحد منّا أن يكون جاحداً، أو ناكراً غير ممتنّ؟!

مع ذلك ارتفعت بعض الأصوات، قليلة وخافتة ولا يسمعاها أو لا يردّ عليها أحد، تعترض وتنقّ وتنعي وتحذر و.

الخوري، ولا يستمع إليه سوى العجائز والعوانس، ارتفع صوته محدّراً من غضب الربّ وسقوط الأخلاق، خاصّة حين فتحوا مرقصاً ليلياً في مدخل الضيعة انتخبوا في أوّل ليليه ملكة جمال القضاء، ثم تأكّد الخوري أنّهم يرقصون فيه كما يحصل في الأرز مع الغرباء، في العتمة شبه الكاملة، والفتاة صرّتها على صرّة

الشابّ والخجل يمنعه من الدخول في التفاصيل

وبضعة شبّان من المتعلّمين أعادوا إحياء ما يُسمّى بجمعيّة الشبيبة الثقافيّة الرياضيّة، لا يسمعونهم إلاّ آذانهم، وكانوا هكذا لوحدهم يجتمعون وينقون قائلين. مثلاً، إنّ على المتمولين - أو الدولة - أن يبنوا في الناحية برّادًا لحفظ التفّاح تشرف عليه تعاونيّة من أصحاب البساتين والحقول لمنع التّجار من الاستبداد بالأسعار وأيضًا إنّ على أحدٍ ما، مهما كان، أن يفكر ببناء مستشفى حتى لا تموت الناس على الطرقات. وكانوا أيضًا كثيرًا ما يأتون على ذكر الأموال التي تدرّها مبيعات كتب ابن الضيعة وعبريّها العالمي جبران خليل جبران، فيشتمون اللجنة الموكل إليها جمع هذه الأموال، ويقولون إنّها تحالف من النصابين والسراقين محميّة من الزعماء الذين يتقاسمون ما هو شرعًا للفقراء ولطلّاب العلم غير القادرين. حتى إنّ أحدهم كان يقول إنّ أموال عائدات كتاب واحد من كتب جبراننا كان يمكن أن تفتح مدرسة ومستشفى وجامعة أيضًا، وبحسب ما أوصى جبران نفسه. لكنّ الناس لم تكن تستمع لهؤلاء، وكانوا يحدثون جلبة لا تؤثر في أحد إذ حتى آباء شبّان جمعيّة الشبيبة الثقافيّة الرياضيّة هذه كانوا يضيّقون بهم وبجعجتهم، ويعتذرون عنهم لمن كان الشبّان يشتمونهم علنًا ويشكّون في أخلاقهم. أمّا بعض المتطرّفين الذين كانوا يلعنون أيّما كان ويتكلّمون عن وجوب التجديد وقيام أكثر من حزب، فكان أهلهم يتبرّأون منهم صراحة، بل إنّ هناك من طردهم أهلهم من البيت وحرّمت عليهم الإقامة في الضيعة إثر اتّهامهم بالإلحاد والشيوعيّة والقوميّة واستيراد الأفكار وأشياء خطيرة من هذا

القبيل . وأمّا قصاص البعض الآخر ممّن كانوا يتكلّمون في ضرورة الأحزاب لكن بلطف وبتهذيب، ويواظبون على حضور القدّاس واحترام الأهل، فكان قصاصًا أقلّ قسوةً بكثير حتى إنّ أعتى الزعماء كان يُبدي لنا معهم فيدعوهم للأخذ والعطاء والنقاش، لم لا؟ مع الجيل الجديد. هكذا كانوا يسمّونهم، صدقًا أو كذبًا وكذبًا على الأرجح إذ مجمل هؤلاء، إن لم يكن جميعهم، كانوا فقراء ولا يزن كلامهم ولا آراؤهم شيئًا ذا قيمة. ومن غير الممتنّين بالنعمة التي غمرتنا كان هناك أيضًا طنّوس.

في كلّ يوم تشرق فيه شمس الربّ أفتح عينيّ وفي حلقي طعم
مر بعد ساعات، في حدود الظهر أو بعده بقليل، أصبح أفضل
مزاجًا لا أعرف لماذا لا أعتقد أنّ لذلك علاقة بضوء السماء.
ولا بكلامي مع نفسي طيلة ساعات النهار الأولى لإقناعها بأن لا
سبب فعليًا لهذا الانقباض القوي الذي يربط باب المعدة ويشدّه
بقوّة إلى تحت، كأن إلى بئر بلا قرار، وسوداء

لم أعد بحاجة للخروج من البيت لأهرب من الناس ومن
سلمى ونبيهة ونجيب؛ إذ مهما قالوا وفعلوا أظلّ أشعر أنّي فاشل
ولا أنفع في شيء.

في عمري هذا تكون للرجل عائلة وبيت وأولاد. تكون له
زوجة، ويكون عنده شغل وأصحاب. تكون له كلمة بين الناس.

يغلبني الحزن على سلمى. لا لأنّها تحبّني كثيرًا وأنا أحيب
أملها كثيرًا، بل لإحساسي أنّها دومًا شاخصة إليّ، تنتظر ربّما أن
أكون سعيدًا أي أنّ سلمى تنتظر أن أكون سويًا. تنتظرني. تفكّر

كيف تساعدني . تقريبًا كلّ يوم، إن حكّت أو سكتت تفكّر سلمى
كيف تساعدني كلّما وجدت فكرة أوافق سريعًا رغم عدم اقتناعي
وخوفي من فشل أكيد يعزّز يأس سلمى مني . لكنّي أقول في نفسي
إنّي سأحاول وإنّي لا أستطيع، بعد كلّ ما حملتها إياها، أن أرفض
منذ البداية .

هكذا صارت سلمى تتجنب الأفكار والاقتراحات الكثيرة من
نفسها صارت تقول إنّ الشغل والمال غير مهمّين، وإنّ الأهمّ هو
أن يكون الإنسان سعيدًا مرتاح البال ويفعل ما يحبّ في هذه
الحياة . لكنّها تقول ذلك يأسًا منّي، ولأنّها لا تملك خيارًا آخر
وهذا يحزني كثيرًا، إذ كيف يستقيم كلام كهذا وسلمى تعطيني مالاً
من تعبها لأصرف على نفسي .

مذ نزلوا إلى بيروت لا يطلعون إلى الضيعة إلّا قليلاً، وأنا
أشعر بحضورهم في البيت أكثر بكثير ممّا لو كانوا ما زالوا مقيمين
هنا ذلك أنّي أراهم دائماً شاخصين إليّ وأنا لا شيء عندي أقوله
لهم أو أفعله معهم . بينما حين يحضرون فعلاً يتلهّون عني بأمر
كثيرة، بكلام بينهم، بالانشغال بالأولاد، بتدبير شؤون الأكل
والبيت والسوق . وبالمناسبات التي تكون حصلت في الضيعة .
وأحياناً، حين ينشغلون عني كثيراً أروح أقول لنفسي إنّهم إنّما
يفعلون ذلك عن قصد، وحتى لا يبدو عليهم ذلك الاهتمام
بمشكلتي التي لا حلّ لها، وبما أنّه لا حلّ لها فعلام يشعرونني
بفشلي من غير لزوم؟ ثم كيف يهتمّون بمشكلتي وهم لا يفهمون أين
هي مشكلتي؟ وربّما تجنبوا الحديث في الموضوع برمته بسبب

اعتقادهم أنني رجل كسلان. كسلان و أتكالي، وتصلني اللقمة إلى حلقي من تعب الآخرين فلماذا أُتعب نفسي وأُجهدها ؟

أو أنهم ربّما ينسونني. نسياناً لا تجاهلاً يأساً فالحياة الموزعة بين بيروت والضبعة لا تترك لهم وقتاً لي أو بالأمرتاحاً يظلّ يفكر في طنّوس ومشاكل طنّوس. لكنّ هذه الأفكار لا تُقيم كثيراً في قلبي إذ أرى حين يأتون كم يحبّونني. أقول كلّ هذا الحبّ. كلّ هذا الحبّ، ثم أغرق في كآبتي من جديد. أغرق في كآبتي من جديد.

هذا كلّهُ، بكلام أو من دون كلام، تعرفه سلمى. تعرفه كأنّ لنا قلباً واحداً أنا وأختي. والسنوات القليلة التي بين عمرينا، والتي يملأها الإخوة الآخرون لا تؤثر في إحساسي العميق بأنّها توأمي وبأنّنا قد وُلدنا معاً وفي لحظةٍ واحدة وأنّنا، ربّما لم نفرق أبداً ولا ليوم واحد.

هذا، رغم أنّنا لا نتشابه كثيراً بل إنّ سلمى، في بعض كلامها قد تجرحني، وقد تستعجل في رفض ما أوّكده لها حتى لو حلفتُ وأقسمت. لكنّ الكلام معها، حتى حين نختلف كثيراً، يبقى جارياً ولا يتوقّف من زعل أو حزن أو يأس.

لذا أخبر سلمى بكلّ شيء. تقريباً بكلّ ما يحصل في حياتي. وحين تغضب أو حتى حين تعنفني في دور الأخت الكبيرة وبما لم يعد يليق بسني، لا أزعل. بل إنّي أفكر أحياناً أنّ الكلام لا يستوي في رأسي إن لم تسمعه سلمى، تعلق عليه بالموافقة أو بالنفي أو بالردّ العنيف. ليس من أجل أن أتحقّق من صحّة ما أفكر به مُعدّلاً

أو مُصدِّقًا عليه بكلام سلمى، بل من أجل أن يكون لي شاهد على حياتي. ولأنِّي وحيد هكذا وإلى هذا الحدِّ لن أجد لنفسي ظلًّا على الأرض، أو أثرًا، أو أن يدري بي هذا الكون.

حين تحاول سلمى مساعدتي من جديد، ورغم معرفتي الأكيدة بأنَّ فشلي سيعمِّق حزن أختي عليَّ لإعاقاتي الكثيرة المتكرِّرة، إلَّا أنَّني أستردُّ الروح قليلاً، وأقول إنَّ سلمى ما زالت تحبُّني، وهي لم تيأس مني بعد. لم تيأس تمامًا

أخي أنطوان الذي حدّثك عنه، قالت سلمى للرجل الذي دخل معها راحت ترخّب به ولا تنظر إليّ إلا من طرف عينها ولأنّها لم تكن تكلمني عن هذه الزيارة فهمت أنّ سلمى تريد أن تضعني أمام الأمر الواقع وبما أنّها غيرت اسمي، كما يفعلون الآن، جميعهم، رحّت أتحنح مستسلما للامتحان القريب فهذا الرجل سيسخّطني في الغناء. هكذا تريد سلمى التي لم تياس بعد.

كان الرجل ينظر إليّ بتفحص ظاهر، مباشر ودون مداراة. ينظر بشيء من الوقاحة إذ يكلم أختي ولا يبتسم حتى لي حين يتفحصني هكذا من رأسي حتى أحمص قدميّ وحين تدخل سلمى المطبخ لتحمل إليه الضيافة يبتسم لي سريعًا ويهز رأسه.

لكنّه، قبل أن يقول لي هاتِ أسمعنا، راح يردّ على أسئلة سلمى حول موسم التفّاح. كان يردّ بسرعة من لا وقت لديه للإطالة، وبشيء من التبرّم، يعطي لا بدّ أهميّة لمهنته الثانية التي حملته اليوم إلى بيتنا. قلت في نفسي لا ضير أن يكون الواحد

تاجر تَفَاح في موسم التَفَاح وتمعّد حفلات أو شيئًا من هذا القبيل في الأوقات الأخرى. وعدت أتحنح استعدادًا، وأبتسم لسلمي بما معناه: إني جاهز

بعد أن انتهيت من وصلتي القصيرة التي أدتها من دون مزاج طبعًا، لكن بكثير من التأنّي، قال الرجل يعطيك العافية. حلو حلو ثم قال لنا يجب أن نتكلّم بصراحة أليس كذلك. فوافقنا بهز الرؤوس ورغم معرفتي المسبقة بما سيقول فتحت عينيّ واسعتين وقدمت وجهي مُبديًا اهتمامًا أكيدًا، لا لما سيُسمعا بل من أجل أن ترى سلمى كم أني جدّي ومنفتح للملاحظات.

الأستاذ أنطوان، اسم الله عليه، رجل جميل الطلّة ويفرض حضورًا على المسرح لكنّه، بصراحة ليس شابًا صغيرًا صحيح أن المطربين ليسوا جميعهم شبانًا لكنهم بدأوا صغارًا، وصنعوا لأنفسهم شهرة. لا يتساءل الناس أين كانوا قبل اليوم. قال الرجل

ثم هناك الصوت، وهناك الأداء. صوت الأستاذ أنطوان جميل جدًّا، هذا ما لا شكّ فيه، لكنّه صوت صعب. أعني لا تعرف ما لا يليق به إن أردت أن تصنع له أغنية. فهو صوت جميل لكنّه صعب. فهو لا بدوي ولا جردي ولا تراثي ولا عاطفي خفيف. هذا شيء عظيم لأنّه فريد لكنّه غير دارج هذه الأيام. بصراحة هذا صوت كان يجب أن يستعمله أحد منذ الصغر ليجد له الصنف الملائم ويدرّبه عليه، يخلق له نوعًا خاصًا ربّما وأنا، بصراحة لست أستاذ موسيقى. ثم بصراحة، نصيحة، الصوت

جميل والأداء لا نشاز فيه لكن . لماذا نغني مال الشام؟ ما لنا نحن ومال الشام. أنا لا أعترض على الموضوع، الواحد حرّ بغنائه وبمواضيع الأغنيات، لكن بالنسبة لي هذا يزيد الأمور تعقيداً أعني بالنسبة للسّمّية والزبائن. صعب صعب مع كلّ احترامي صعب بالنسبة لي أنا، ربّما بالنسبة لغيري هو ليس كذلك. لكنّه بأيّ حال هو ليس صوتاً شعبياً، ولا هو يفرّح قلب السّهرة.

نصيحة. نصيحة صريحة، يجب أن يتقدّم الأستاذ إلى إذاعة بيروت وهناك يجرون له فحصاً وربّما أدخلوه في جوقه، بحسب التصنيف. وربّما وجد في بيروت، أو في طرابلس، أحد الملاهي الليلية التي تحبّ هذا الصنف. صنف هو أقرب إلى الطرب يقدمونه، أعرف، في آخر السهرة لكن. لكن، بدون إطالة. مقاطع، تنويع، تشكيلة، إذإنه، بصراحة يُثقل قليلاً جوّ السهرة. بصراحة صوت جميل جداً، أنا آسف ستّ ميمي.

حين خرج الرجل رحنا في ضحك عميق. ضحكنا من أعماق قلوبنا وأنا بالغتُ في الضحك لترى سلمى أنّي لم أتأثر أبداً لكلام الرجل.

ثم قالت سلمى. طيّب، ماذا خسرنا؟ فنجان قهوة؟

كانت سلمى تطيّب خاطري، ليس فقط بسبب رأي الرجل فيّ بل لأنّي لم أعلّق معترضاً على تغيير اسمينا إلى أنطوان وميمي. كنت اعترضتُ في السابق، لكنّ سلمى بقيت تقول إنّي لا أسهّل أمور الناس، وإنّي أحمل السّلم بالعرض وأريد السير به في طرقات هي ضيقة أصلاً... ثم بأنّي أتوقّف عند تفاصيل بسيطة، لا أهميّة

لها ثم قالت: إن كان ذلك لا يزعجك أعط من تريد الاسم الذي تريد. إن كنت لا تريد التغيير لا تغير

لكنني غيرت إذ كان الحق مع سلمى، لكن فقط أمام الناس الأعراب. فهؤلاء لو استعملتُ أمامهم أسماءنا القديمة لما عرفوا عمّن أتكلّم لكنني مثلاً كنت أجد من الصعوبة بل والمبالغة أن يصبح اسم امرأة عمّي رزق كريستيان بدل مسيحيّة، فارتأيت أن أناديها بأمّ تريز، بدل تريزيا لكنني قبلت بأن يصبح اسم ابنتها المأظة ديامون مع أنّها كانت أصبحت في سنّ لا يليق بها أن تغير اسمها، بحسب رأيي.

صحيح أنّ بعض الأسماء كان لا بدّ من تغييرها فبطريسة اسم لا ينادى به سوى الأولاد لأنّه اسم دلّع لكن بدل أن يصبح - أو يعود - بطرس صار بيار، وبيار اسم جميل ويليق بمهندس يعمل موظفًا محترمًا وأليصابات التي تعرّفت في مسيح اللونغ بيتش على ضابط في البحرية الفرنسيّة كان يزور شاطئنا على بارجة الكولبير، وتزوّجته وذهبت تعيش معه في طولون التي تقول لنا في رسائلها إنّها تشبه جونية كثيرًا، صار اسمها إليزابيت لأنّه أسهل على اللفظ في بلاد زوجها، ولما صار زوجها يناديها دلّالاً ليزا صار اسمها ليزا، أخفّ وأحلى على اللسان وفيه موسيقى.

أمّا إميلين فصار إميلي من قبيل تصحيح الخطأ فقد تبين لنا أنّ أهلنا أضافوا النون من غير سبب وجيه سمعوه بشكل مغلوط، لا أحد يدري كيف، ولدى التحقّق وجدنا أن ليس هناك قديسة اسمها إميلين. هذا ما أكّده أيضًا السيّد بونور الذي تكفّل تعليم

إميلي ثم عملت معه في بيروت سكرتيرة، وبعدها سافرت معه إلى مصر حيث عُيِّن في وظيفة مهمّة وكان لا يستغني عنها أبدًا

أمّا خالي شحادة الذي عاد من مصر في حالة يرثى لها فقد أطلقنا نحن عليه ديدي، مزاحًا وكى نخفف عنه، إذ ما عاد ينفع في وضعه الكلام القديم، فصرنا نخترع ونتحايل، ونحتار في ما عسانا نفعل له ومعنا لكنّ المهمّ بالنسبة لنا أنّ قريبه رئيس البلدية الجديد أعاده إلى الوظيفة التي هو نفسه لا يعرف ما هي بالضبط فعدا المرور بين وقت وآخر على مبنى البلدية لوضع إمضائه على السجلّ الكبير، كان خالي يقرّر من نفسه ما هي المهمّات وهي كانت، مراعاةً لوضعه النفسي والمادّي قليلة جدًّا، بل نادرة إلى حدّ كبير ثم أقلعنا عن اسم ديدي.

قرّر خالي أنّه هو من سيرافقني ويؤمّن لي الطريق إلى الموعد الذي ضربته لي سلمى، في صالون الأوتيل، مع أهمّ مسؤول فني في جماعة المهرجانات. ولأنّها كانت مهرجانات الأرز الأولى أتى خالي عشية اليوم الذي أعلنوا أنّه مجّاني لأهل الضيعة والجوار، أتى يسهر في البيت ليعطيني النصائح قبل مواعيدي المهمّ. فهو ملزم تجاهي بإسداء النصح لإرشادي في عالم الفن الذي يعرفه جيّدًا فيما أنا أجهله تمامًا رغم أنّ تجربته باءت بالفشل إلّا أنّ الأمثلة قد تكون في أسباب الفشل أكثر منها في أسباب النجاح قال: قم، تحرك، ضع لي كأس عرق. لا أريد سوى بعض البندورة والخيار، وافتح أذنيك جيّدًا لما سأقوله لك إذ ربّما لم أقله لأحد. لكن . لكنّي أعتبر أنّ ذلك واجبي وأرجو ألا يخرج من هذه العتبة.

روى لي خالي كيف ضحكت عليه هند رستم، وكيف نصب عليه المصريون وشلحوه ماله لأنه آدمي طيب يصدق الناس، ككل مسيحي أصيل كانوا يقيمون له الحفلات ويعرفونه على باشوات كبار يقولون إنهم سيدخلون معه شركاء لإنتاج فيلم يقوم ببطولته مع هند رستم. ولكي يطمئن جاؤوا له بباشا مسيحي قبطي، ثم قالوا إن أصله من لبنان، هاجر أهله هرباً من حرب ١٨٦٠ حين صار تقتيل المسيحيين كشرية ماء. وهذا الباشا نفسه، الذي وثق به خالي تماماً، تبين أنه كذاب إذ لما صار خالي يهدد بالذهاب إلى المحاكم إن لم يبدأ التصوير فوراً وإن لم ير هند رستم ويتفاهم معها، جاءه هذا الباشا ببنت شقراء وقال له أقدم لك الست هند. صحيح أنها تبدو مختلفة عنها على الشاشة، لكن هذه ملكة، هي السينما وسحر شاشتها نسي هذا العكروت - يقول خالي - أنني كنت التقيت هند الحقيقية وتكلمت إليها وحين ذهبت إلى الشرطة صاروا يسألونني عن الإثباتات. وبالكاد يفهمون لهجتي. ثم قالوا إنني لا أملك أوراق إقامة ونصحوني بالذهاب إلى السفارة اللبنانية أو بالرجوع إلى بلدي. سريعاً

لا تقل إنني حمار، لكن هذا هو عالم الفن. نصابون وعكارت. عالم شرايط. ومسلمون يتكاتفون على المسيحي. قد تقول لي إن صباح وبديعة وآسيا و نجحوا في مصر وهم مسيحيون. أنا أجيبك أنهم أسلموا سرّاً ولا يقولون. لا يعترفون. وإلا، مثلاً، على سبيل المثال، كيف تزوجت صباح من مسلم

وتزوَّجت وطلَّقت عدَّة مرَّات إن لم تُسَلِّم؟ هاه؟ كيف؟ ثم لن أخبرك كيف كانوا يخدرونني و.

لم يكن الكلام ينفع مع خالي وهو في هذه الحال. وهذه الحال المضحكة بالفعل لم تكن تضحكني كنت أرى خالي هكذا، يتقدَّم في العمر وفي الفقر وأيضًا في الفشل، مثلي.

لكثرة ما شرب، سكر خالي ونام عندي، على الكنبه العريضة. وفي اليوم التالي ولأنَّ حضور المهرجان كان مجانيًا كان لا بدَّ لنا من الطلوع إلى الأرز باكرًا، كما أوصتني سلمى، لأكون مرتاحًا في موعدي، وقبل أن ينشغل الفريق الفني بالتحضيرات.

لكنَّ الظهر فات وخالي لا يصحو من نومه. وحين فُكِّرت بتركه في البيت والطلوع وحيدًا استيقظ كالمجنون وصار يحثني على الإسراع ويقول يلاً يلاً تأخرنا تأخرنا

قبل المنعطف الأخير الذي يُفضي إلى طريق الأرز، ومنه نغادر منحدرات طرق الضيعة، عرفتُ أنَّ الأمر سيكون صعبًا للغاية. بل هو مستحيل إذا استمررنا بالسير على أقدامنا لا تريد آية سيَّارة حملنا ضمن ركابها الكثيرين. لكنَّ خالي الذي كان يتقدَّمني، نشيطًا ومتفائلًا، كان يشير بذراع حازمة للسيَّارات بأن تتوقَّف صارخًا ستوب. بلدية. ستوب. بلدية. ثم أوقف خالي واحدًا من معارفه لكَّته كان طالعًا إلى حقلته فأنزلنا بعد أمطار، معتذرًا بحرارة وسيَّارته البيك أب تفرقع وتكاد تتفكَّك.

كثرة الخليفة والبشر كانت، كلِّما تقدَّمنا مترًا، تزداد وتغظي الطرقات؛ فالناس عرفوا بأنَّ عليهم أن يكونوا فوق باكرًا ليحصلوا

على مكان لمشاهدة المهرجان .

نرفز خالي كثيرًا وقال إنّ أهل الضيعة والجوار، المدعوّين إلى حفلة مجانيّة، ليسوا بهذه الكثرة. وصار يقول إنّ هناك أغرابًا لا هم مدعوّون، ولا يحقّ لهم الحضور. وحين راح يبحث بعينه عن الأغراب توجّست شرًّا، وقرّرت إقناعه بالعودة. لكن لما هممت أن أفعل كان الأوان قد فات. وقبل أن أصل إليه، إذ راح يصرخ زغرتاويّة. زغرتاويّة ومتخفون، كان أصبح تحت الأيدي والعصي وبين الأرجل وحين سحبتة إلى جانب الطريق كان وجهه مغطى بالدم، وهو ما زال يلعن ويشتم ويقول. تأخرنا

بقيت سلمى طيلة أيّام المهرجان في الأرز لم تنزل إلى الضيعة. قلت في نفسي إنّ ذلك أفضل إذ سيّيح لها الوقت أن تهدأ من نفسها كنت التقيت نجيب في ساحة الضيعة وأخبرته بما حدث لنا أنا وخالي. وطلبت منه أن يروي كافّة التفاصيل لسلمى حتى لا تغضب مني. قلت له قلّ لها إنّني حزين جدًّا إذ فاتني موعد مهمّ جدًّا لكنّ ذلك لم يكن بإرادتي قلّ لها طنّوس حزين جدًّا قلّ لها طنّوس آسف جدًّا وحزين جدًّا

نزلت سلمى إلى البيت ترتاح بضعة أيّام قبل الذهاب مجدّدًا إلى بيروت.

كان لا بدّ أن أعيد رواية ما حصل لنا أنا وخالي، وحال دون حضوري إلى الموعد المهمّ. كنت أقسم لها بالعدراء مريم وأرفع يدي ناحية صورتها كلّما توقفت عند التفاصيل المهمّة. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك الخفيف، ثم من القهقهة

الصريحة والعارمة حين انتهيت من روايتي . ورحت أستعيد بعض مشاهديا كأنها فيلم أراه للمرّة الأولى . ثم صار بطني يؤلمني من شدّة الضحك وكدت أقع أرضًا . وحين مسحّت دموعي رأيت سلمى عابسة، وجهها مصفر وفمها مزوم فتوقّفتُ عن الضحك وأردت أن أعتذر . أو أن أشرح لها لماذا أضحك هكذا لكنّي لم أفعل .

قالت سلمى: ما أخرى منك إلا خالك .

أنت مثله تمامًا وستنتهي كما انتهى والغلط غلطي أنا إذ وثقت بك . وللمرّة الألف حاولت أن أساعدك . وأنت لا تستحقّ . أنت لا تريد أن تشتغل ولا تريد أن تغني لماذا تشتغل وكلّ شيء يصلك إلى باب الدار لماذا؟! .

بعد لحظات قليلة أدركتُ سلمى قسوة كلماتها كانت المرّة الأولى التي تجرحني فيها هكذا فوجئتُ كثيرًا وقبل أن تبكي سلمى خرجتُ من البيت .

رحت أمشي بسرعة، رأسي في الأرض حتى لا يراني أو يكلمني أحد . في طرف الضيعة نزلت إلى الطريق الفرعيّة ثم طلعت على التراب إلى تلّة قلب يسوع لم يكن هناك أحد . جلست، ظهري إلى باب الكنيسة الصغيرة . قرّرت فورًا أن أقضي الليل هناك . وأن أنتظر ذهاب سلمى إلى بيروت قبل أن أعود إلى البيت . لا أريد أن أرى سلمى .

لا أريد أن أرى سلمى . ليس بسبب زعلي منها، هي التي لم تقل لي يومًا كلامًا جارحًا، واليوم قالت أقسى الكلام ذلك الذي

لا عودةً منه أو عنه. الآن وقد طلع من قلبها بل لأتني لا أريد أن
أرى سلمى مقهورةً من نفسها ونادمة. ولأنها حين تراني سوف
تبكي المأ

وسوف أبكي أنا أيضًا

وذلك لن يصلح الأمور.

الدموع ليست غراء يلصق أجزاء شيء انكسر

وأنا قلبي الآن مكسور

ولا أريد أن أرى سلمى

ما رواه لي طنّوس، طيلة ليلة كاملة، غير حياتي

غير حياتي كلّها، قلبي وجسمي وروحي.

نزل إلى بيروت بعد أربعة أيّام بقيتُ فيها في الضيعة أنتظره وأبحث عنه، ولا أجده، وقد أكل قلبي القلق من اختفائه هكذا

كنت وحدي في البيت. دخل ولم يقبلني، ولم يقرب لأقبله وأعتذر منه. صار يجول بنظره في بيت بيروت كأنه يزوره للمرّة الأولى. أو كأنه يبحث عن مكان مريح يجلس فيه بعد تعب الطريق.

ثم جعل يقول إنّ الكلام صعب. إنّهُ لم يحسن الكلام يوماً، حتى لنفسه، وإنّ ذلك يعود ربّما إلى أنّه لم يتعلّم في المدارس كما ينبغي. ثم راح يقول إنّ ما تعلّمه في الحياة يقعد في حنجرته لا في لسانه، وهو بات، وفي كلّ الأحوال، غير مفيد.

قال إنّ ما تعلّمه كثير جدّاً، جدّاً، لكنّه لكثرتّه صار لا ينفع، كمن يحمل حملاً كبيراً من الذهب يتجاوز قدرة ذراعيه وقوّة ظهره،

فيصير عبثاً ولا ينتفع به . ولما رأى طنوس حيرتي قال لي إنّ ما رواه لي باختصار شديد عن حياته في سورية هو ما عقّد الأمور، فجعلني بعيدةً عنه وجعله كالغريب بيننا ذلك أنّ هذا الاختصار الشديد جعله يروي كلّ ما هو غير مهمّ في الحكاية، كما تُروى الحكاياتُ للأغراب الذين نريد إبقاءهم خارج حياتنا هكذا، لا لننزل أحمالاً عن قلوبنا ونرى هيئتنا في عيون من يروي لهم الحكاية، بل لنردّ عنا حشريّتهم، والأسئلة التي نشعر أنّها كالذّين الذي لا مهرب منه .

حين رويتُ حكايتي المختصرة التي لا تروي شيئاً، قال طنوس، ارتكبتُ خطيئةً أخرى إذ نكثت بوعد المحبّ، تركت هذه المسافة الباردة تقعد وصرت أختصر أختصر وأستغرق في إحساسي المتعجرف بأنّ أحداً لن يفهمني . حتى أختي سلمى

حين كنتِ تعلقين بأنّ أهل حلب بلهاء ككلّ السوريين، وأنّ العرب جرب إجمالاً مهما علا شأنهم، وأنّ المسلمين، ممّن تتلمذتُ عليهم، هم حالة نادرة إن لم أشم رائحتهم النتنة بسبب عدم تعميدهم بالميرون المقدّس، وأنّ القرآن كتبه الراهب بحيرة المسيحي نقلاً عن الإنجيل ونحلاً عن التوراة . كنت أتعب بسرعة وأعيا عن الكلام الذي لا أتقنه أصلاً ولا أحبه . وأحياناً كنت أقول إنّ من الأفضل أن أتركك تشبّهين الناس الذين نعيش بينهم فلا تشعرين بأنك غريبة هكذا مثلي، أو أنّ عليك تصحيح أفكار الناس، أو الاشتباك معهم في ما استقرّوا عليه وارتاحوا له . . وفي ذلك كنت أشكّك في قدرتي أنا على نقل ما تعلّمته إليك

في تمامه وفي عمقه. السبب الأوّل في ذلك أنّي لم أتعلّم بالكلام لأعلّمك به، بل تعلّمتُ بصوتي فكيف أنقل لك ما تعلّمته بصوتي.

لكنني بعد أن قعدتُ أيّامًا أفكّر لوحدي ووجدتُ أنّ عليّ أن أحاول. أن أحاول فقط وبما أملك من أدواتٍ قليلة ومتواضعة

حين كنت طيارًا في سوريا، هاربًا في الجبال مع الهاربين، تركتهم يعتقدون بأنّي البطل الذي قاوم الفرنسيين وقتل منهم ضابطًا كبيرًا، إذ هكذا روى عني من حملي إليهم

كرّموني خير تكريم. لكنّهم بعد أيّام قليلة فهموا الحكاية. عرفوا الحقيقة لكنّ معاملتهم لي لم تتغيّر لم يكشفوا كذبي علانيّة بل راحوا يتجنّبون الموضوع حتى إن واحدًا منهم صار يتكلّم كثيرًا عن أنّ مسيحيّ لبنان، بل ومسيحيّ العرب إجمالاً مهمّون جدًّا إذ هم من حافظ على اللغة العربيّة وقاوم الأتراك ولغتهم، وأنّ رهبان الأديرة جعلوا من مكتباتهم قلاعًا حصينةً، وحملوا أفكارًا جميلة عن الحرّيّة علّموها للأولاد.

وحين رحت أغني لهم في بعض الأماسي كنوع من الشكر وردّ الجميل ووصلتُ إلى بعض التراتيل ممّا كنت حفظت في دير مار قزحيّا، تبين لي أنّ بعضهم مسيحي، وشعرت بذلك، إذ راح يرافقني بالترتيل وبرسم إشارة الصليب.

بعد ذلك اختلفوا في ما بينهم، وسحبوا السلاح بعضهم على بعض. فوجئتُ وحزنتُ وخفتُ كثيرًا أخذني اثنان منهم إلى الشام حيث بقينا متخفين لا نخرج إلّا ليلاً وفي محيط حارةٍ صغيرة.

ثم خرج الفرنسيون وراح الناس يحتفلون بالاستقلال. ورحتُ أنا أمشي في الشام مذهولاً لكبرها وجمالها لكنّ رفيقيّ سرعان ما اختلفا هما أيضاً وصار الكلام خطراً بينهما، كلُّ واحد في حزب وبتّهم الآخر بالخيانة والجبن. وأنا لا أفهم خلاهما حتى أسعى إلى مصالحتهما وإذ ذاك فكّرت بالعودة إلى بلدي، وقلتُ في نفسي إنّ الأوان قد حان، إذ نحن أيضاً نلنا الاستقلال وخرجت الجيوش الأجنبية من عندنا، الفرنسيون وغير الفرنسيين.

لكنّي، في إحدى الليالي وأنا أتمشي هكذا في الشام، دخلتُ إلى خانٍ قديم بقبة كبيرة فوق نافورة ماء واسعة كبخيرة صغيرة. لم يكن معي مال لأجلس إلى طاولة وأطلب أكلاً كان معي ما يكفي فقط لعودتي إلى بيروت في البوسطة فوقفت في إحدى الزوايا أتفرّج

ثم امتلأ الخان بالناس. أكثرهم مثلي واقفون ولا يقترب النادل منهم ليسألهم عن طلباتهم أو ليتردهم من الخان. فاستغربت تجمّعهم هكذا ثم حين راحت الفرقة الموسيقيّة، في الطرف الآخر، تدوزن الآلات، صارت الناس تصفّق والواقفون بجانبهم وحولي يمدّون أعناقهم ويرتفعون على أطراف الأصابع، رؤوسهم باتجاه الفرقة، فلم أعد أرى المسرح وبعد عاصفة عارمة من التصفيق خيم صمتٌ كبير وغريب على المكان ثم صارت الموسيقى متناسقة بعدها ظهر المطرب وبدأ الغناء.

هنا أيضاً سينقضي الكلام يا سلمى.

سينقضي بشكلٍ فظيع؛ إذ كيف أروي وأصف لك ما حصل،

فهو حصل في جسمي، في جسمي كاملاً، فكيف يطلع الكلام من جسمي إلى فمي.

كاد غناء المغني يفعل فيّ ما تفعله نوبة الصرع، كما يصفها الناس. وأنا لا أبالغ إذ أقول لك هذا في كلّ جسمي دخل صوته حتى أحسست أنه يتردد بداخلي مائلاً كلّ مسامي كأني أشربه شرباً

ولأني لم أكن أستطيع رؤيته، جلست على الحافة الحجرية ورائي، في عتمة سيقان الناس ورحت أستمع إلى ما لم أكن سمعته في حياتي يوماً إلى أن وضعت رأسي بين كفيّ وصارت دموعي تنهمر من عيني وأنا سعيد سعادة لا توصف.

يا إلهي. يا إلهي كيف يفعل هذا الرجل، الذي لا أراه، يُطلع صوته بهذه الرقة والقوة معاً، صافياً حنوناً كثيباً وضعيفاً، ثم عالياً مُجهشاً صارخاً، ثم منكسراً ومتخثراً بحشرجته ووهنه. كمن يصلّي الكلام ويكفر به معاً في اللحظة ذاتها التي يدخل فيها الآذان، وكأنّ للقلب الذي يستمع إليه أن يستنجد بقوة إضافية لعضله حتى لا ينقطع. ذلك أنّ كلام المغني الذي كان كلّه في الحبّ، كان يستدير ويتحوّل وينزلق من حبّ النساء، إلى حبّ الله، إلى حبّ الأشياء كلّها ودون أن يستقرّ في وجه واحد كان يدفق إلى قلبي كلّ الوجوه التي عرفتُها أو أحببتُها في حياتي، وجه أبي ووجه يسوع ووجه أمي ووجه حلا ووجهك أنت يا سلمى.

لقد تهيأت لهذا الكلام الصعب سنين طويلة. ظلّ يدور في رأسي ولا ألتقطه. كلّما حاولت يطلع هواءً كثيف ضاغط من رثيّي فيسدّ حلقي، ويضغط على قلبي ويغشي عينيّ.

الآن عليّ أن أروي لك . وسأكمل الحكاية بما أملك من قدرة قليلة .

لم أستطع ترك الخان مع الناس بعد أن انفضّوا وانتهت الحفلة . ظللت في مكاني حتى اقترب مني النادل يهز كتفي . وقفت وصرت أشكره إذ لم أعرف ما أقول . ثم رحلت أعرض عليه وعلى رفاقه مساعدتهم في لملمة الصحون وترتيب الطاولة وتنظيف الخان فقبلوا

سهرت معهم . قالوا إنّ الغناء قدود وموشّحات . قالوا إنّ كثيرين غير مغنّي هذه الليلة يُتقنون غناء القدود والموشّحات . قالوا إنّ الواحد لا يكفي أن يكون صوته جميلاً وإنّه لا بدّ من تعلّم الأصول . قالوا إنّ لذلك مدارس وإنّ أحسن تلك المدارس موجود في حلب .

حلب

بما تبقى من مال في جيبي ذهبت في الفجر إلى الساحة التي دلّوني عليها وركبت البوسطة إلى حلب .

وقال لي طّوس أشياء بديعة عن حلب . كيف أنّها كبيرة جدّاً ، وأكبر من الشام ، وقديمة مثل جيبيل وربما أكثر قدماً إن صدّقنا المغالين . وفيها كنائس كبيرة جدّاً ، أكبر من مار سابا بخمس أو عشر مرّات . وفي حلب دير مار سمعان العمودي الذي ، بحسب الحكاية ، أنقذنا من الوحوش وأسّس فيها الكنيسة المارونيّة أجمل من ذلك أنّ قبر مار مارون نفسه موجود في حلب ، في منطقة تدعى براد ، غربي المدينة . وعدا ذلك ففي المدينة خمس وأربعون

كنيسة. وقال طنوس إنهم هناك لا يكرهون المسلمين، بل إنهم تضامنوا معهم ضدّ الصليبيين ثم ضدّ الفرنسيين.

وكان حبّ طنوس لحلب لا يتوقّف عند وضع المسيحيين هناك. راح يتكلّم عن كثرة الأقسام والأجناس فيها كأنّ ذلك نعمة من عند الربّ. وكان يروي عن قلعةٍ فيها عظمة القدم، وعن أبواب في سور نصف دائري، وعن سكةٍ حديد كانت تصل أقصى بلاد العرب باسطنبول، وعن طريق الحرير التي تتوقّف في أسواقٍ يصل طولها، وهي مسقوفة، إلى عشرات المرات من طول جبة ضيعتنا لم أقاطعه أبدًا، ولا حتى لأستفهم في بعض الأشياء كنت كأني معه مسافرة إلى حلب. حتى قال لي يا سلمى في حلب مأكولات وطبخ لا يخطر لك على بال. دعي المحاشي جانبًا، سأحدّثك عن طعامها في ما بعد. لكنّ الكبة. الكبة التي نعتقد أنّها من عندنا وفتخر بها في حلب سبعة عشر نوعًا من الكبة. سبعة عشر ليس هذا كلامًا سبعة عشر نوعًا يطبخونها في بيوتهم. أمّا بيوتهم.

ظللت أمشي في حلب أيّامًا ضائعًا ومبهورًا وفي المساء أذهب إلى كنيسة مار الياس المارونية، جائعًا وتعبان. رأسي مليء بما رأيت. أتحدّث مع القندلفت وأكثر من الأسئلة فيجيبني بلطف وبصبر، ثم أنام في ملحقات الكنيسة التي تكون، بحسب الظروف، فارغة من الناس.

ثم نصحني القندلفت بأن أجنبي بعض المال وأحسن هندامي، بل وأن أستأجر بيتًا، أو غرفة، قبل الذهاب إلى مدرسة الإنشاد

التي من أجلها قصدتُ حلب . وقال إن الانتظام في المدرسة ضروري وجدّي، وعليّ أن أكون جاهزاً ثم وجد لي عملاً في فندق جميل ومشهور يُدعى فندق بارون، وسكنتُ في غرفة في حيّ الجديدة، في بوّابة الياسمين .

وحين تمّ قبولي في المدرسة، بعد امتحان على مرحلتين، اشتريت قرآناً لا لأصبح مسلماً يا سلمى، أو لأصلي فيه، بل لأفهم دروس النطق واللفظ الصحيح الذي يجعل لعناصر الفم وظيفة تخدم الصوت الذي تحمله من البطن ومن قاع الرئتين . كان لا بدّ من المرور بقواعد الإنشاد وتفكيك أحكام التجويد من خلال السماع أولاً، تليها القراءة، في التحقيق والحدرد والتدوير ثم الترتيل . وللحروف كآفة أحكام لإظهارها أو إدغامها أو تفخيمها أو ترقيقها وللحروف أيضاً صفات، قسم منها لا ضدّ له كاللين والاستطالة والصفير، وقسم تكثر أصدادُه كالهمس والجهر، والشدة والرخاوة والإطباق والانفتاح إلى آخره .

في المدرسة عرفتُ كيف أستمع سمعتُ أساتذة . أنصتّ ملياً لتسجيلات عبد الباسط عبد الصمد . صبري المدلل عمر البطش، أبو الجود محمّد منذر سرميني، الترمذي وسيّد درويش وغيرهم وغيرهم . علّموني كلّ شيء ولم يقل لي أحد أنت نصراني . ولم يكن كلّ هذا التعليم دينياً إذ حين بدأتُ تماريني في الغناء أمام الأساتذة كنت أغني الموشح والابتهاال الديني وقصيد الغرام والقدود، القديم منها والحديث، سواء بسواء

ثم دخلت فرقة غنائية موسيقية، كانت مكوّنة من كبار العازفين

والمنشدين والمطربين، منهم شكري الإنطاكي ومحمد البوشي وأنطوان زبيطا، وأشهر مغنيها عمر الحجار ومصطفى الصابوني.

أعرف أنّ كلّ هذا لا يهّمك يا سلمى، لكنّ لراوي الحكاية زوايا في الظلّ يعرّج عليها من أجل أن يستقيم سير السرد في سبيله المضاء من الذاكرة.

المهمّ أنّي كنت سعيدًا جدًّا بعد الدرس أعرج للسهر في مقهى اسمه قهوة الكلداني في شارع القوتلي أستعيد في رأسي كلّ ما سمعته في النهار وقبل أن يقطعوا القوّة، أي الكهرباء بحسب الحلبيين، أعود مشيًا إلى غرفتي وفي هذا المقهى تعرّفت إلى رجل يُدعى نجيب كنيّدر. وكان يملك جريدة اسمها المرشح. وهو أخبرني حكايات رائعة عن الفن في حلب أخبرني عن امرأة مغنية شهيرة كان اسمها أمّ محمد التلاويّة، وكانت قديرة جدًّا ومحترمة وروى لي أنّ من كان يزور حلب من المغنين إنّما كان يسعى لإثبات نفسه وقدراته ولكي يعترف به الفن الأصيل هكذا أتى كثيرون من مصر مثل عبده الحامولي وسيّد درويش، ومن العراق كان يأتي أحمد الموصّللي وكان أعمى، والشيخ الملا عثمان الموصّللي، وامرأة كانت عجيبة القدرة في غناء المقام العراقي اسمها سلطانة يوسف، وكانت سلطانة بالفعل والجميع يخاف من حكمها

وقال إنه ينبغي عليّ شراء غراموفون ودلّني على محلّ خجادور شاهين في شارع التلّ

ونجيب كنيّدر هذا الذي صرت ألتقيه كثيرًا في المساء، أخبرني

بأنّ القدّ يعني أن تضع شيئاً على مقدار شيء. يضبط الأوّل على الثاني تماماً وبأنّ القدّ معروفٌ من أيّام مار أفرام السرياني، أي أنّه صلاة مسيحيّة في الأصل، لكنّ التجويد والإنشاد، ثم ما حملته إلينا الموشّحات قوًى من ترابط الكلام على الإيقاع والموسيقى، فكان على القدّ، قدودًا

اشتريتُ راديو ثم اشتريتُ غراموفون وبعض التسجيلات، ذلك أنّ عملي في الفرقة كان يوفر لي عيشًا معقولاً، بل محترمًا فتوقّفت عن العمل في الفندق وصار عندي وقت لأتمرن على الغناء، ولأغني ساعاتٍ لوحدي.

وفي إحدى الليالي، وقبل أن يقطعوا القوّة، قال لي نجيب كنيذر الآن يجب أن تُسمعننا قام صديقُهُ واسمه صديق صدوق وصاحب جريدة اسمها الآمال، قام وأقفل باب المقهى ثم قالاً لي نحن هنا لنستمع الآن، غن وسنعطيك رأينا بصوتك وأدائك في غناءٍ منفرد، هو الامتحان الحقيقي. ثم جر صاحب قهوة الكلداني كرسيًا وجلس إلى جانب الرجلين وقال هات.

ثم راح طنّوس يغنّي لي ممّا غنّاه تلك الليلة في قهوة الكلداني. لكنّه سرعان ما توقّف. اعتقدتُ أنّه توقّف بسبب الدموع التي خنقت صوته وأنا قلبي متعلّق بوجهه وبصوتٍ لم أسمع له من قبل

لكنّه قال لي: لا لن أغني لك قبل أن أكمل الحكاية. هذه ليلة إن أردتِ السماع، يطيب فيها الكلام. هذه ليلة لا ينقطع فيها السمر في نصف الطريق فيكون كالغصّة. والحكاية الناقصة هي كالحكاية الكاذبة.

ركبتُ الباص ذات مساء متّجّهاً إلى حيّ يدعى حيّ العزيّزيّة. الرجلان اللذان حدّثتُك عنهما، أعني في قهوة الكلداني، عرفاني إلى آخرين، سمّية مثلهما فصرتُ أكثر ثقةً بنفسني وأغني منفرداً في بعض الحفلات، وفي كلّ وصلة أمام الناس أسمع صوتي أكثر إتقاناً، أكثر ليونة في طاعة الأصول، أخذهُ تقريباً إلى حيث أريد، مُسترشداً بأذان المستمعين وتعليقاتهم.

كنت في الباص أصليّ الوردية لتوفّقي العذراء وتأخذ بيدي
حين رأيته رأيت حلا حلا حلا حلا هذه حلا
صرت أقول: هذه حلا لكن نظرة الدهشة في عيون ركاب
الباص جعلتني أسكت وأخجل

ثم رحت أسأل العذراء لماذا أرسلت إليّ هذه التهيّؤات
ولماذا جعلتني أرى حلا هكذا واحترت كثيرا واحترت كثيرا في
أن يحضرني وجه حلا بعد كلّ هذه السنين .

نسيت صلاتي ورحت أفكر بحلا كأنّي غادرت الضيعة في
العشيّة لم أكن أفكر بحلا تفكيراً، أو أتذكّرها تتحرّك في بيتنا أو
تمشي في الطريق. كنت فقط أرى وجهها قبالة وجهي . واضحاً
وناظراً إليّ بثبات كنب أراه جميلاً وحنوناً ومتفتح القسامات كأنّه
يبتسم . وليس كذلك الذي كنب أتذكّره عاتباً وحيناً ومعذباً في
حيرته، ذلك الذي نسيتّه .

كنت شبه غائب عن الدنيا لكثرة ما غمرني وجه حلا غرقت
في شوقٍ إليها لا يوصف .

في بداية وصلتي ذلك المساء، كان قلبي يتقافز في صدري ولا
أسيطر على تنفسي كنت كأنّي لا أريد الغناء كنت مشتتاً ولا
أسمع عزف الفرقة ولا أرى الناس كنت فقط أريد أن أكون
لوحدني أن أكون مُمدّداً جسمي لا أقوم بأيّ مجهود .

لكنني كنت على المسرح . فبدأت الغناء

الصوت الذي راح يخرج من رأسي ومن قلبي أخافني . شعرت
أنّه يطلع ويسير في حلقي وفي من نفسه ولا أسيطر عليه . أستردّه

قليلاً ثم يجمع بي، بكامل جسمي، كفرس لم يتمّ ترويضها ولم يركبها أحد.

ثم أغمضت عينيّ ووضعتُ كفيّ مكوراً حول أذني ورحت أغني بهذا الصوت الجديد مُطلقاً له العنان. نسيت الناس وصرت أغني لوجه حلا، لا أضبط إيقاعاً ولا أتذكر من الأصول إلّا، ربّما، ما أختار أن يتذكّره هذا الصوت. ثم شعرتُ بالدموع تبتدر على وجهي. خجلت وفتحت عينيّ وسمعت آهات الناس وتكبيرهم وتصفيقهم. وسمعت بعضهم من القرييين مني يطلبون مني التمهّل بل والتوقّف قليلاً عن الغناء رافةً بوجع قلوبهم، إذ منهم من كان يمسح دمه من التأثّر

كنت سعيداً ومرتبكاً جداً ورغم طلبهم المزيد من السماع توقفت ونزلت عن المسرح معتذراً ورحت، في طريق عودتي إلى بيتي، مزهواً بصوتي الجديد وخائفاً منه في آن، أفكر بأنّه يلزمني وقتٌ لأتمرّن وحيداً عليه. لكنّ تفكيري هذا لم يدم طويلاً إذ عاد وجه حلا إليّ يشلّني عن أيّ شيء آخر وأستسلم له.

ثم رحّت أفكر بأنّ العذراء أرسلت وجه حلا إليّ لتقول لي إنّه بات عليّ أن أعود إلى أهلي وبلدي. ثم قوّي فيّ هذا التفكير إذ كثرت المظاهرات والحوادث في أمكنة كثيرة من المدينة، فرحت أرّدّد في رأسي أنّه بات عليّ فعلاً أن أعود إلى لبنان. لكنّي رأيت حلا مرّةً أخرى. في المكان نفسه.

وهذه المرّة نزلتُ من الباص. فقد تكون حلا فعلاً تزوّجتُ سورياً وتُقيم في حلب.

رحت أتبعها من بعيد وكانت برفقة امرأة كبيرة في السن، بطيئة الحركة. أتقدّم خائفاً ثم أتركها تبتعد عني. ألتفت من الناحية المواجهة لأرى وجهها لكنّها كانت تتبضع ولا تسير قدماً

ثم اقتربتُ. كان لا بدّ أن أعرف قبل أن تضيع هذه الفرصة. اقتربتُ ورأيت حلا لكنّي سرعان ما أدركت أنّها حلا من دون السنين العديدة التي ينبغي منطقيّاً أن أضيفها مذ رأيت حلا للمرّة الأخيرة.

ثم ابتعدتُ بسرعة. كنت أتصبّب عرقاً وقلبي يضرب بعنف راعني ذلك الشبه بين هذه الفتاة وحلا وحين تحركتُ وقد أنهت مشترياتها لم يكن بمقدوري سوى أن أتبعها فسرتُ وراءها من بعيد، كالممغنط إلى خطواتها

عرفت بيتها والبناية التي تُقيم فيها كانت بناية جميلة، قديمة وفخمة وتطلّ على خان القاضي

صرت أذهب كلّ يوم إلى خان القاضي، وأجلس إلى طاولة قريبة من مدخله، أتفرّج على الحرفيّين وأراقب البناية لم أسأل نفسي عمّا أفعله هناك بعد أن عرفت أنّها ليست حلا ثم أنسى هذه الأسئلة، وأروح أتبعها كلّما خرجت فأرى كم هي جميلة، يا ربّي. ثيابها أنيقة ومرتبّة ولو أنّها ليست على آخر موضحة. شعرها الكثيف، الأشهب قليلاً، كان دائماً مرفوعاً ومشبوّكاً، ورقبتها من الخلف رفيعة وطويلة. وحين أسير وراءها على بعد أمتار قليلة كان باستطاعتي أن أشمّ عطرها الذي كان يتبعها كثلّم متحرّك أو كموجة صغيرة.

لاحظ عليّ صاحب الخان تعلّقي بها فسألني إن كنت مغروماً
فقلت له إي والله. فقال لي إنّ عائلتها عائلة مشاكل وإنّه اعتقد في
البداية أنّي رجل مخابرات، لكنّه مع الوقت ولأنّ له نظرة في
الأمور فهم أنّي لست كذلك. ثم قال إن أخلاقها حسنة إن كنت
أتبعها لمراقبة رواحها ومجيئها وهو، بحكم الموقع والجيرة،
المرجع الأوّل. ونصحني بتقديم نفسي إليها أو الطلوع إلى بيتهم
والكلام مع المرأة المسنّنة التي هي خالتها، فأّمها ميّنة أمّا أبوها
فأترك لك أن تعرف بنفسك، فأنا لا أدخّل بأمور كهذه، فقط كي
أقول لك إن أباه ليس في البيت لتطلب يدها منه، قال صاحب
الخان.

قلت لصاحب الخان إنّني لست مستعجلاً أبداً فراح لحاله معلّماً
بترّم أنّه إنّما أراد نصحي بعد ذلك اقترحتُ عليه أن أغني في خانه
ليالي الخميس، سهرتان أو ثلاث في الشهر فقبل بسرعة بعد أن
ارتضيتُ بما سيدفعه لي من نسبة الغلّة.

في خان القاضي رحت أغني لها

أغني لها وأنا أرى وجه حلا التي أحببتها وضاعت مني لا
أدري كيف ولماذا حلا التي لم أعرف أنّي أحببتها هكذا إلّا بعد
أن تركتها وتركت بلدي حلا التي أحبّنتني، وبكلّ ما استطاعت
وقد عبّرت لي عن حبّها، وأنا، كأني وجدت في هربي بسبب
العسكري الفرنسي حجّة لتجاهل هذا الحبّ. كيف حصل ذلك.
هل بسبب صغري وجهلي، أم بسبب خوفي الفظيع ممّا حصل في
بُنحلي. لا أدري. أعرف فقط أنّ هذا الحبّ، الذي ارتدّ إلى قلبي

بعد سنين من الغربة، راح يأكل كبدي ويسيطر تمامًا على جوارحي. كأنه أعطاني جسدًا آخر، روحًا أخرى، وصوتًا آخر، لوجهٍ آخر يرجع إليّ هو غير ذلك الذي أحببته مع أنّي عرفت أنّ هذه الفتاة ليست حلا، رحت أغني لها كأنه غنائي الأوّل والأخير ذلك الذي ألعب فيه عمري وأرهن له كبدي، فلا أصلح بعده لشيء. ومع هذا، كان الغناء الذي هو لحلا، يُبعدي عنها نهائيًا، بدل أن يستردّها، ليقرّبني من هذه الفتاة

غنائي في خان القاضي جعلني مشهورًا، تسعى الناس لسماعي من أقاصي المدينة. زيّن صاحب الخان قسمًا كبيرًا من الشارع أمام الباب الكبير ثم عرض عليّ الكثير من المال لأضعف عدد حفلاتي فرفضت. أفهمته أنّ هذا الغناء لا يستقيم ويحلوا إن جعلناه متاحًا مكرّرًا على حسب ما يطلب. وأنا كنت مقتنعًا بما أقول لكنّي كنت أريد أيضًا أن أجعلها تشتاق صوتي، وتشتاق إليّ فهي الآن تراني وتعرفني.

وذاذ ليلة وجدتها أمام باب بيتي.

وروى لي طنوس حكاية غرامه مع هذه الفتاة الحلبيّة. ورغم خجله مني وإغفاله بعض التفاصيل كنت أتابع الرواية كمن يسمع بالحبّ لأوّل مرّة

حين كان يصف رائحة رقبتها وكيف كان يتنشّقها، كنت أرى كامل جسمها، كامل عريها، وأرى فمه وأنفه يمرّهما رجل على جلد امرأة. رجل كأنه ليس أخي. أرى ما لم أراه في حياتي. أرى بجسدي كلّ. أسمع بجسدي كلّ. كأنّي رجل يحبّ هذه المرأة مع

أخي، أو من أجله. كأنني أعينه في هذا الحب الذي كان يبدو عصياً على الوصف أو الإحاطة.

قبل رواية تفاصيل لقاءتهما الليلية لم يذكر أخي اسم الفتاة. ثم، إذ ذاك راح يسميها فاطمة. اسمها فاطمة.

طلبت فاطمة أن أتزوجها قالت تتزوجني إن كنت تحبني بقدر ما تقول. أنت مسيحي، أعرف. لكنني أهرب معك إلى لبنان وهناك نتزوج. أنا لا أريد العيش في حلب وأكرهها لن يلحق بي أهل لمحاسبتني أو قتلي أو استردادني. لن يسأل عني أحد. أبي في السجن منذ سنين وسيقضي عمره في السجن.

ورجال العائلة تبرأوا منه ومني. أنا لا أعرف حتى في أي سجن هو لأرسلك إليه تطلبني منه كان رجلاً بطلاً، ذا شأن وكلمة، وذات فجر أتوا إلى البيت وقالوا إنّه خائن وعميل ورموه في السجن. أنت تحبّ حلب وأنا أكرهها وسأهرب معك إلى بيروت وهناك نتزوج إن أردتَ أصير مسيحية

هكذا وصلت حكاية طنوس مع فاطمة إلى نهايتها

قال لي أخي إنّه بكى كثيراً قبل أن يترك فاطمة ويترك حلب ويعود. قال لي إنّ فاطمة المسلمة كانت ستعذب كثيراً بيننا، وإنّه كان سيتعذب معها فكلّ كلمة ستسمعها منّا ستدخل قلبه وقلبها كالسكين حتى لو عملت مسيحية فهي لن تصير مسيحية. وإلى ذلك سوف تتضاعف غربتها مرّات ومرّات كنت أحبّ فاطمة كثيراً ولم أكن أستطيع لها أو لنفسها شيئاً

هكذا يا سلمى عدت من حلب . هذه هي قصّة أخيك الذي
قضت الأقدار أن يستسلم لضعفه وفشله ، دائماً

وهذه أيضاً حكاية صوتي الذي لم يعد لي سواه . بعد أن
اكتمل وصار هو روحي ، لم يعد ينفع . زمنه هو غير هذا الزمن .
وأرأف به ، أشفق عليه ولا أغني إلا حين أكون وحيداً فهو لا
يخرج إلا حين تكون الآذان . وأنا لا أحد يسمعني إلا قلبي . عدت إلى
بلدي بعد أوان الغناء الذي كان أوان غنائي

هكذا يا سلمى أجد نفسي هنا ، الآن .

ثم راح طنّوس يغني بالصوت الذي لم أسمعه له من قبل وأنا
كنت أستمع وأبكي . أبكي لجمال غناء أخي . وأيضاً لندمي المر
الذي لم أجد له كلاماً

منذ ذلك الفجر تغيّرت كثيرًا
يا إلهي، كم تغيّرتُ بعد حكاية طنّوس، وبعد سماع غنائه!
بكيّتُ طويلًا، حزنًا على نفسي أكثر منه على أخي
كانت وحشتي أنا أكبر من وحشته بكثير
فأنا لا ذكريات للذّقة عندي، ولا صوت لرفقتي في وحدتي
لا غرام انقضى يملأ قلبي حزنًا أو شجنًا، ولا وجه حبيب
أستحضره بالشوق.
لا حكاية أعود لسردها على نفسي فأتحسّر على فواتها أو
أستطيب طعمها الماضي.
أنا أيضًا فاتني الوقت. لكنّي، أنا، استيقظتُ على مرارة مَنْ
فقد أشياء لم يملكها يومًا لم يعرف حتى بوجود ما فقدته قبل أن
يفقده.
هكذا.

كأني طوال عمري عشت حياةً لم تكن لي . في الغفلة . عمرًا
لامرأة لم أعرفها ولم ألتقيها يومًا . وأعجب كيف أنها تقف أمامي
الآن ، تحاول الدخول إلى مكانٍ هو في الوقت نفسه فارغ ولا
يتسع ، أن تقعدَ في فسحة ، تلحّ في أن أخترعها لها اختراعًا

كيف حصل أنني لم أغرم يومًا لم أحلم برجل لم أر ، لم
ألمس ، لم أشم رجلاً

هل أغرمتُ مع نبيهة بنجيب ، وعن طنوس بحلا

هل ولدتُ مع أختي أولادها ، هل امتلأتُ رحمي بأمومات

كاذبة

استعرتُ حياةً من أحببت ولفقتُ حياةً لي استندتُ حياتي دينًا
واعتقدتُ أنها ملك لي فيه صكوك

كان أجدي ألا أستفيق الآن ألا أنتبه إلى جسمي الذي صبيّة
كان بشعًا ، وصار اليوم بشعًا وعجوزًا كان أجدي ألا تطلع في
اليوم رغبة الرغبات التي لم أعد أملك جسدًا لها

يقظتي هذه ، الآن ، تشبه القصاص المبرم . وماذا ينفعني أن
أبحث عن الذنب إن كانت الندامة قد ماتت فرصتها

أقول لنفسي إنني ربّما هكذا ولدتُ ، ناقصة التكوين ، كمن
يولد بلا ذراعين معاقة في نقصان جسمي من الشهوة وأفكر أنه
ربّما ، لو فحصني طبيب نسائي ، لوجد فيّ تشوّهًا ما ، لمدّ يده في
داخل بطني يبحث عن أشياء تكون عادة للنساء ولم يعثر عليها
عندي .

هل أخافني، صغيرة، كلامٌ أمي عن الطهارة التي ندفع ثمنها غالبًا إن فقدناها، كما كان يحصل للهبلّة منّة إذ تخرج منها شهوات الرجال أوعيةً كبيرة مليئة بالدم. أم أنّه كلام الراهبات الطاهرات العذراوات اللواتي أردتُ أن أشبههن في الارتقاء إلى صورة أمّنا التي بلا دنس، والتي ترافقها دومًا عينُ الله التي ترى كلّ شيء. تتبعنا مفتوحةً إلى أيّ مكان وترى، ترى كلّ شيء.

لكن لماذا أنا دون غيري من البنات؟ لماذا أحبّت الأخريات؟ لماذا عشقت الأخريات الرجال ومضين في ذلك دون شعور بالإثم أو الخطيئة؟

أفتح فخذَيّ. أتحمّس أعضائي وأدخل أصابعي في مهبلي، عميقًا حتى غشاء البكارة. كلّ ما ألمسه ناشف. أتساءل عن سبب هذا الألم. الآن أظافري تجرح ما تدقّ به، أم أنّ ذلك اللحم الداخلي الذي لم يدخله شيء من قبل صار يابسًا، أو ربّما مهترئًا، فلا يطبق أيّ لمس أو احتكاك.

أضع زيتًا على يدي وأروح أبحث من جديد. أغمض عينيّ وأبحث عن رجل أشتهيه. لا أجد. أحاول، لكنّ وجوه الرجال تتلاحق بسرعة ولا يثبت في رأسي أيّ منهم لأستحضر حركة يديه. أتعب وتؤلّمني ذراعي، تصير كالخشبّة المعلّقة في كتفي

لم أكن أرى فخذَيّ نحيلتين هكذا وجلدهما مترهّل حول العظم كمطاطٍ قديم. أتذكّر الآن بأسى كم فرحتُ حين انقطع طمّهي واستعدتُ نظافة جسم الفتاة الصغيرة، بلا آلام الحيض وأوساخ الدم وبقعه المتخثرّة التنتة الرائحة

غريب هذا النكران . غريب ، لا أفهمه ولا طلبه أحد مني

الآن أنا متأكّدة من أنّ ادّعائي بأنّي كرّست حياتي لإخوتي هو وهمٌ خالص . هراء . ذلك أتّي لم أضحّ بشيء . لا بقصّة حبّ ولا بغرام رجلٍ كان سيأخذني من إخوتي اليتامى . تضحيتي بنفسي الواهمة هذه كانت لزوم ما لا يلزم .

أشفق كثيراً على نفسي الآن لأنّي لم أشعر بهذا النقصان ولم أكن شقيّة بإعاقتي . كنت ناسية نفسي وأحمد الربّ صباحاً ومساءً ، أصلّي امتناني للعدراء على كلّ شيء مخافة أن تغضب فترفع رحمتها عني .

لم أنتبه لما لم يكن لي حتى أطلبه من الربّ .

كأنّي اكتفيت بما أعطانيه خوفاً ودرءاً لحسابه القاسي ، وهذا هو بالضبط دليل عدم الإيمان .

ألا يقول إنجيل متى إنّ من له يُعطى ويُزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه حتى ما هو له . أليس هذا مثال العبد الذي أعاد لسيّده مثقاله القليل من الفضة ، ولم يخاطر بوضعه على طاولة الصيارفة ليربح فائدة ماله ويضاعف قيمة هذا المال ، كما فعل العبيد الآخرون فأفرحوا سيّدهم . وهذا العبد وصفه سيّده بالشرير لأنّه قال له : يا سيّد ، عرفتك رجلاً قاسياً ، تحصد من حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تذر ، فحفتُ وذهبتُ وأخفيتُ وزنتك في الأرض ، فما هو ما لك . وهذا العبد وصفه سيّده بالكسلان أيضاً لأنّه لم يسعّ ويخاطر وفضّل الأمان والكفاية . لم يثق بسيّده ليخاطر بمثقاله . .

لا تقول حكاية إنجيل متى ماذا سيكون من أمر عبدٍ من هؤلاء العبيد لو هو خاطر وخسر وزنته القليلة وعاد فارغ اليدين إلى سيده. هل كان سيقول له سعيّت وفشلت، ادخلُ إلى فرح سيّدك مع الآخرين؟

لكن من أنا لأسائل كلام الربّ؟

وما الفائدة الآن وقد أخفيت مثقالي في الأرض حتى نسيته؟

أقوم أدور في البيت، أبحث عمّا أسلّي به نفسي. أقول حتى هذا المثقال لم يعطنيه السيّد. ذلك أنّي لم أرث أيّ شيء جميل من والديّ. شكلي قبيح وهما كانا حلويّن. أمّا صوتي إن أردتُ الغناء لأسلّي نفسي، فهو يخرج شبيهاً بحشرجةٍ دجاجةٍ تختنق.

أمسح دموعي وأنا أبتسم بمرارة لهذا التشبيه الناجح جدًّا صوت يشبه صوت دجاجةٍ تختنق. تصرخ كبالوعةٍ تبقب، الدجاجة، وهي تختنق.

أذهب لعند نبيهة وأندس في الفراش أرفع الغطاء على مهل وأقترب بتؤدة من دفئها الجميل اللّذيذ. أتكوّر حول طيز هنودة الصغيرة مبعدهً عنها قدميّ الباردتين.

وحين تلامس فخذاي فخذيها الممتلئتين أشعر أنّي أدخل فرح السيّد وأنسى قصّة إنجيل متى بكاملها

قال خالي لطنوس يجب أن تذهب إلى مصر مصر ربّ الفن .
 إنس حكايتي أنا حمار فكّرتُ طويلاً في ما جرى لي أنت يجب
 أن تستفيد ممّا حصل معي وتأخذ العبر أنت لا تريد أن تغني
 الجبلي طيّب . لا تريد عتاباً وميجانا وأوف . مفهوم لكن لكي
 تغني وتشتغل وتشتهر ليس لك إلا مصر استفد من غبائي لا
 تحكّ وتبجّج بأنك مسيحي اترك الأمر غامضاً لا أقول لك أنكر
 دينك، لكنك لست مجبراً على الحكي طنوس اسم واضح، لا
 ينفع يجب أن تجد اسماً فنيّاً يصلح لكلّ الأحوال . ألكسندرا
 بدران صارت نور الهدى، لست مضطراً جانيت فغالي صار اسمها
 صباح طيّب . وصباح غنت في مصر للقصبي والسناطي وزكريّا
 أحمد . هل عندك أقوى من هؤلاء في التلحين لا يوجد . انظر لور
 دكاش لم تغيّر اسمها لور يعني مسيحيّة، واضح ظلّت تحت في
 أسفل درجات السّلم ولم يسمع بها أحد . سعاد محمّد ونجاح سلام
 لم تُضطراً، لكنهما لم تبقياً في مصر المدة اللازمة . والأولى صوتها
 جميل لكنّها هي ليست جميلة . وراحت تخلف الأولاد ولا تهتمّ أو

تضحّي للفن. نازك وعفاف وكهرمان وحنان ونهوند، هذه أسماء تنفع، لا إسلام ولا مسيحية، لكنّ هذه الأصوات أرادت البقاء في لبنان. أين هي الآن بالنسبة لمن ذهب إلى مصر هه؟ هه؟

قال طنّوس لخالي صحيح ما تقوله لكنك تتحدّث اليوم عن زمن مضى. هذه الموضة بطلت. ثم أنا لا أحبّ الغناء باللّهجة المصريّة. ولا البدويّة. قال خالي غاضبًا أنت الموضة التي بطلت. وأنت لا تعرف ما الذي يمشي اليوم في السوق. أنا غلطان ابق هكذا في البيت.

ثم اختفى خالي.

هذه المرّة لم يشغل بالنا ولم نبحث عنه. قلنا سيظهر من نفسه مجدّدًا، كما في السابق. ثم انشغلنا ونسيناه.

وأنا صارت أغراضى موزّعة في عدّة بيوت أتقلّ بينها

البيت الصغير الذي استأجرناه في الدورة على عجل، بقرب بيت نبيهة، أصبح بيت إقامة. وبقربنا استأجر كثيرون من جيراننا في الضيعة إذ صارت المدارس والجامعات تجبر الناس على السكن في بيروت. ولم تكن مواسم التّفاح في الضيعة تتطلّب عملاً دائماً وكثرت المصالح والأشغال في العاصمة إذ لا يستوعب الأرز كلّ الناس.

نبيهة استقرّت في بيتها وتوقّفت عن الشغل في الأوتيل وأنا أيضًا. أتى حتّا بموظّفين وعمّال لهم شأنهم وعندهم خبرة. نجيب

ظلّ في الأوتيل يعمل صيفًا شتاءً إذ فتحوا في الأوتيل ملهى ليليًا لا يتوقّف فيه الشغل، وخاصّةً في نهاية الأسبوع، ويأتيه الناس من آخر الدنيا وأنا أعطاني حنا تعويضًا حرزان كأني موظف دولة فوضعت في البنك وكنت ممنونة .

صابات عادت من فرنسا بشكل مفاجئ . استأجرت بيتًا صغيرًا في حيّ اليهود في وادي أبو جميل عادت مع بنت صغيرة شقراء اسمها فرانسواز لا تتكلّم معها إلّا بالفرنسيّة . قالت إن زوجها مات في حادثة موتوسيكل وإنّها لم تتفق أبدًا مع أهل زوجها فهربت بالبنت لأنّهم كانوا يريدونها أن تبقى هناك وتقيم معهم . ولما قال لها سابا إنّه لا يقبل أن تُقيم لوحدها إلّا إذا استأجرت بقربنا في الحيّ بالدورة قالت إنّها ستتابع دروسًا في مدرسة في بناية الستاركو القريبة، وإنّ البنت، فرانسواز، ستذهب إلى المدرسة الفرنسيّة مجانًا وربّما اشتغلت هي معلّمة في هذه المدرسة . فقال سابا حسنًا، إذا تسكن معك سلمى . طبعًا لم يردّ أحد على أوامره لكّتي، بين وقت وآخر أذهب وأنام عندها وأحاول أن أحبّ ابنتها إلّا أنّ قلبي لم يتعلّق بهذه البنت . ربّما بسبب اللغة، فهي حين أكلّمها تنظر إليّ كالبلهاء . ولا أعتقد أنّها ذكيّة .

وقلّما كانت صابات - التي تصرّ على أن تسمّي نفسها ليزا - تجتمع بنا في الدورة أو تطلع إلى الضيعة . كانت تبقى في وادي أبو جميل وتقول دائمًا إنّها مشغولة . ومنها عرفنا أخبار مرتا التي كانت تتردّد عليها مرتا التي تزوّجت كويتيًّا، أو لم تتزوّج، إذ على كلّ حال هربت مرتا معه إلى الكويت رغم معارضة أهلها،

ففضّل عمّي يوسف أن يُشيع أنّ مرنا تزوّجت في الكنيسة، برضاه، بعد أن تعمد الرجل وصار مسيحيًا ثم عرفنا أنّ مرنا تقضي الصيف في بحدمون لأنّها تكره الضيعة ولأنّ عندها فيلاً جميلة هناك في بحدمون أعطاها إيّاها الرجل الكويتي. الذي، على أيّ حال، لم يره أحد يومًا

إميلين كانت تبعث لنا برسائل من مصر كلّ سنة رسالة أو اثنتين فقط. في آخر رسالة قالت إن مسيو بنونور توفي، وإنّها تعمل في مدرسة راهبات كمديرة، ووظيفتها مهمّة والراهبات يحبينها كثيرًا وهي تنام في الدير، ومبسوطة.

بطريسة تزوّج فتاة جميلة اسمها سيلانة والجميع يدعونها لولو لم يحبّ أحد هذه الفتاة. وحين قلت له، قبل الزواج، إن هذه الفتاة صيئها عاطل، وهي تريد الزواج سترًا لا حبًّا، زعل قليلاً وقال إن على الإنسان أن يكون رحوماً ولا يحاسب على الماضي مهما كان ثم توقفت عن زيارته إذ لم أكن أطيق أن أراه نادماً كنت أعرف أنّه نادم وتعييس لأنّ بيته كان دائماً وسخاً تملأه الفوضى ودائماً لولو مريضة ونائمة ولا تفعل شيئاً سوى الأكل ومضاعفة حجمها بشكل مربع، حتى صارت كالغولة التي تمصّ دمه، فلم أعد أراه إلا نادراً وحين أشتاق إليه أشعر بالغضب والشفقة معاً وأنتظر حتى يأتي هو لزيارتنا وحين يأتي يظلّ يمثّل عليّ بأنّه سعيد حتى لا نعود نجد كلمة، نقولها، نحن الاثنتين. وحين يخرج أبداً بلعناتي على سنسبيل أبيها وأدعو إلى العذراء أن تأخذها وتريحه منها.

ثم عاد أولاد ابن الدبّاك، إخوة بطريسة من أستراليا كَنّا
نسميهم أولاد ابن الدبّاك، هكذا مجموعين. عادوا بغتةً. قال سابا
إنهم لا بدّ هربوا من هناك. لم يردّ عليه أحد

كانوا من حبّهم لطنّوس يظّلون برفقته أكان في الضيعة أو في

بيروت

لم يكونوا لا يشبهون هؤلاء المهاجرين إلى أستراليا الذين كَنّا
نسميهم الكاونتري، ونضحك عليهم ساخرين من هبلهم. لا يكون
حبًّا بالكاونتري ولكنّهم الأستراليّة خفيفة كانوا، هم الثلاثة،
أقوياء وأشدّاء وأجسامهم تشبه أجسام أبطال المصارعة ومن
كلماتهم الإنكليزيّة القليلة حفظنا فاك أوف، وفاك أوف مان
وفاك في بدايات ونهايات الجمل مهما كانت، عن غضب أو عن
فرح، أو عن أيّ شيء

مايك وجون وجورج قالوا إنهم عادوا نهائيًّا مايك الكبير
استقرّ في الضيعة وقال لطنّوس إنّه لا يريد أن يشتغل أو أن يفتح
مصلحة، وإن ما معه من مال - على ما يبدو - يكفيه ليعيش في
البيت الكبير الذي بناه في آخر الطريق العمومي وقال طنّوس إنّ
مايك لا يريد أن يتزوَّج وهو في هذا العمر، وهو يخاف من النساء
وسطوتهنّ لأنّهن، كما يقول، كلهن شرابط.

شغلنا كثيرًا عودة أولاد ابن الدبّاك وكنت أنتظر لقاءاتي مع
طنّوس بفارغ الصبر لأعرف منه تفاصيل حياتهم الحقيقيّة، لا تلك
التي يردّها الناس أو ينقلونها عن ألسنتهم.

كان طنّوس، وهو أصغر منهم سنًا، يبدو سعيدًا جدًّا بهم، وبخاصّة جون وجورج، ويضحكون كثيرًا معًا ويكادون لا يفترقون.

أخبرني طنّوس، طالبًا ألاً أقول لأحد ما يرويه لي، بأنّ جون وجورج كانا يعملان في ملهى ليليّ في ملبورن كرجال حماية وأمن، أيّ قبضيات يرمون خارجًا بالزبائن الذين يتقاتلون في الملهى، أو يضربون السكارى الذين لا يدفعون الحساب. وكانا أيضًا، جون وجورج، يحميان الراقصات والفتيات اللواتي يعملن على البار

ثم حصل مشكل كبير وتجمّعت عليهم عصابات أسترالية ليس لها ربّ. شباب متوحّشون، مسلّحون بالعصيّ والسكاكين والبونيات، هجموا على الملهى وكسّروا عظام الأخوين فطلب منهما صاحب الملهى أن يستقिला وأن يغربا عن وجهه، فاك أوف، قال لهما، أنتما لا تنفعان لشيء ولا تفهمان في المشاكل لأنكما اعتبرتما المسألة شخصيّة وليست مسألة دفاع عن الملهى شغل

يضحك طنّوس من قعر قلبه ويقول لي. طبعًا، جون وجورج لم يعجبهما الكلام وهما كانا يريدان من صاحب الملهى أن يساعدهما للانتقام. فقرّرا أن يدفعاه الثمن. فراحا إليه ذات ليلة وشلّحاه كلّ ما يملك. الأموال التي كانت معه، وفي خزنته في البيت، ومجوهرات وذهب زوجته. وهربا ومايك ومايك الذي كان تزوّج إحدى فتيات الملهى ويعاني الأمرين من حياته معها، عرف أنّ الموسى ستصل إلى ذقنه وسيدفع الثمن باهظًا. فهرب مع أخويه وعاد الجميع إلى البلد.

وقال طنّوس إنّ مشاريع جون وجورج هي الآن في استئجار أو شراء ملهى ليلي. لذا يجولان ويسهران في الزيتونة في بيروت، وينايمان في شقّة مفروشة في الحمرا وقال طنّوس إنّ أكثر ما يهتمّهما متابعته في لبنان هو حفلات المصارعة، وبخاصّة حفلات الأخوين سعادة، ومن أجلهما اشتريا تلفزيوناً وضعاه في الشقّة المفروشة، لا يفوتان أيّة حفلة مصارعة على التلفزيون، وهما يكونان قد حضراها أمام الحلبة.

وذات مرّة أخبرني طنّوس أنّ جورج يبحث عن امرأة غنيّة يتزوّجها لأنّه يفضّل شراء الملهى بدل استئجاره. فهو يعتقد أنّ بيروت تتطوّر بسرعة وتزدهر بسرعة، وأنّ من يملك فيها مصلحة اليوم سيلعب غداً بالذهب لعباً قلت لطنّوس إنّ بائعة اللبن الأرمنيّة ورثت أباهما وزوجها والكلّ يقول إنّها غنيّة جدّاً، ومنذ وصول الأرمن وهي تدكّ الأموال لا تصرف فلساً، واسمها سيرانوش. لكنّها ليست جميلة. أعني ليست جميلة بالمرّة.

دعوت سيرانوش إلى بيتنا وأوصيتها أن تتهدم لأعرّفها على عريس جميل ومحترم وغني وصل الشباب قبلها وجلسوا ينتظرونها ويشربون الويسكي وجورج يقول إنّه يحبّ النساء الجميلات لكن لا بأس لو لم تكن سيرانوش جميلة. وإنّه لو كان سيتزوّجها من أجل مالها فهذا لا يعني أبداً أنّه سيسيء معاملتها فهو جنتلمان، والأرمن في النهاية مسيحيّون مثلنا وأوادم.

حتى دخلت سيرانوش

وقف الثلاثة يسلمون عليها ثم جلسوا صامتين . حتى أنا
جلست صامته مذهولة أهدق فيها كأني أراها للمرّة الأولى، ولا
يطلع من فمي صوت أو كلمة

كان الماكياج، الكثير الألوان، الذي غطت به وجهها، غريباً
والفستان، كأنه قطع قماش مجموعة لا أحد يفهم كيف . وكان
قصيراً فبانت ساقاها الغليظتان تحت ركبتين مدورتين نافرتين تشبهان
ركب الحيوانات لا البشر

ثم رحنا نتبادل النظرات بصمت، وجورج يعبّ الويسكي كأنه
يبحث عن الكلام . أخذتُ سيرانوش إلى المطبخ أحاول أن أصلح
الأمر قليلاً أنزلتُ بكفّي شعرها المنبوش ورحت أمسح بأصابعي
الألوان عن جفنيها، وعن فمها وهي تقول إنّ الكوافيرة جارتها هي
من جعلتها تخرج هكذا من غير اقتناع منها

وحين عدتُ بها إلى الصالون وجدت الثلاثة غارقين في
ضحك خانق . لا يكاد الواحد منهم يقدر على التقاط أنفاسه .
وحين أبدت امتعاضي صار جورج يحاول أن يكون جدّياً يقول
لها إسكيوز مي مام . الحياة تفاهم قد لا أعجبك وقد لا
تعجبيني أنا صريح الأجانب صريحون، ثم يروح في نوبة
ضحك يُنهىها كالعادة بفاك مان . وحين عادت سيرانوش إلى بيتها
وقد أدركتُ أن لا نصيب، أفلتوا ضحكهم الذي صار يشبه
الصراخ ثم قال لي جورج بنت عمّي سلمى أي لوف يو فاك
الأموال واللبن واللبن . . أنا زلّمة مثل القمر، ومش كبير في السن

لهذه الدرجة فاك اللبن. هيدي مش مرة. هيدي «حيزة» وحين
رحنا نسأله ما معنى كلمة حيزة ومن أين أتى بها، صار يقول حيزة،
لا أعرف. شيء بالعربي مان، شي يعني أيّ شيء ما عدا امرأة.
هيك، حيزة، طلعت معي وجدت أنّها في لفظها تشبه هذه السيّدة
التي كانت هنا

يا إلهي كم ضحكنا ليلتها!

ثم دخلت هذه الكلمة الجديدة - حيزة - في لغتنا ووظّدت
علاقة الصداقة والحبّ مع جون وجورج اللّذين صرنا نراهما تقريباً
كلّ يوم.

كلّ البيوت التي استأجرناها في الدورة والضبيّة وبرج حمّود والسبّيّة وكعب مرعش وصربا وغيرها من الضواحي كانت متقاربة كأنّها انتقلت بتجمّع العائلات نفسها من الضيعة. وكانت بالطبع بعيدة عن تجمّعات عائلات الزغرتاويّة. فضّلنا أن نقترّب من الأرمن والمتاولّة، بل والفلسطينيّين ونبتعد عن الزغرتاويّة. قدر المستطاع نبتعد عنهم وعن المشاكل والمعارك، فالناس تريد أن تشتغل وتعيش وتستفيد من خيرات البلد الكثيرة.

لكنّ الحياة، كما هي دوّمًا، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى.

هكذا عرفنا وتحقّقنا من أنّ سابا مسجون في أميركا أحد شركائه في التهريبه وشى به فألقوا عليه القبض في المطار هذا ما قاله حنا الذي ظلّ يصرّ على أن لا شأن له بالتهريب، وأنّ طمع أخي أودي به. وراح عمّي يقول إنّ الدنيا علينا بألف خير فلماذا نهرب أنا وابني. وحين قال طنّوس إنّّه سيسافر إلى أميركا ليرى ماذا يستطيع أن يفعل، قال عمّي يوسف إنّ السفر لا ينفع وإنّه سيحاول

جهدہ من هنا، وسیعین له محامیًا فی آمریکا أو یرسل واحدًا من هنا

تكلّمنا كثيرًا جدًّا في قضیة سابا ولم نجد حلًّا ثم مات عمي يوسف فازداد يأسنا، إذ لم يكن حنا يفعل سوى التهرّب من الموضوع أو هو، في بعض الأحيان، ينتهي إلى سؤالنا عن بيع ما تبقى لنا من أراضٍ قليلة، أو إلى استنهاض هممنا في حشد الأصوات له لأنّه سيترشّح للانتخابات النيابية.

جون وجورج، وقد التحق بصحبتهما خليل ابن عمي فريد، كانا يقولان إنّ قضیة سابا ميؤوس منها إذ قبضوا عليه بالجرم المشهود. حمار، كانا يقولان. يعتقد سابا أنّ أميركا هي مثل عيناتا، وأنّ الدولة هناك تمشي بالواسطة مثل عندنا حمار، يقولان إنهاءً للموضوع، تاركين سابا لمصيره ووطنوس وأنا لحيرتنا وحزنا

ثم انشغلنا بيوسف ابن نبيهة الذي كاد يورّط كلّ رجال العائلة بحرب مع الأرمن يوسف، زوزو، الذي كانت أمّه تبكي من كسله في المدرسة التي تقبض أقساطًا تشتري شقّة، يحبّ المشاكل ويلحق بالمشكل، يبحث عنه إن لم ينجح في خلقه. في غياب أبيه تأتي نبيهة تشتكي وتطلب المساعدة. وقالت نبيهة إنّ جون وجورج زادا أمور زوزو تعقيدًا إذ صار يريد أن يشبههما وهو بعد لم يطلع له شارب. زعل جورج من هذا الكلام وقال إنّ لا يشتغل هذه الشغلة وإنّه إنّما نصح يوسف بأن يدافع عن كرامته، ولا يجعل الأرمن، وهم جلب على بلادنا، يكسرون شوكته لكنّه قال له أيضًا إنّ العضلات ليست كلّ شيء.

هكذا تجمّع أرمن أمانوس وبوليكاربوس وكمب مرعش والنهر والكرتينا في جبهة وأهل الضيعة والعرب في جبهة. ذهبت أنا ونبهة إلى كركون الدرك في مار يوسف فلم يسمعنا أو يردّ علينا أحد. قال جورج فاك أرمن أري. من هو زعيمهم؟ أنا أتكلّم مع زعيمهم مان تو مان. أنا سأفاهم معهم. ثم اعترف زوزو بأنّ الزعيم الأرمني الذي لا يعرفه لا يستطيع أن يحلّ المشكلة إذ إنّ المشكل حصل معه شخصياً فبعد أن ضربه أرمني في محلّ الفلافل فضلّ زوزو عدم استعمال عضلاته. سكت على الضيم ومثّل على الأرمن أنّه ارتضى بمصيره. ثم ذهب معهم إلى البحر على شاطئ أنطلياس واصطحب معه أخاه الصغير فارس حتى يأمنوا له. وهناك دهن زعيمهم الكثير الشعر بزيت على كامل جسمه قال إنّه يسمّر الجلد ويجعل لونه برونزياً جميلاً ثم عاد هارباً إلى البيت. وكان هذا الزيت مزيلاً للشعر فوريّ المفعول.

لم يضحك أحد. واصفر وجه خليل وقال يجب إعلام الجيش.

قال جون، فاك يو فاك يو مان. فاك بسطرما هيدي حرب مان. أنت مجنون يوسف. كريزي بلا رأس.

ثم تكفّل جورج بالحلّ وقال لزوزو ألا يتحرّك من البيت.

ذهب جورج إلى الأرمن وقال إن الصبّي لم يقصد وهو غلّط بالزيت. أخطأ في قراءة ما هو مكتوب على الزجاجة فأخذ مزيل الشعر بدل زيت البرونزاج من خزانة أمّه ثم عزم جورج من يريد من الأرمن إلى سهرة على الزيتون، وانتهى المشكل.

لكنّ المشاكل والمعارك التي صار يذهب إليها زوزو في ما بعد بعيداً في مظاهرات في بيروت تتكلّم عنها الجرائد، أو على أطراف تلّ الزعتر أو مخيم ضبيّة، مشاكل ومعارك مع الفلسطينيين ومن يتحرّب لهم من الإسلام، فهذه كانت حكاية أخرى، أكبر من تدخّلنا وتدخّل أبيه، وتدخّل جون وجورج وخليل وطنوس وكلّ من زار بيتنا، مجتمعين.

حصل كلّ ذلك، وغيره ممّا غير حياتنا، بعد فترة قليلة من وقوع حرب ٦٧ المشؤومة، والتي بقيت تؤثّر علينا زمنًا قبل أن ننساها أو يتهيأ لنا ذلك.

قبل أن تقع حرب ٦٧ كنا نعيش بسلام ففوجئنا بها كثيرًا
هربنا إلى الضيعة بسرعة وصرنا نستمع إلى الراديو ولا نفهم شيئًا
نقول ماذا جرى حتى يعلق العرب واليهود. اليهود احتلوا فلسطين
من زمان وطرّدوا الناس، أو أنّ هؤلاء باعوا بيوتهم وأراضيهم
وهربوا، من زمان حصل كلّ هذا فلماذا هذه الحرب الآن. ؟ ثم
صارت الناس تقول إنّ عبد الناصر يريد أن يتمرّج على اليهود وأن
يأخذ منهم الأرض التي ربحوها ليسيّطروا على كلّ العرب وراح
البعض يتحمّس لعبد الناصر، فلو ربح الحرب سيأخذ عنّا
الفلسطينيين ويربحنا منهم ويردّهم إلى أرضهم والبعض الآخر
كان يقول إنّ عبد الناصر سيكسر شوكة المسيحيين إن هو ربح على
اليهود، من أجل أن يسيّطروا، وسيربّي القمل في رؤوس الموارنة
على نحو خاصّ إذ هم الأصل في استقلال لبنان. فالآخرون من
روم وغيرهم، وفيهم الشيوعيون والقوميّون، لا يهتمّ لبنان الوطن
بل هم يتحالفون مع المسلمين والروس والسوريين ضدّ الوطن،
وكلّ عمرهم خونة ويتأمرون ويحضّرون لانقلابات.

الحرب انتهت قبل أن ننهي من تخزين المؤن، بل قبل أن ننهي من طلاء زجاج النوافذ باللون النيلي حتى لا ترانا الطائرات الإسرائيلية في الليل. بعض جيراننا لم يشتروا أقراص نيلة وراحوا يسخرون منا قائلين إنّ إسرائيل لا تضربنا نحن، وهي لا تكرهنا وبعد أن عرفنا بخسارة العرب جميعاً في خمسة أيام صرنا نرى الطائرات الإسرائيلية تحلّق في سماء الضيعة، وتروح وتجيء كأنّها في استعراض.

صارت مارغو، على سطح بيتها، تلوّح بما في يدها للطائرات وتقول فيفا فيفا أشكول. والله الشاطر ما يموت. احرقوا دينهم. فيفا أشكول. فيفا بمغوريون. كسحوا ملايين المسلمين بكام يوم، وهم مثلنا قليلون. فيفا انزلوا هنا أعمل لكم طاولة لآخر الساحة. ثم. ثم راحت مارغو تنظر إليّ إذ وجدتنني لا أضحك كالآخرين. قلت لها ما بك؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ قالت: لأنك لا يبدو عليك الفرح قلت لها لماذا أفرح؟ هناك بحر من دم القتلى. الله يعين أمهاتهم. ثم لماذا أفرح وسيكثر عندنا عدد الفلسطينيين قالت: لكننا سندعسهم بهذه الصرماية، مهما كثرنا ثم راحت تضحك وتلوّح دون أن تنظر إلى السماء، بل ظلّت تنظر إليّ في تحدّ عجيب.

ثم وجدتها أمام بيتي ووراءها ابنها الكبير يحاول إمساكها من ذراعها وردّها إلى الوراء ودون أن أشعر وجدت نفسي فوقها وفي يدي خصلة كبيرة من شعرها الأشقر والناس ترفعني عنها ثم حضر الخوري وصار يقول تؤلّف ولا تؤلّفان والآتي أعظم. وأنا أفكّر

بأنّي لم أكن أعرف أنّي قويّة هكذا مع أنّي لم أعد شابة . ولم أكن أردّ على لوم الرجال: فقط أقول هي هجمت عليّ هي هجمت عليّ وصارت تصرخ تحبّين مصر لأنّها بلد الرقاصات والشرايط . بيتكم صوفته حمراء من زمان، ولا أحد يدري ما تفعله أختكم هناك . تضضبضوا في بيوتكم . و و و صارت تهذي، لا أفهم ما تقول .

صار الخوري يكلمّ الرجال في البيت . خاف أن يكبر المشكل ويخرج عن كونه مجرد علاقة بين نسوان ثم يتحوّل حرباً بين العائلات . وكان الخوري يعرف أنّ الأسلحة التي تخبأ في البيوت لم تعد تقتصر على بارودة الجدّ . حتى إن كثيرين كانوا يقولون إن الخوري يعمل جاسوساً للجيش، وهو عضو فاعل في مخابرات المكتب الثاني، ولا ينبغي أن يتكلّم الواحد أمامه بأمر خطيرة، أو حتى مهمّة .

راقت الأمور في الحارة، لكنّ الجوّ كان مكهرباً في كامل الضيعة . صار جون وجورج يقولان لمن يسهر عندنا فاك سياسة . الناس هنا تتكلّم كثيراً، طالع نازل، لا أحد يفهم عليكم . تضبّعون وقتكم بالكلام ولا تشتغلون في مصالحكم فاك سياسة، وين البرنس شعب ميّت جبان . أين الشباب؟ أين الشباب؟

ولمّا طلع جورج وجون إلى مركز جمعيّة الشبيبة يبحثان عن كلام وآراء الشباب، بعيداً عن حكايات الماضي وخرافاته، كما كانا يقولان، لم يجدا أحداً فهما أنّ الجمعيّة انشقت ثم انفرطت بعد خلافات انتهت بسقوط عدد من الجرحى، وهروب عدد آخر

من الضيعة، لا أحد يعرف إلى أين

شيئاً فشيئاً راحت الناس تغادر الضيعة، ناس إلى أشغالها ووظائفها، وناس إلى المدارس التي كانت امتحاناتها على الأبواب. ورغم ضخامة هذه الحرب لم نشعر نحن بنتائجها، تماماً كما لم نكن فهمنا أسبابها

لم تضرب الطائرات بيروت. وجدناها كما تركناها لكنّ الأجواء راحت تتوتر يوماً بعد يوم.

والمظاهرات التي بدأت تسير في الشوارع بعد استقالة عبد الناصر صارت بعد ذلك كثيرة. ورغم بعدها عن أحيائنا صرنا شيئاً فشيئاً نشعر بارتداداتها منها مثلاً المعارك التي تحصل بين الأرمن أنفسهم، بعد أن انشقوا إلى حزبين طاشناق وهانشاق. حتى إنّ شبابنا صاروا يخافون الخروج ليلاً وحين ذهبت نبيهة في الليل لوحدها لتسحب يوسف من شعره عن طاولة القمار وتعود به إلى البيت، لامها الرجال في البيت، وقال لها طنّوس إن عليها في ظرفٍ كهذا أن تستشيرهم.

هكذا، يوم رائق ويوم عاصف. يوم شغل عادي ويوم مظاهرات. وبعد إحدى المظاهرات، ولم نكن سمعنا بها، عاد جورج إلى البيت وجهه أصفر صار يقول: فاك العرب وفاك إسرائيل. ثم فاك اتّفاق القاهرة لا أحد يعرف ما فيه. ثم صار يقول إنّه ينبغي التفكير الآن بالهجرة مجدّداً ثم روى لنا كيف عرّجت إحدى المظاهرات على الملهى وحطّمت واجهته الزجاجيّة بالكامل، ثم مالت على سيارته الأميركيّة الجديدة الجميلة وتركتها

حطامًا لا ينفع فيها تصليح فاك عرب شو أنا خسرتهم الحرب؟
شو محلي قاعدة صواريخ إسرائيلية؟!

ثم مضت الأيام هكذا لا نفهم متى تروق أو متى تتوتر الحالة
وذات يوم ذهبنا أنا وطفوس نزور صابات لنطمئن عليها وهي تسكر
بين اليهود. وجدنا البناية شبه فارغة من السكّان. قالت صابات،
ليزا إنّ كثيرين هربوا خافوا وهربوا منهم من سافروا إلى
أميركا، ومنهم من قالوا لي سرًا بأنهم ذاهبون إلى إسرائيل هؤلاء
أكثرهم فقراء ودفَعوا لهم أموال ومساعدات. نحن لا يفكر فينا
أحد. نحن لا مكان نهرب إليه

ثم أخبرتنا بأنّ هناك عائلات لا تريد ترك بيوتها ومنهم من
أعطاهم مفاتيح البيوت واختفوا بعيدين عن الحيّ قائلين إنّها غيمة
وستنقشع وبعدها سيعودون.

لما رجعنا إلى البيت قال جون: يجب أن يشتري الواحد بيوتًا
أو متاجر من اليهود في هذه المنطقة إذ ستكون الأسعار في
الأرض. من يرد الهرب يبع بسعر الفجل ثم نسي الموضوع

وعملنا حفلة ليوسف، وزوزو، بعد أن نجح في شهادة
التوجيهية التي حصل عليها في مصر بعد أن يُسنا من حصوله على
البكالوريا اللبنانية وكان يرّد سقوطه في الامتحان اللبناني الصعب
إلى ظلم أبيه الذي - قصاصًا له - حرّمه من متابعة دروسه في
المدرسة الخاصة وسجّله في المعارف، في مدرسة رسمية، كان
زوزو يقول إنّها لا تعلّم شيئًا

وفاجأنا يوسف كثيرًا حين عرفنا أنّه بعد أن دخل إلى الجامعة

العربيّة انتمى إلى عصبة أنصار الثورة الفلسطينية. عصابة
الفلسطينيّة، كان يقول نجيب وهو يقفز ليضربه بحزامه الجلدي
الغليظ. لم أعد أريد علمًا، لا جامعة ولا جوامع ممنوع الخروج
من البيت يا أزعر، يا فاشل يصيح نجيب. أهذا فضل
تربيتي. ساعة مع الزعران تتقاتل مع الفلسطينية وساعة مع الزعران
الفلسطينيّة، تتقاتل مع الزعران اللبنانيّة. أنا، مالي وللسياسة،
أنت ستموت قتلاً في يوم قريب، يا حيوان، يا خرا

صار يوسف يأتي ويسهر عندنا يتكلّم عن الفلسطينيين كأنّه
شاعر رقيق القلب وهو لم يكن يوماً كذلك أقول له آه يا فريد
الأطرش، أبكيتنا يروح يدافع عنهم قائلاً إنه يعرف الكثيرين منهم
وهم لم يبيعوا أرضهم بل اغتصبها اليهود بعد أن ذبحوهم.
اغتصبها؟ أقول له، لا تستعمل كلمات بذيئة هكذا لكنّ طنّوس
يقول إن يوسف أصبح شاباً ويجب أن نستمع إليه باحترام وإلا خرج
عن طاعتنا نهائياً ولم نعد نقدر عليه

ثم صار يوسف يذهب إلى ملهى الزيتونة مع طنّوس. فقد أقنع
جورج وجون أخي بأن يغني في نهاية السهرة في الملهى بعد أن
صلّحوا الواجهة. وشيئاً فشيئاً صار له جمهور من السميعة ينتظرون
وصلته بعد أن يخرج جمهور الطقاطيق وجمهور الفرنجي.

لكنّ نجمة الملهى الحقيقيّة، التي جلبت جمهور الزبائن ودفع
لها الملهى وزنها ذهباً، فكان اسمها جاكلين.

جاكلين جميلة وشقراء وصدرها مكّور وكبير لكن لا صوت لها
بالمرّة. لذا كانت أغنياتها أشبه بالفحيح. قوم طقيّ اللمة، قوم

نرقص سامبا بدّي منك يا حبيبي بوسة تفقع زي البمبة . قوم
طقي اللّمة . فاك لمبة، فاك كهربا كان يصيح جورج استحسانا
وهو يرى الطاولات عمرانة بالزبائن .

وجاكلين كانت مدلّلة جدّا إذ بدأت تغني في التلفزيون، وصار
المصطافون العرب يعرفونها ويقصدونها إلى الملهى فتطالب برفع
أجرها وحين يتردّد جورج أو جون كانت تقول كلّه بجهدى
ماذا يقدّم لي مسرحكم . انظروا في الإيبي كلوب . صباح تلبس
فستانًا كاملاً من الكهرباء تطلّ في العتمة الكاملة، ثم يضيء
الفيستان بألف لمبة، مصابيح مصابيح داير ما دار، وأنا كلّه
بمجهودي الشخصي صباح تغني نورتونا يا حبايب طقّوا نور
الكهربا، فتنظفئ أنوار المسرح ويضيء فستانها وأنا ما زلت أغني
عن اللّمة لأن لا مال عندي للإنتاج الضخم اللائق أو لشراء قصائد
حقيقيّة . اذهبوا إلى الإيبي كلوب وتفرّجوا

يسهر عندي يوسف حين لا يذهب مع خاله إلى الملهى
ونتسلّى كثيرًا بدا وكأّنه نسي أنصار الثورة والسياسة . قال إن
الطريق إلى الجامعة العربيّة صارت معقّدة، وإن الأمر أصبح خطيرًا
إذ ضاعت الطاسة وكثرت المعارك بين الطلاب أنفسهم وصار
الواحد لا يعرف من أين تأتيه الضربة . ثم قال يوسف إنّه سيعادل
شهادته ويدخل جامعة أخرى .

نادرًا ما يأتي فارس للسهر عندي . يظلّ هذا الصبيّ بعيدًا عن
الجميع فأسأل يوسف عن أخباره . فارس شاطر جدّا ويدرس كثيرًا
يا خالتي، تقول هند . يقرأ الكتب ويمارس الرياضة، ولا يحب

الكلام. ويومًا ما سيصبح مهندسًا مهمًا لكنّ كلام هند لا يعجب يوسف الذي يعلّق قائلاً إن أخاه ليس مثله شعبيًا، لكن يخطئ من يعتقد أنّ فارس منصرف إلى الدرس والرياضة فقط. إنه كتوم وسريّ، ولا أحد يعرف عنه شيئًا لكن أنا أقول لك يا هند إنّ فارس يخجل بنا، ولا يزورنا أحد من أصحابه الذين لا يتكلّم معهم إلّا بالفرنسي أبوك لا يحاسب فارس على شغله في السياسة لأنّه لا يعرف عنه شيئًا يعتقد فقط أنّه مهذب وآدمي لأنّه ينجح في الدراسة فارس أخوك لصّ خطير وقلبه قاسٍ، وهو سيصبح زعيما لا مهندسًا كما تعتقدين

تبرّم هند من كلام يوسف، لكنّي أنا أميل إلى تصديقه إذ يظهر فارس لنا جميعًا احترامًا مُبالغًا فيه لُيعدنا عنه، ببرودة بائنة.

وهنودة التي صارت تنام عندي كلّ مساء تقريبًا صارت صبيّة صغيرة تدرس وتأكّل وتنام عندي وتملأ عينيّ وقلبي. أداعبها قائلة فرجيني البزوز قديش صار؟ هل نشترى سوتيان أم ننتظر قليلًا؟ ثم أسألها وين الغرام؟ ما في غرام؟ قولي لي، ما في غرام؟ فتضحك وتخجل وتحمر وجنتاها سأخبرك عن الغرام حين يأتي، تقول لي هند وهي تدفع يدي بعيدًا عنها

وهند هي الوحيدة التي تسمع معي غناء طنّوس. حين يروق المزاج وأشتاق لصوته يغنيّ أخي في البيت بأحلى من غنائه في الملهى الذي أشعر أنّه لا يُطلق فيه صوته كما يحبّ، إذ أعرف أنّ الأمر بالنسبة له أقرب لأن يكون وظيفة.

لذلك، ولأنّه كبير في العمر أكثر ممّا تسمح به شروط الشهرة

الآن، ولأنه لا يغني في الملهى من قلبه، أطلبُ منه أن يغني في البيت مُطلقًا مزاجه، وأريه كم أنني أحبّ صوته وأطرب لغنائ. وأشتاقه.

بلّغه يا قمرُ إذ يُنشر الخبر
أنّي غدا غدي يغتالني السهر

أو بكاء ذلك الملك الغرناطي الشريد إذ يقول:

بروحي تلك الأرض ما أطيب الرّبي
وما أحسن المصطاف والمتربعا وأذكر أيام الحمى
ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا

وحين يجنّ الليل، ويعتصر قلبي حبّي للحبّ أطلب منه سيبوني
سيبوني يا ناس في حالي في حالي

أروح مطرح ما أروح

دا غزالي وافق عزّالي وخلّاني

لوحدي أنوح

سيبوني.

كان الربّ يمتحنني باستمرار ولم أهرب يومًا من الامتحان .
كنت أقول إنه إنّما يفتكرني وهو لم ينسني أو يتركني . وحين تقسو
الحياة كثيرًا أصليّ، راجيًا الربّ أن أشتري القسوة بالندامة .

لم أعترض يومًا

كنت فقط أحاول اللحاق بأحكامه في عقلي ، لأفهمها ولأحسّ
الندم والتكفير يشفع لي ربّما سهوي . إذ أتأخّر دائمًا عن تفسير
المعاني . أصل دائمًا متأخرًا على مواعيد رسائل الربّ .

في عمري هذا صرت مقتنعًا بأنّ كلّ عذاباتي تتأتّى من الوقت
الذي ، لا أنا أحسنتُ ضبطه أو اللحاق به ، ولا هو رعاني
بالوصول لحظات انتظاري إيّاه .

هكذا ، وفيما أنا غارق في ندمي على إهمالي أخي سابا
ونسيانه ، أحاول أن أفعل شيئًا من أجل إخراجه من السجن في
أميركا ، أدخر المال الذي أجنبيه من غنائي لأوكل له أكبر محامٍ

أميركي يُعيده إلينا، وهنا نريه حَبْنًا ونحيطه برعايتنا واهتمامنا،
جاءنا خبر موت إميلين في مصر

هكذا، وأنا أتضرّع للربّ أن يمنحني فرصة استدراك نسياني
لأخي الوحيد وتركبي إياه في ضعفه وقلة إيمانه ووحشته، فتح الربّ
في قلبي خطيئة أخرى وندمًا فات أو ان التعويض عنه أو شرائه
بالتكفير وبدفع الأثمان مهما كانت.

عندما وصل خبر موتها انتبهت كم أنني نسيت أختي ونجحت
في تحويل نسياني هذا إلى قناعة كاذبة بأنّ أختي هي من اختار
البعاد وأنها سعيدة في مصر وصارت لها هناك حياة هائلة لا يحقّ
لنا أن نطالبها بتغييرها، وأننا، إن فعلنا نكون أنانيّين، نفكّر
بأنفسنا، وبما يريحنا ذلك أنّ الناس راح تقول إن أختي إميلين
تشتغل رقاصة في مصر، لأنّها مثلي فتانة. وأنا تهيأ لي أنني من
أجل سعادة أختي لن أطلب منها العودة لأردّ التهمة وأبرهن أنّها
شريفة طاهرة

لكن حين عرفت بموتها بعد مرض وألم، بحسب ما قالت
رسالة الراهبات، استفقتُ من أوهامي وقلت في نفسي إنّي نسيتهَا
نسيت أختي. فما الذي سيخلّصني الآن من ندمي؟ كيف يمكنني
الآن أن ألحق بموتها؟

رحت أبكي موت إميلين بمرارة. لا يعزّيني أحد أو شيء
ذلك أنّ أختي ردّت لي أمواتي جميعًا. وجميع أوقات

التخلّي . تلك التي تركني فيها يسوع لوحدي .

ولو أنّي كنت ولدًا صغيرًا ، كان ينبغي أن أصر أكثر على عودة أبي معي إلى بيت بو علي ليلة دنق ومات على طريق ظهر الجرد . وأكلته الذئاب والضباع . أبي الذي بقي قبره فارغًا ، ووضعنا مكانه الإنجيل في تابوته .

وما كان ينبغي أن أترك أمي تخرج وحيدة ، وهي مريضة ، إلى بيت أختها ، فقط لتأتينا بالزيت . فأنا الوحيد بين إخوتي الذي كنت شرهاً ، أحبّ الأكل ، أقلب الصحن بما فيه إن لم يعجبني الطبخ . أطالب بأكل الأغنياء الطيّب . وأمّي سرقها النصابون ولم أدافع عنها إزاء أحد منهم . فضّلت الهرب والنسيان . كحالي دائماً ثم أستفيق حين لا جدوى .

كما هربت من قتييل بُنحلي ، وقبله من دير مار قزحيّا ، ثم هربت من حلا ، ثم من فاطمة . والآن .

لكنّ رحمة الربّ تظلّ تفتكرني ، ولو قليلاً فبالمال الذي جمعته سأستعيد أختي وأقبرها إلى جانب أمّها و أبيها

حاول نجيب أن يفهمني كم أنّ تكاليف نقلها في نعش من مصر إلى هنا باهظة . وحين فهم وبسرعة ما بقلبي قال إنّ كلّ ما يملكه من مال هو تحت أمري . ولم أكن بحاجة للمال

ثم سافرت سلمى إلى مصر لتأتي بأختها الصغرى .

وذهبنا جميعًا إلى المطار وبكينا كثيرًا حين خرج النعش من بطن الطائرة.

كانت سلمى تحمل صورة كبيرة لأختنا، وُضعت في إطار أسود وألصقت على جانبها مسبحة فيها أيقونة العذراء. فوجئنا كثيرًا بالبنت التي داخل الإطار إذ كانت في عمر متقدّم ولم تعد تشبه كثيرًا إميلين. كان شعرها مرفوعًا بالكامل ورقبتها سمينة توحى بسمنة كامل جسمها، وهي، شابة، عندنا، كانت نحيفة. انتبهنا، كأن فجأة، من الصورة، إلى الوقت الطويل الذي فات ولم نر فيه أختنا وانتبهنا في الآن نفسه كم نسيناها، وأيضًا كم كبرنا في العمر نحن أيضًا

حين نروح نحدّق في الصورة يخفّ بكاؤنا تأخذنا الحشريّة في النظر إلى تفاصيل وجه المرأة الميّتة كأن بعيدًا عن أختنا

لما وصلت سيّارة النعش إلى كنيسة الضيعة وضعنا الصورة ناحية المذبح وجهها إلى الخوري وصليب يسوع فلم نعد نراها كان التابوت غريب الشكل، مقفلًا برباطات معدنيّة من الرصاص فراح الخوري يتفحص تفاصيله ناسيًا البرد.

كأن برد الثلج، الذي تراكم عاليًا، لم يكن يكفي، أخذ المطر ينهمر كثيفًا تعصف به الرياح في كلّ اتّجاه. والسماء السوداء لم تكن تبشّر بأن يخفّ هذا المطر قريبًا، ولو قليلًا، لنمشي بالنعش إلى المقبرة وهي ليست بعيدة.

نصحنا الخوري، بعد أن توقّفنا في باب الكنيسة ننظر إلى السماء ولا ندرى ما نفع، نصحنا أن ننزل إلى بيت الرعيّة. قال إنّها صالة واسعة ربّوها من أجل مناسبة كهذه، ولأنّ أهل الميّت لم يعودوا يرغبون باستقبال الجثث والسهرة عليها في البيوت، كما كان في الماضي ثم قال إن بيت الرعيّة هو بيت الجميع، وإنّ الظرف لن يسمح لنا بالتوقّف في بيتنا بالضيفة، وسيكون العزاء لائقاً في القاعة الجديدة والتي عمد الخوري إلى تدفّتها بالصوبيات قبل وصولنا، تحسّباً ثم إنّه أصبح للرعيّة سيّارة موتى، تحمل الميّت إلى المقبرة دون الحاجة إلى السير بالتابوت.

لا يمكن وصف بشاعة بيت الرعيّة هذا جلسنا على كراسيّه البلاستيكيّة الكثيرة، المصفوفة في خطوط طويلة لا تتقابل، لا يرى واحدنا وجه الآخر لا يرى سوى الجدران القصيرة، والعارية إلّا من لوحات رخاميّة كُتبت عليها أسماء المتبرّعين الكبار. وكان الضوء المكهرب النازل من زجاج الثريات الواطئة ينغرز في الأعين والرؤوس كالإبر، ويجعل لون الوجوه أقرب إلى الأخضر منه إلى الأصفر حتى وعاء الشموع كان يشبه طشت الغسيل، والشموع نفسها كهربائيّة، تُضاء بكبسة زرّ صغير وُضع قبالة كلّ شمعة.

ثم بدأ المعزّون بالخروج والعودة إلى بيوتهم بعد أن انتظرنا طويلاً أن يخفّ المطر قليلاً انحنى الخوري على رأسي وقال إنّ قيمة الميّت كما حبّ أهل ليس بالشكليات بل بالصلاة من أجل راحة نفسه فقبلت فوراً اقتراحه بحمل النعش في السيّارة إلى المقبرة.

جعل المطر الطوفاني عودتنا إلى بيروت في اليوم نفسه مستحيلة. سبقنا بطريسة إلى البيت وجّهزه في دقائق. وجدنا الجيران في البيت ينتظروننا بالشاي والزهورات والقهوة. وبعد حوالي ساعتين من قعودنا في البيت جاءت مارغو ودعتنا جميعاً إلى العشاء عندها عن نفس المرحومة. ولما شكرها بطريسة عنّا قائلاً إنّه أعدّ في بيته كلّ ما ينبغي صارت مارغو تجهش بالبكاء وتتضرّع إلى القديسين أن يأخذوا روحها فوراً إن لم نأكل في بيتها، فذهبنا كلنا إلى بيت مارغو

لما ذهب الجميع إلى النوم بقينا أنا وسلمى في الدار لوحدا قالت سلمى إن انسكاب المطر هذا شيء غريب في الضيعة، وإن الأيام تتغيّر بسرعة وإننا كبرنا في العمر

رحت أفكر بأن صورة إميلين أيقظتنا كأن من نوم طويل ردّتنا فجأة إلى أعمارنا كأن الواحد منا نظر في المرأة بعد سنين كثيرة فأت لم ير فيها مرآة.

ثم قالت سلمى إنّها كانت خائفة على صابات وكيف ستفجع بأختها التي كانت كأنها توأمها لا يفترقان. لكن صابات كانت أقلنا بكاءً على إميلين، وبدت كأنها دائماً مشغولة بابنتها وبأشياء أخرى. فمنذ عودتها من فرنسا تبدو صابات غريبة بعض الشيء، بعيدة عنّا، حتى أسرت لي سلمى بالشكوك نفسها التي كانت تساورني هل أحببت أختي صابات زوجها الفرنسي فعلاً، ذلك الذي من أجله تغرّبت وتركتنا لتذهب للعيش في بلاد بعيدة. فهي قلما تأتي على

ذكر ذلك الرجل، وإن هي فعلت لا يبدو عليها التأثير كثيرًا بموته شابًا في حادثة فاجعة. وإن نحن سألناها عنه، أجابت بسرعة وغيّرت الموضوع ثم قالت سلمى بأسف لا أستطيع أن أحب ابنتها كثيرًا، لا أدري لماذا

في صباح اليوم التالي كانت ما زالت تمطر بغزارة. وأنا استقرت في باب معدتي تلك العقدة المؤلمة، وكنت كثيرًا جدًا

ثم جاءت سلمى بالحقيبة الجلدية التي عادت بها من مصر قالت نحن هنا جميعًا الآن فلنفتح شنطة إميلين

لم يكن بداخل هذه الحقيبة سوى أشياء قليلة كتب قديمة فرنسية بغلاف جلدي على صفحاتها الأولى تقديم لإميلين بخط ميسيو بونور إشبينات للصلاة وكراسات للتساقيات، تماثيل صغيرة للسيدة العذراء، سيّدة لورد. بضع صحائف من ورق البردي إسوارة من الذهب وساعة يد وقلم حبر سائل وأيضًا بطاقة بريديّة قديمة عليها صورة غابة الأرز

تضاعفت كآبتي مرّات حين رأيت حصيلة حياة أختي في الحقيبة الجلديّة احترت ما أقول. قالت سلمى. كلّ واحد فينا يأخذ غرضًا كذكرى من إميلين وقبل أن تقترب صابات من الشنطة أخذت سلمى الإسوارة الذهبية وأعطتها لهند، فتراجع الجميع منتظرين أن تقوم سلمى بتوزيع الأغراض، وهكذا كان.

رحت أقنع نفسي بوجوب البكاء، لعلّ هذا الألم في قلبي

يخفت قليلاً لعلّ كآبتي تصعد إلى حلقي أو إلى عينيّ

خرجتُ من الدار إلى المصطبة أنظر إلى جبال المطر لحق بي بطريسة وصرنا نتفرّج صامتَيْن. ثم سألني إن كنا نريد تأجير البيت التحتاني فقلت: لا قال: هذه ليست فكرتي، جورج هو من اقترح أن أسألك عن رأيك في الموضوع فقلت له: اسأل سلمى. ثم لحقت بنا سلمى ونبهة وقد أحسّنا بضيقنا فصارتا تتشاوران في ما عساهما تطبخان إذ لن ترتضيا اليوم دعوة أحد على الأكل.

نظرتُ إلى سلمى نظرة حرقرة واستغاثة وقلت أنا سأنزل إلى بيروت، فقالت: جميعنا سننزل إلى بيروت، وذهبت فوراً إلى جون وجورج، فقال نجيب أنا سأضضب البيت بمساعدة بطريسة ثم أطلع إلى الأرز إلّا إذا كنتم تريدوني.

تحركنا بسرعة إلى السيّارتين في الساحة وأنا في المقدّمة. ونحن نغادر الضيعة صرت أنظر إليها من النافذة الزجاجيّة المرفوعة أكاد لا أرى شيئاً من قوّة المطر لكنّي لست بحاجة إلى الرؤية فأنا أحفظها عن ظهر قلب. رحمت أتساءل إن كنت أحبّ فعلاً هذا المكان الكئيب. ورحمت أقول في نفسي إنّه سيمضي وقت طويل، بل طويل جداً قبل أن أعود إلى هنا صارت دموعي تنهمر غزيرةً وأنا أفكر أنّي ربّما أودّع كلّ ما أراه في هذه اللحظات، وأنّي ربّما لن أعود إليه سوى جثة محمولة إلى المقبرة، كما عادت أختي.

ثم توقّفت السيّارة عند كوع الشّير الكبير وجدنا أنفسنا أمام

تلّ من التراب والحجارة والأشجار الصغيرة والجدوع المكسّرة.
نزل جورج من السيّارة.

الطريق مقطوعة ويبدو أنّ انزلاقًا كبيرًا في التربة حدث هذه
الليلة، قال جورج انظروا نصف الشير أصبح في الوادي. لا
يمكن أن نتقدّم.

ثم نزلنا جميعًا، من السيّارتين معاطفنا على رؤوسنا، نحاول
أن نتبيّن ما حصل رأينا مذهولين أنّ السيّارتين متوقفتان على طريق
ضيّقة جدًّا إذ سقط نصفها أو أكثر في الوادي وجوّفها النهر
سارعنا مذعورين للعودة قبل انهيار الطريق بالكامل.

قبالة أرضنا في بُنحلي طلبتُ إلى جورج أن يوقف السيّارة
فورًا

نزلتُ أنا وسلمى ننظر باتجاه أرضنا فلم نجدها في مكان
قطعة الأرض التي فيها بيت الحقلّة وصيران الشير كان هناك بلاطة
كبيرة من الوحل مائلة إلى شقّ كبير في جدار الجبل.

في السهرة، وخلال الليل لم نجد سلمى وأنا ما نقوله لبعض.
كانت فقط تنظر إليّ ثم إلى السماء، بما معنا: إنّها حكمة الربّ.
إنّها حكمة الربّ. هذا أكيد.

في اليوم الذي وضعنا فيه أختنا في القبر أخذ الربّ قبر
العسكري الفرنسي.

لكن ماذا تريد حكمة الربّ أن تفهمنا؟

إنها تأخذ بيد وتعطي بالأخرى؟

إن قضاءها تمّ الآن بدفع الثمن؟

هل هي رسالة غفران، هل يريد الربّ أن يقول لنا إنه أراحنا
من خطيئة القتل وإنه سامحنا؟
لم أنم أبداً في تلك الليلة.

رحت أصليّ وأسأل الربّ أن أفهم رسالته

رحت أصليّ وأبكي وأطلب إليه، وبشفاعة أمّه العذراء، أن
يساعدني على استخلاص العبرة من أجل العمل بمشيئته وتنفيذ ما
تُملي إرادته.

يا ربّ قلّ ما تريد مني

أعطني أن أفهم رسالتك.

في بيروت لم تتكلم سلمى في موضوع القتل الفرنسي، لكنّها، في كلّ ما تفعل، كانت كأنّها توحى لي بأنّ ما حصل هو قضاء، أراد من خلاله الربّ أن يخلّصنا من هذا الماضي وأن يُريحنا منه، وهو إذاً قد غفر لنا، أكان الثمن موت أختنا الصغرى أم لا. وأنّها هي سلمى راضية تماماً بحكم الربّ.

أنا أيضاً رضيت بحكم الربّ، طالباً إليه ألا تكون هناك أثمان أخرى وأملاً برحمته

الذين لم يستطيعوا حضور جناز أختنا في الضيعة أتوا لتعزيتنا في بيروت خالي، لم نره، لا هنا، ولا فوق. صارت سلمى تقول إنه ينبغي لنا أن نبحث عنه إذ هي سمعت أنّ الدرك ألقوا القبض عليه، في الأشرفيّة، حيث كان يعيش متخفياً وباسم مستعار. قالت سلمى إنّ رجلاً جاء إلى البيت وقال إنّه كان مسجوناً معه، في حبس الرمل، وإنّ خالي كان يعمل طبيباً عربياً يداوي الناس بالأعشاب ويكرز فيهم. وقد اتّخذ، هكذا، اسمًا رسوليًا، مثل الأنبياء والمبشرين، هو عقل الكوني اعتذر الرجل، قالت سلمى،

لأنه تأخر في تبليغنا برسالة خالي إذ حصلت له مشاكل كثيرة بعد خروجه من حبس الرمل.

فهمنا أيضًا من الرجل أنّ خالي، إلى جانب الطبّ العربي ومداواة الناس صار يضرب بالرمل ويرى الطالع، وأنّه أخبر أحد زبائنه بمكان وجود السجّادة العجميّة التي سُرقت من بيته. وبوصفه لهذا المكان استدلّ الزبون على السارق الذي صدف أنّه كان ابن عمّه وجاره. ولمّا راح يطالب قريبه بالسجّادة المسروقة تقاتل ابنا العمّ بشراسة، ثم عادا إلى الخال - عقل الكوني - بصحبة الدرك. ولمّا ردّ الخال على التهمة بكلام غامض، وشروي غروي، ضربه الدرك ضربًا مبرّحًا وأودعوه النظارة. لكنّه في اليوم التالي وحال خروجه ذهب إلى صاحب السجّادة وضربه في بيته فجاءت إذ ذاك الأحزاب وهذبت الخال كما ينبغي، أي ضربته وسجنته في مقرّها تحت الأرض عدّة أسابيع وحين ألقوا به في الشارع ذهب يشتكي للدرك فرموه في حبس الرمل. وهو يريدكم الآن أن تذهبوا إليه وتهتمّوا بأمره.

لم يكن خالي في حبس الرمل رحمت أسأل عنه، أو عن عقل الكوني، في كلّ نواحي الأشرفيّة حتى استهديت إلى مكان سكنه. قال لي صاحب البناية إنّ قريبك اختفى، الله لا يرده، لي بذمته إيجار ستّة أشهر، وقد رميت كلّ أغراضه في الزباله ولا أريد أن أرى أحدًا يذكرني به إذ كاد هذا النصاب يذهب بعقل ابنتي المُقعّدة فيضيف الجنون إلى شللها النصفي.

رويّت ملخصًا عن رحلتي هذه لسلمي فقالت لي إنّ خالي في

الأرز يعيش مع جماعة من الأجانب، هيبيز يُقال لهم، وإنّ نجيب أخبر نبيهة بذلك. قالت نبيهة إنّ خالي لم يردّ على كلام نجيب حين ذهب إليه يطمئنّ ويستفسر

حاولتْ هنودة التخفيف من حيرتنا وقلقنا صارت تشرح لنا من هم الهيبيز وكأنّها معجبة بهم مسالمون جدًّا ويحبّون الموسيقى. يكرهون الحرب والسلاح ويعيشون معًا بمحبّة حتى حين يكونون من جنسيّات وألوان مختلفة. يسافرون كثيرًا ويحبّون الحرّيّة والفقير ويعتاشون من الصدقة ومن كرم الناس ولا يشتغلون إلّا قليلاً، خبزك كفاف يومك. ولا يحبّون السياسة

لكنّ منظر خالي، حين عثرتُ عليه مع جماعته في الأرز، بعيدًا عن منطقة الشاليهات، بقرب خيم المعازة، كان منظرًا يصعب وصفه. لم أعرفه إلّا بعد أن تفحصت وجوهًا كثيرة رغم الفرق البائن بين عمره وعمر الآخرين. كان مُرسلًا شعره ولحيته وقد وضع زهورًا وأعشابًا في رأسه، فبان الشيب كثيرًا كان شعره كأنّه ابيضّ في ليلة واحدة. أو في أسبوع. ثيابه الرثة، والمزدانة بالعقود والشرائط الملونة، جعلتني أحتار في ما أقول له إذ فكّرت أنّه صار لا بدّ مجنونًا

لكنّه استقبلني بالترحاب وضمّني إليه بشوق ومحبة وبعض العتب. وقبل أن يسمعي صار يقول إنّه يسامحني ويسامح الكون كلّهُ وصار أيضًا يطمئنني بخصوص ما رواه لنا الرجل الذي أرسله إلينا من حبس الرمل، قائلًا إنّ كلّ ذلك صار من الماضي. المنسي.

ثم سلّمت على الشباب والبنات فردّوا بابتسامات النعسانين،
كأنّهم ذاهبون لتوّهم إلى النوم. ثم انتحيّت بالخال جانبًا لأكلّمه
فقبل فورًا

قال لي إنّه عشر على الحقيقة الكاملة في حبس الرمل
وانكشف له سر الوجود إذ رأى بعينه وسمع بأذنه ما دلّ على حلّ
مشاكله بل ومشاكل كلّ البشر قاطبة، وأولهم اللّبانيّون.

- بعد ثلاثة أيّام من وصول خبر موته، وبكاء أتباعه عليه بكاءً
مرًا، ظهر بيننا في القاووش. هكذا داهش بلحمه وعظمه
الدكتور وأقام بيننا لا يراه حرّاس الحبس يكلمنا ويعظ فينا
بالحقيقة. ولما رأني أشكّ في ما يقول ويروي، ولا أندمج تمامًا
مثل تلامذته قال لي يا شحادة، أنا مسيحي مثلك. لست مارونيًا
لكنّي كنت من البروتستانت. والآن أنا مسيحي ومسلم ودرزي
وبوذي لأنّ الحقيقة واحدة والعقل الكوني واحد، ولا خلاص إلّا
ببوتقة الناس جميعًا في إيمان واحد. وأنا سوف أبوتقكم. ثم
قال لي هل تريد أن تأكل فواكه، وقبل أن أجيبه وجدنا على
الأرض أمامه تلة صغيرة من البرتقال. قال لنا هذا برتقال من
فلسطين، يافاوي، أحضرتُ لكم أطيبه. والبرتقال كان حقيقيًا
وأكلت منه، قال خالي.

إسمع يا طّوس هذا الرجل هو نبيّنا يؤمن بالأنبياء جميعًا وقد
تكلم إليهم كلّهم وكلّهم يكرهون التفرقة. أنا مثلاً لم أعد أكره
الإسلام والمسلمين. هذا الرجل يقول إن المسيح يحبّ محمّد
ويتكلّم معه دائمًا يرسم داهش على ورقة صغيرة نجمة خماسيّة ثم

يحرقها، ومن دخانها تسافر روحه - وأحيانًا جسده أيضًا - حول العالم وفي كل الأزمنة وعوالم الغيب. له كتب عديدة أنا أقرأ فيها الآن ولأن القيامة قريبة يجب أن يقرأ الجميع علمه خاصة في نذر الفناء، في كتاب الحداثق وكتاب الفراديس ليس بعيدًا عن وصف القيامة في الأناجيل لكنّه علمي أكثر، وواقعي، من زمننا يتكلّم عن الإلحاد وعن فساد الأرض، عن ليلة الأهوال المزلزلة وعن التخيّلات النوويّة وعنده صفحة في الفراديس عنوانها نيويورك وناطحات سحابها التي شتّها، وتقع على الرؤوس بداية الألفيّة المقبلة، هذا مذكور وبالبراهين في فصل فساد الأرض داهش هو الوحيد الذي يجمع العلم والأديان كلّها والمؤسف يا طنّوس أنّهم يتهمونه بالشعوذة، وممنوع أن تؤمن به في العلن على كلّ حال هؤلاء الجماعة الذين أنا معهم اليوم عقيدتهم تشبه عقيدتي، ولم أجد أحسن منهم أعاشرهم. أنت لا تعرفهم جيّدًا؛ إنّهم يغتوّن للشمس طوال النهار وأنا، كلّهم يحبّونني جدًّا، وكلّ ما أفعله لهم هو جلب بعض الحشيش وأحيانًا بعض الحليب من عند المعازة.

- يا خالي هؤلاء أجانب يسافرون حين ينتهي الصيف لن يستطيعوا البقاء هنا تحت الثلج ثم هل ستستمر تشخذ اللقمة من الناس. هكذا.

- الله يُعنى بلقمتك كما بلقمة الطير الطائر في الهواء هكذا قال يسوع ثم أنا لا أهتمّ بالمادّيّات أبدًا وحين يسافرون من هنا يا طنّوس سأسافر معهم ولا يجب أن تقلقوا عليّ فقد وجدت

نفسى . وعذابى انتهى إلى غير رجعة .

رحت أفكر فى طريق عودتى إلى بيروت كم سيكون صعباً أن أروي لسلمى حكاية خالى . أحاول أن أتخيل أسئلتها واستفساراتها ولومها لى على تركى إياه فوق .

لكننى ما إن فتحت الباب حتى وجدت البيت مليئاً بالبشر اقتربت منى سلمى وهى فى شحوب شديد وقالت بصوتٍ منخفض : فارس . اختفى . يقولون . سمعنا أن فارس مخطوف و .

رحتُ أصرخُ أمام تمثال العذراء بملء صوتي: ماذا فعلنا؟
ماذا فعلنا لك؟ ماذا فعلنا لابنك حتى نستحقّ كلّ هذا؟ ماذا تريدان
منّا؟ هل عصيناك يوماً؟ هل أشرتِ بأمرٍ وقلنا لا؟ هل كفرنا؟ هل
جدّفنا؟

خرج الخوري من الأفخارستيا ولم يقترب مني. أشار لي من
بعيد إلى كرسي الاعتراف فصرخت به: لا خطايا عندي أعترف
بها، اذهب إلى الآخرين اعتقد الخوري أنني مجنونة واختفى. وأنا
خرجتُ من الكنيسة دون ندم أو طلب الغفران. حافية ومنبوثة
الشعر من غضبي وألمي.

ذهبت إلى الكنيسة أتضرّع للعذراء أن ترفع عنا الكأس المرّة،
ألا تُدخلنا في التجربة حدّ التهلكة. ذهبتُ بنية الصلاة وطلب
الرحمة والمعونة، لكنني خرجت وأنا أردّد كلمات العصيان
والتحدّي. والكفر.

ثم رحت أبكي وأقول لها ارحميني. ارحميني ولا تحاسبيني

بهم إن كنتِ غاضبة مني اضربيني أنا، في صحّتي، في قلبي وفي عيني، ولا تنتقمني بهم منّي لا تنتقمني بالأولاد.

صار يوسف يقول إنّه نبه أخاه كثيرًا وها هم قد خطفوه. وصار يوسف يقول إنهم سوف يقتلون فارس إن لم نسارع إلى . لم يكن يردّ على أسئلتنا وكان يدور على نفسه كالمجنون.

ثم خرج يوسف من البيت وفي يده بارودة ولحق به جون وجورج ونجيب وطنّوس وكانت نبيهة، طيلة الوقت كأنّها ميّتة. شاحبة وجامدة لا تتكلّم ولا تتحرّك.

ثم عادوا في الليل ومعهم ثلاثة شبّان ورجل كهل وضعوهم في غرفة الكهرباء في الطابق الأرضي وأقفلوا عليهم باب الحديد. ثم قالوا إن على يوسف الآن أن يرشدهم إلى خاطفي أخيه كي يبادلونه بهؤلاء الذين خطفوه عن طريق الدورة بعد أن تأكّدوا أنّهم مسلمون بدا يوسف ضائعًا وطنّوس قعد في المطبخ لا يخرج منه ولا يكلم أحدًا

في الليل حضر شابّ من الحزب. سأل عن تفاصيل كثيرة حين رأى البارودة القديمة التي كنّا أخفيناها في البيت التحتاني راح يتسم ووعد الجميع بأسلحة حقيقية. لا نريد سلاحًا، قلنا له. نريد ابننا قال سوف تحتاجون السلاح للدفاع عن أنفسكم. سترون.

ثم أراد نقل مخطوفينا من غرفة الكهرباء إلى مقرّ الحزب ليتمّ التبادل. قال طنّوس لا فإوضوا بهم وهم عندنا لكنّ يوسف أسكت خاله بسرعة، وقال نجيب أنتم تعرفون أكثر منّا سنفعل وفق ما تقولون. أريد ابني. فأخذ الشابّ، بعد أن حضر رفيق له،

الشباب الثلاثة والرجل الكهل دون أن نرى شيئًا

بعد يومين عاد فارس إلى البيت . بعد أن رآته أمه مرضت .
أصابها ما يشبه هزة الحائط ثم حرارة مرتفعة جدًا ونامت .

لم يروِ فارس ما الذي جرى . كان كأته استُبدل بفارس آخر
قال يوسف يجب أن نترك هذا البلد أنا وأخي . وافق نجيب
بسرعة . وبعد أيام تركا البلاد بصحبة جورج وجون إلى أفريقيا
حيث وجد جورج صاحبًا قديمًا له هناك . ودّعناهم دون أن نذهب
إلى المطار

صابت أيضًا عادت إلى فرنسا قالت لنا ذلك قبل أيام قليلة
من سفرها ولم تقل لماذا وحين ذهبتُ إلى بيتها في وادي
أبو جميل لأحضر الأغراض التي تركتها لم نجد أنا وسائق الشاحنة
الصغيرة شيئًا قال لي السائق نهبوا كل شيء ، الآن يجب أن
نعود . فعدنا

خليل الذي كان شقيًا جدًا في الجيش ، بين تهكّم وسخرية
شباب الأحزاب من تخاذل وجبن الجيش ، وتحرّشات المسلّحين
الفلسطينيين وأفعالهم الشنيعة في الناس دون حسيب أو رقيب ، لم
يهرب كما كان يردّد دائمًا قُتل خليل قرب أحد المخيمات لا أحد
يعرف كيف . جاءنا به الجيش في تابوت مقفل وملفوف بالعلم فلم
نره . قُتل قبل أن يهرب فبكيناه كثيرًا

و . هنودة كانت شقيّة جدًا أحببت شابًا وقرّرت الزواج
بآخر رغم إلحاحي الشديد ووعودي بمساعدتها على الزواج بمن
تحبّ لم تقل لي هند شيئًا كانت فقط تبكي وتقول : يا خالتي ما

لنا ولهذا الموضوع. أقول لها عرفيني عليه يا هَنّودة، ولو؟! فتَهز برأسها أن لا يأساً

ثم راحت هند تبالغ في حماس الإعداد لعرسها في أوتيل الكارلتون. كانت تهتمّ كثيراً بالتفاصيل، حتى عدد الحمايم البيضاء التي يجب أن نطلقها بعد أن تقطع الكعكة. وكان وضع العريس المرتاح مادياً والوحيد عند أهله يسمح بذلك. كانت مسرعة في كلّ شيء لأنّها ستسافر مع العريس إلى السعودية حيث يعمل مهندساً، ولأنّها كانت تريد أن يكون عرسها يوم عيد ميلادها، في الثالث عشر من نيسان. ولأنّ العريس من عين الرمانة ذهبنا جميعاً إلى كنيسة مار مخايل لصلاة العرس. ورغم عدم اقتناعنا في البداية إلّا أنّنا جميعاً استسحنا أن نفرح بعرس ابنتنا، وفرحنا فعلاً لها وبها وأريناها ذلك حتى تطمئنّ، وخصوصاً أنا، حيث رحت أبالغ في فرحتي كأني بذلك أريها أنّنا معاً، هي وأنا، نسينا ذلك الذي تحبّه في قلبها سرّاً

صباح اليوم التالي وصلنا خبر مقتل بطريسة. كان في بوسطة ذاهبة إلى تلّ الزعتر، مليئة بالفلسطينيين قُتلوا جميعاً بالأسلحة الرشاشة. لم نفهم لماذا كان بطريسة في هذه البوسطة.

رحت أتخيّل أنّه، حين غادر الكارلتون قائلاً إنّ عليه أن يلتحق بوظيفته صباح اليوم التالي في المعمل، لم يجد سيّارة أجرة تقلّه إلى كاراج الضيعة، وأنّه، هكذا، بالصدفة، رأى هذه البوسطة تمر بجانبه فطلب من سائقها الذهاب إلى تلّ الزعتر، أن يحمله مسافة قليلة إذ هو سينزل في أوّل الدكوانة، ليسير بعدها مشياً حتى الدورة، إلى الكاراج حيث.

تأتي سلمى بحرام صوفي تُلقيه على ركبتيّ ثم تفتح حنفيّة
المازوت الصغيرة فأرى نار الوجاق تستعر أقرب كفيّ أبقى
هكذا لوقت طويل ولا أدفأ

أقول إنّه العمر لا اشتداد البرودة في الخارج في شتاءاتٍ
كثيرة كان الثلج يصل إلى علوّ مترين ولم ألتصق مرّةً هكذا بمدفأة
أو وجاق نار.

أدقّ النظر في الشبابيك والنوافذ. كلّها مقفلة رغم ذلك
تلفحني ريح باردة في وجهي. ريح جليديّة تخز الجلد بإبر صغيرة.
أم تراه صوت الزمهير في الخارج يوحى لأذنيّ.

تقف سلمى إلى النافذة، تتفرّج على العاصفة الثلجيّة تقول
هذا شتاء لم أر مثله في حياتي. لا أتذكّر

أنا أتذكّر ذلك الصبيّ على بغلته، عائداً إلى عيناتا

قال أبي طّوس لا تخف. تلحّف من الريح جيّداً وإن خفت

غنّ، فالصوت رفيق، وبغلتك تعرف الطريق. اترك لها الرسن حرّاً
وستحملك من نفسها لا تخف إن منعت الضبابة عنك الرؤية.
بغلتك تعرف الطريق ولو عمياء. فقط أسمعها صوتك من حين
لآخر لتأنس به.

كان وجه الصبيّ بارداً وجهه فقط ربّما من الخوف راح الدم
يسير بسرعة في جسمه الصغير ربّما أيضاً من الحيرة المرّة التي
جعلته يدور ببغلته مراراً محاولاً العودة إلى حيث أبوه، يبقى معه أو
يقنعه بالعودة سوياً إلى بيت بو علي.

حين أشرف الصبيّ على لحف الجبل وبدأت البغلة تسير
نزولاً، ترك رسنها من يده وعرف أنّه لن يعود إلى أبيه.

هل بدأ كلّ شيء حين تركت يده الرسن.

هل عاش حياته الأخرى بدءاً من تلك اللحظة.

الحياة الأخرى، تلك التي ما كان ينبغي أن تكون حياته. كأنه
ضاع حين مشى في الطريق الخطأ على المفترق بين طريقين سرّت
في التي ليست لي

لا المدن التي عشت فيها كانت بلادي، ولا المرأتان اللتان
تعلّقت بهما كانتا حبيّ، ولا الناس الذين عاشرتهم كانوا أهلي.

سمعتُ كلام أبي وتركت الرسن لبغلتني وغنيت لها لتأنس
بصوتي لكنّها ضلّت الطريق. كان عليّ ربّما أن أسمع الكلام الذي
لم يقله أبي الكلام الذي قاله لي قلبي، وأن أعود إليه على ظهر
الجرد. وألا أتركه وحيداً، إذ اليوم، في عمري هذا، أعرف أنّ

أبي ندم هناك ندمًا مرًا، وهو ربّما غضب من طاعتي له، وعتب عليّ عتبًا شديدًا

في عمري هذا صارت آلام مفاصلي هي أكثر ما يشغلني. أريد أن أقبل بما كانت عليه حياتي حتى لا يغلبني الوجد. فأنا لن أتقبل هذا الوجد أو أتدبّره، أو أعالجه إن ظللت أنظر هكذا إلى جسمي كأنه جسم رجل آخر رجل آخر أكرهه كراهيةً شديدة. إذ هو من عاش الحياة التي لم تكن لي

تُعينني أختي سلمى على ذلك. أنظر إلى كهولة جسمها فأرى كم أنها تشبهني وأشعر أنّي لست وحيدًا أختي، هي أيضًا عاشت حياةً لم تكن لها، حياةً أشدّ فقرًا من حياتي لكنني أنا الذي دفعتها فيها دفعًا حين تركتُ البغلة تعود بي إلى عيناتا ولم أرجع إلى أبي.

ماذا ينفع الكلام الآن؟ الكلام في أيّ شيء، فقد مضت الحياة، وها هي بدأت تسير نزولاً في المنحدر، تمامًا كتلك البغلة التي تسير من نفسها حتى عمياء تسير، ولا تحتاج للرؤية.

تقول سلمى هذا يوم أحد لكنّ الربّ سيسامحنا إن لم نذهب إلى القدّاس في طقس كهذا

ثم تقول سلمى إن الراديو حكى أنّ البارحة كان فظيعةً وسمّوه في الراديو السبت الأسود. فأقول لها ما لنا وللأخبار يا سلمى.

أفكر أنّنا، بعد خروجنا هكذا من الحياة وبعدما عدنا إلى مرتفعاتنا الثلجية هذه كرعيان خائبين وقد أضاعوا قطعانهم، ينبغي أن ننسى. ينبغي أن نترك الكلام لمن سيأتي بعدنا. فنحن الذين لم

نفهم ما الذي حدث لحيواتنا في الماضي، علينا أن نترك الرواية
لفصول آتية، لا نقدر الآن حتى على أن نتخيّلها ولو في الأحلام.
وأعرف أيضًا كم شاخ صوتي وكيف انطفأ في حلقي وفمي.
ومع هذا يخطر لي أحيانًا أن أغني. بما تبقى لي منه.
فأغني لوحدي.
هكذا أكور كفيّ حول أذني.
وأغني.

شكر

أشكر المؤسسات الثقافية والأشخاص ممّن قدّم لي المساعدة
للانصراف إلى كتابة هذه الرواية:

المركز الوطني الفرنسي للكتاب CNL

الصندوق العربي للثقافة والفنون

معهد الدراسات المتقدّمة في مدينة نانت الفرنسية IEA de Nantes

الأحباء غازي جعجع وهنادي جعجع وأنطوان الدويهي وعائدة
بركات

وأخصّ بالشكر الأستاذ أنطوان مالك طوق

الكاتبة

صدر لهدى بركات

- + زائرات - مجموعة نصوص - ١٩٨٥
 - + حجر الضحك - رواية - ١٩٩٠
 - + أهل الهوى - رواية - ١٩٩٣ ، طبعة دار الآداب ٢٠١٢
 - + حارث المياه - رواية - ٢٠٠٠
 - + سيّدي وحبّبي - رواية - ٢٠٠٤
 - + رسائل الغريبة - نصوص - ٢٠٠٤
 - + فيفا لاديفا - مسرحيّة - ٢٠٠٥
 - + ملكوت هذه الأرض - رواية - ٢٠١٢ ، دار الآداب بيروت .
 - + الهزيع الأخير - مسرحيّة - ٢٠١٣ ، تصدر عن دار الآداب ، بيروت .
- * ستعيد دار الآداب إصدار أعمال هدى بركات تبعًا .

بين الخرافة السحرية والوقائع المدونة بخفة الحكاية الشعبية لتاريخ لبنان، تعيش شخصيات عائلة «المزوقية» في المرتفعات الشمالية حيث يتحصن هؤلاء الموارنة من أعدائهم الكثيرين، وحيث تمر الحروب على مدى قرن.

يموت المزوق الأب بردًا على قمم ظهر الجرد الثلجية، فيسير ابنه طنوس بالحكاية، ثم تلتحق به أخته سلمى. بين أديرة الوادي المقدس وسير البطولات المحليّة الأسرة، يختلط حبّ الموطن بغياب الوطن.

في «ملكوت هذه الأرض»، نقرأ عن أفراح هؤلاء الناس البسيطة وعن شظف عيشهم، عن لهوهم السعيد وأوهامهم الكثيرة، وعن حكايات الأقدار الآيلة إلى الأسي.

هدى بركات روائية لبنانية. حصلت على تقدير عربيّ ودوليّ واسع، وتُرجمت أعمالها إلى العديد من اللغات. «ملكوت هذه الأرض» هي روايتها الخامسة.

ISBN: 978-9953-89-216-0



9 78 9953 89 216 0

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت